

السيرة النبوية
وكيف حرفها المستشرقون

ترجمة
محمد عبد العظيم علي

نقد وتحقيق وتصويب
عبد المتعال محمد الجبري



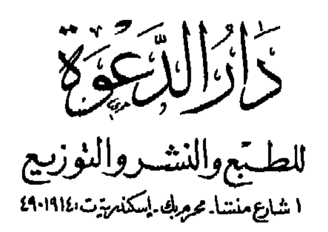
السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ

وَكَيْفَ حَرَّفَهَا المُسْتَشْرِقُونَ

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

رقم الإيداع القانونى	٩٤/٢٤٨٥
الترقيـــم الدولى	977-253-059-7





ترجمة
محمد عبد العظيم علي

نقد وتحقيق وتصويب
عبد المتعال محمد الجبري



بسم الله الرحمن الرحيم

إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم * إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون * من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان - ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم * ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدى القوم الكافرين * أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون * لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون *

(النحل ١٠٤ - ١٠٩)

تقديم الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

كثر إبراز التهم والأباطيل حول الإسلام فى المجلات والكتب والصحافة .. حيث تحشد كل محاولات التشكيك والافتراءات .. مع استخدام أساليب الغش والخداع ، وحشد الكفاءات المتخصصة لإنجاح خطط منظمة ، ونية مبيتة ، وحملة معبأة ، تحاول تتبع جذور مقومات الشخصية الإسلامية وتحاول هدمها :

* فأول ما بدأت حاولت هدم اللغة العربية وإلغاء استعمال الحروف العربية .

* وتبعتها محاولات التشكيك فى صحة القرآن ونزوله من عند الله ، مع إشاعة التضارب فى أحكامه .

* ثم الدعوة لإلغاء الأخذ بالحديث النبوى الشريف إطلاقاً .

* ثم تقديم أفكار جديدة وغريبة عن الغيبيات وفلسفة العبادات .

* ثم محاولات مستميتة لتقديم أحكام فى العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية مأخوذة عن روايات شاذة أو موضوعة .

* ومع كل هذه المحاولات تطعيم مشترك للنيل من شخصية الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم .

وهذا الكتاب الذى بين أيدينا هو عرض كامل « لمختصر حياة محمد » أعده المستشرق الفرنسى « م . سفارى » لفق فيه أحداث السيرة ، وصور فيه النبى على أنه شخصية فذة وعبقرية . استطاع بقوة شخصيته ، وقوة مواهبه ، والصدف المدهشة التى ساعدته ـ بالإضافة إلى دهائه السياسى وملكته الأدبية ـ استطاع أن يسيطر على العرب ، وأن يوهمهم بأنه نبى مرسل ، حتى أنه أتقن دوره التمثيلى فى ساعات الاحتضار كما يزعمون .

والذى يسترعى الانتباه ، دقة المؤلف فى ترتيب الأحداث التاريخية لتحقيق غرضه ، وإفادته من أخطاء المؤرخين والمؤلفين والكتّاب المسلمين ، وعرض هذه الاخطاء على أنها شهادة لا يجوزالطعن فيها .

وقد ترجم الأصل الفرنسى الاستاذ محمد عبد العظيم على ، وجاءت ترجمته أمينة ودقيقة .

وتم إعداد رد من متخصص فى السيرة على افتراءات هذا المستشرق ، كشف فيه أساليب المستشرقين عموما وفضحهم علميا ، وأثبت عدم أمانتهم العلمية رغم ثقة الناس بهم ثقة عمياء - وهى ما يعتمدون عليها فى ترويج سمومهم فى العالم الإسلامى خاصة وفى العالم كله عامة . وقد اختير لهذا العمل الجليل الاستاذ الكبير الدكتور/ عبد المتعال محمد الجبرى - خريج دار العلوم بالقاهرة وصاحب دراسات مستفيضة فى السيرة النبوية فى مؤلفات عديدة . وقد أعطى هذا الموضوع حقه بأمانة وإخلاص .

ونسأل الله أولاً أن يكون مقبولا عنده . والله من وراء القصد .

أسعد سيد أحمد

ورد عن المؤلف بالقاموس الموسوعى « لاروس »(المجلد السابع)

****

SAVARY (Claude - Etienne)

سڤارى (كلود- إتْيِنْ) رحالة ومستشرق فرنسى مولود بمدينة ڤِتْرِيه بفرنسا عام ١٧٥٠ ومتوفى بباريس عام ١٧٨٨ .

* من عام ١٧٧٦ إلى ١٧٨١ دفعه شغفه للترحال إلي زيارة مصر واليونان .

واعتمد على مذكراته فى كتابة « رسائل عن مصر » (١٧٨٨ - ١٧٨٩)

و« رسائل (غير مستكملة) عن اليونان » (١٧٨٨) .

* ونشرت له ترجمة متميزة بالفرنسية للقرآن عام ١٧٨٣ .

* ومن كتبه أيضا « غراميات أنس الوجود » مترجمة عن اللغة العربية . وكتاب عن « قواعد اللغة العربية العامية والفصحى » .

المترجم

****

كلمة الناشر

هذا المختصر هو دراسة تمهيدية مضافة إلى ترجمة باللغة الفرنسية للقرآن الكريم بأكمله، أعدها « م . سفارى » فى ٢٩ من أبريل عام ١٧٨٢ (الطبعة الأولى) .

وترجمت هذه الدراسة إلى اللغة العربية عن طبعة سنة ١٩٢٣ « مطبعة لوتيتيا . باريس . فرنسا . والناشر مكتبة إخوان جارنييه ٦ شارع سان بير . باريس . فرنسا .

LIBRAIRIE GARNIER FRERES

6 RUE DES SAINTS-PERES

PARIS-FRANCE.

وقد تولى نقلها إلى العربية الأستاذ محمد عبد العظيم على ، وتولى الأستاذ الدكتور عبد المتعال محمد الجبرى تحليل هذه الدراسة، ونقدها ، والتقديم لها ، ورد النصوص العربية فى الأصل الفرنسى إلى العربية، وتحقيق الأعلام وأسماء الأماكن ، وإضافة ما يلزم لتحديدها من بيان نسب الشخص أو جهة المكان . كما قام بتبويبه والعنونة للموضوعات، ثم عمل ثبت بها ييسر للقارىء الرجوع إليه ، وأضاف إلى مراجع المؤلف الفرنسى بعض المراجع الأخرى التى تناولت ما فى مراجع المؤلف ، زيادة للفائدة .

ولما كان المرجع الرئيسى للمؤلف هو أبو الفداء ، ولم يعرف من هو الناشر لمرجعه، فقد تفضل الأستاذ الدكتور الجبرى فرجع إلى كل فقرة ذكر لها مرجع فى الكتاب يبين الصفحات فى أبى الفداء وفى غيره من المراجع محدداً الطبعات التى يرجع فيها إلى هذه المراجع ، وقد كان « م . سفارى » يضع أسماء بعض المراجع وهى غفل من بيان الصفحات ، فضلاً عن ذكر الناشر أو تحديد الطبعة، فأتم الأستاذ الدكتور الجبرى هذا العمل ، فجميع ما ذكر فى الكتاب من صفحات المراجع حققها الأستاذ الدكتور الجبرى وهى فى مجملها من عمله .

وبهذا صار كتاب « سفارى » ذا قيمة كبيرة لأن ما فيه من حقائق كشف عن حقيقة مراجعها كاتبنا الكبير مبينا صدق نقل « سفارى » أو خطأه أو كذبه .

ولما كانت النصوص التى ينقلها « سفارى » يصيبها الضعف فى نقله لها من المصادر العربية، فإن الأستاذ الدكتور الجبرى تولى ردها إلى هذه المصادر الأصلية ، وجعلها أمام القارىء فى صيغتها العربية الأصلية ، مما جعل بعض فقرات الكتاب تحمل أسلوب عصر غير أسلوب عصر المترجم العربى .

وقد حرصنا فى طبع الكتاب على التمييز بين ألفاظ « سفارى » ، وبين ما هو من عمل الاستاذ الدكتور الجبرى - المحقق الناقد - فوضعنا كل ما هو جهد مضاف إلى كتاب «سفارى» بين قوسين مضلعين كذا [ ] وطبع ببنط أسود لتمييزه عن الأصل المترجم . الذى طبع ببنط أبيض . فجاء الكتاب صورة صادقة للحقيقة التى أرادها المحقق الناقد ، ولما أراده المستشرق، ولما نريده من إعطاء القارىء وجهتى النظر ﴿ وهديناه النجدين﴾ والله يهدى إلى الحق بإذنه ويهدى إلى صراط مستقيم .

دار الدعوة

للطبع والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق الناقد

نحمد الله على نعمائه ونصلى ونسلم على رسول الله وعلى آله وأصحابه والسالكين طريقهم إلى يوم الدين وبعد .

فبين يدى القارىء دراسة هامة لجانب من الدراسات الإسلامية والتاريخية لها طابع خاص تنفرد به ، إذ أنها تتناول سيرة النبى ﷺ بإيجاز ولكنه شامل كل جوانب السيرة . وهى فى هذا التناول تعرض السيرة من وجهة نظر المستشرقين الكتابيين - يهوداً أو نصارى - فالكتاب إذن يمتاز بأنه يرينا - من هذه الناحية - كيف يطل كبار كتّاب الغرب على تاريخ نبينا ، وكيف ينظرون إلى رسولنا ورسالته معاً . وكيف يطلون دم الحقيقة فى غير خجل ولا استحياء . وكل كاتب تنطبع كتاباته بثقافته ومعتقداته ومشاعره حباً أو بغضاً . فلا بدع أن جاءت كتابة المستشرقين وهم على النقيض من الإسلام وفيها مشاعرهم وثقافتهم الكنسية .. وهم يختلفون فى المدى الذى تندفع إليه مشاعرهم الساخطة على دين يناوؤونه ، بين رذاذ وصيب منهمر .

وقد اخترنا من المستشرقين « م. سفارى » وهو مستشرق فرنسى ألف « مختصر حياة محمد » وقد اعتمد فيه على « أبى الفداء » وعلى « ابن سيد الناس » المتوفى سنة ٧٣٤هـ بالقاهرة .

و« ابن سيد الناس » هذا قد أخذ عن بهاء الدين عبد المحسن ، أحد رواة الطبقات الكبرى لأبى عبد الله محمد بن سعد بن منيع المتوفى سنة ٢٣٠ هـ ، وابن سعد وبهاء الدين ليسا من ثقات المحدثين ، ولذا فإن اعتماد المستشرق « سفارى » عليه اعتماد على أقوال واهية لا يحتج بها .

والمختصر إنما هو مقدمة كتبها سفارى لترجمة القرآن الكريم بالفرنسية ، قال إنه ترجمه عن العربية ، بعد أن زار القاهرة واتصل بأهل القرآن ودرس لغتهم . وطبعت الترجمة الفرنسية لأول مرة فى ٢٩ من أبريل سنة ١٧٨٢ وهو نموذج لكتابات المستشرقين . وقد نقله بأمانة إلى العربية زميلى الأستاذ / محمد عبد العظيم على ، وقد توليت تبويبه وتحقيق نصوصه وبخاصة المروية عن رسول الله ﷺ ، ورجعت إلى

المراجع الهامة التى تناولت كل نقطة فى المختصر، وبخاصة ما رأيت أن فيه مخالفة للحقيقة إذ عدت إلى الأصول التى ينقل عنها وينسب إليها روايته ليكون الحكم على أمانته العلمية حكم البصير الذى فى يده الدليل المادى ، وفى الأسماء التى ترددت فى الكتاب متاهة . فمثلاً بنو سليم ، كثيرون ، ولم يحدد المستشرق أيهم يريد ، وهكذا قل فى أسماء البقاع، وكان لزاماً علينا أن نضيف إلى الأسماء ما يحدد المراد ، وجعلنا هذه الإضافة أحياناً فى الهامش ، وكثيراً ما يكون ذلك فى صلب المختصر .

* * *

وكان أكثر اعتماد المستشرق « سفارى » على تاريخ أبى الفداء ، صاحب حماة ، وهو الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء ، إسماعيل بن السلطان الملك الأفضل نور الدين أبى الحسن على . وينتهى نسبه إلى السلطان الملك الأفضل أبى الشكر نجم الدين أيوب، والد السلطان الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى المتوفى عام ٧٣٢ هـ. وقد جمع «أبو الفداء» تاريخه من المراجع الكبرى الجامعة فى أربعة أجزاء سماه «المختصر فى أخبار البشر» . وقد ذكر أبو الفداء أنه كتاب مختصر من « الكامل »لابن الأثير الجزرى و « تجارب الأمم » لأبى على أحمد بن مسكويه وغيرهما من الكتب .

وكتاب أبى الفداء من كتب التاريخ العام تناول بدء الخليقة حتى عصر الرسول ثم مضى مع الزمن يؤرخ له حتى توفى .

وقد نشرته دار الطباعة العامرة الشاهانية بالقسطنطينية فى أواخر ذى الحجة الحرام ختام عام ١١٨٦ هـ وقد ألحق بالكتاب تاريخ السنوات التى أعقبت وفاته حتى عام ٧٤٨هـ ، وقد اعتمدت فى مراجعة ما نقله سفارى عن أبى الفداء على هذه الطبعة ، ووضعت أرقام الصفحات بالكتاب طبقاً لها ليرجع إليها من يشاء . والجزء الخاص بالسيرة ضمن الجزء الأول ، وقد ترجم فى جزء خاص اعتمد عليه المستشرق وسمى هذا الجزء «حياة محمد» . ولذا فإن أرقام المستشرق لا تفيدنا لأنه لم يحدد أى طبعة نقل عنها .

وقد حظى كتاب أبى الفداء باهتمام المستشرقين . فنشر الجزء الخاص بالعصر الجاهلى منه المستشرق الألمانى أفريتاج (١٧٨٨-١٨٦١) م وكان نشره عام ١٨٣٧ م

وهكذا نشر الجزء الخاص بالعرب قبل الإسلام المستشرق سبيتا (SPITTA) (١٨١٨-١٨٨٣) م.

وترجم نفس الجزء فليشر الألمانى (١٨٠١-١٨٨٨) م وعلق حواشيه ، وطبع فى «ليبزج» عام ١٨٣١ ،كما ترجم الكتاب جميعه بالألمانية المستشرق «مسيكه» ، كما نقله إلى اللاتينية المستشرق «رايشكه» (١٧١٦-١٧٩٤) م وكان ذلك عام ١٧٥٤ وتم ذلك فى خمس مجلدات .

ولأبى الفداء كتاب آخر فى الجغرافيا ذكره «سفارى» ، وقد ترجمه «جويار» عام (١٨٢٤-١٨٨٤) الذى مات منتحراً . كما ترجمه فى أواسط القرن الماضى المستشرق «رينو» بمساعدة البارون «دى سلان» (١٨٧٩) . ومن الأبحاث الهامة لأبى الفداء فى الفلك كشفه عن «القاعدة الثانية لحركة القمر» وهو أول من وصل إلى هذا كما قال «سيديو» الفرنسى .

وسيجد القارىء تباينا فى الأسلوب ، وذلك أنى رددت بعض النصوص إلى أصلها المروى بصيغة عصورها الموغلة فى القدم ، ولكل عصر طابعه الخاص فى الأسلوب والتفكير .

وسيجد القارىء فى هذا الكتاب :

- مختصر المستشرق «سفارى» الذى نقله إلى العربية فى أمانة ودقة كاملتين أخى الأستاذ محمد عبد العظيم على ... وفيه المغالطات والمفتريات الحاقدة - صراحة أو مواربة - ولم ندعها تمر ، بل أهوينا عليها بمعول الحق فإذا الباطل زاهق ﴿ ودمرنا ماكانوا يصنعون ﴾ . وأشرنا إلى أباطيل غير «سفارى» من المستشرقين كذلك فى النقاط التى لم يثرها وأثارها أمثاله من خصوم الإسلام والشرق ، حتى يكون قارىء الكتاب فى حصن ومنعة من كيد الماكرين الغربيين ، لو أنه ذهب إلى الغرب يوماً أو أحاطت به ثقافة الغرب بوسيلة ما من الوسائل ، ولتكون الصورة متكاملة للفكر والاستشراق عن السيرة المحمدية .

والكتاب بعد هذا الجهد المضنى الذى بذل سواء فى ترجمته ، أو فى التنقيب عن أصل كل فكرة فيه ، والإرشاد إلى خطئها ومظانها فى المراجع العربية ، وتحقيق

الأعلام والتعريف بالأماكن ، ثم تتبع كل فكرة خبيثة قالها المستشرقون فى مجال السيرة النبوية المطهرة - يعد حلماً راود كثيرين من الغيورين على الإسلام ، وعملاً هاماً لا تستغنى عنه المكتبة الإسلامية ويحتاجه كل قارىء - وبخاصة الذين يتصدون للدعوة إلى الإسلام - ، ورواد الشباب فى هذا العصر الذى أغرق فى الثقافات الأجنبية حتى أصبح أجنبى الفكر والعقيدة والتصور ، وإن كان عربى الإسم والمولد ، بل ان كل باحث فى الإسلام عامة وفى السيرة بوجه خاص لفى حاجة ماسة إلى هذه الدراسة التى حاولت أن أجعلها مركزة ، لأنها تعطينا الخيط الفكرى الحاقد على الإسلام فى ظلال قصة السيرة النبوية المطهرة وتحت لواء البحث العلمى الحر النزيه، ما هو بعلم ولا نزيه ، وتمنح القارىء الأدلة الكافية التى يسلطها على هذه الترهات فيذيبها كما يذيب وهج الشمس بريق الجليد .

لقد قمت بتصويب المعلومات الخاطئة التى ذكرها المستشرقون عن الشريعة كالتى أوردها « سفارى » عندما تناول موضوع الحج .

ورددت المصطلحات الإسلامية إلى صيغتها العربية بدلاً من البديل الذى اعتمد عليه «سفارى» جرياً وراء مصطلحات الديانة المسيحية ، فإن لكل مصطلح ظلالاً خاصة يضيفها حول المعنى المراد من اللفظ الإسطلاحى . فتحريفه المصطلحات الإسلامية بغية تقريب الصورة إلى القارىء المسيحى يشوه الحقيقة ، وربما كان المراد توطيد هذه المصطلحات فى نفس القراء وحجب المصطلحات الإسلامية .. كيما يبدو الإسلام فى صورة الفكر الذى جاء أخيراً مسروقاً مما سبقه من أديان وأفكار ... وهذا الغرض الخبيث يتمشى مع ما قذف به آديسون Adisson رسول الله إذ قال « لم يستطع محمد فهم النصرانية ، ولذلك لم يكن فى خياله منها إلا صورةٍ مشوهةٍ بنى عليها دينه الذى جاء به إلى العرب » ، ومثله فى هذا هنرى جيسب - المستشرق الأمريكى - الذى قال « المسلمون لا يفهمون الأديان ولا يقدرونها قدرها . إنهم لصوص وقتلة ومتأخرون ، وإن التبشير سيعمل على تمدينهم .»

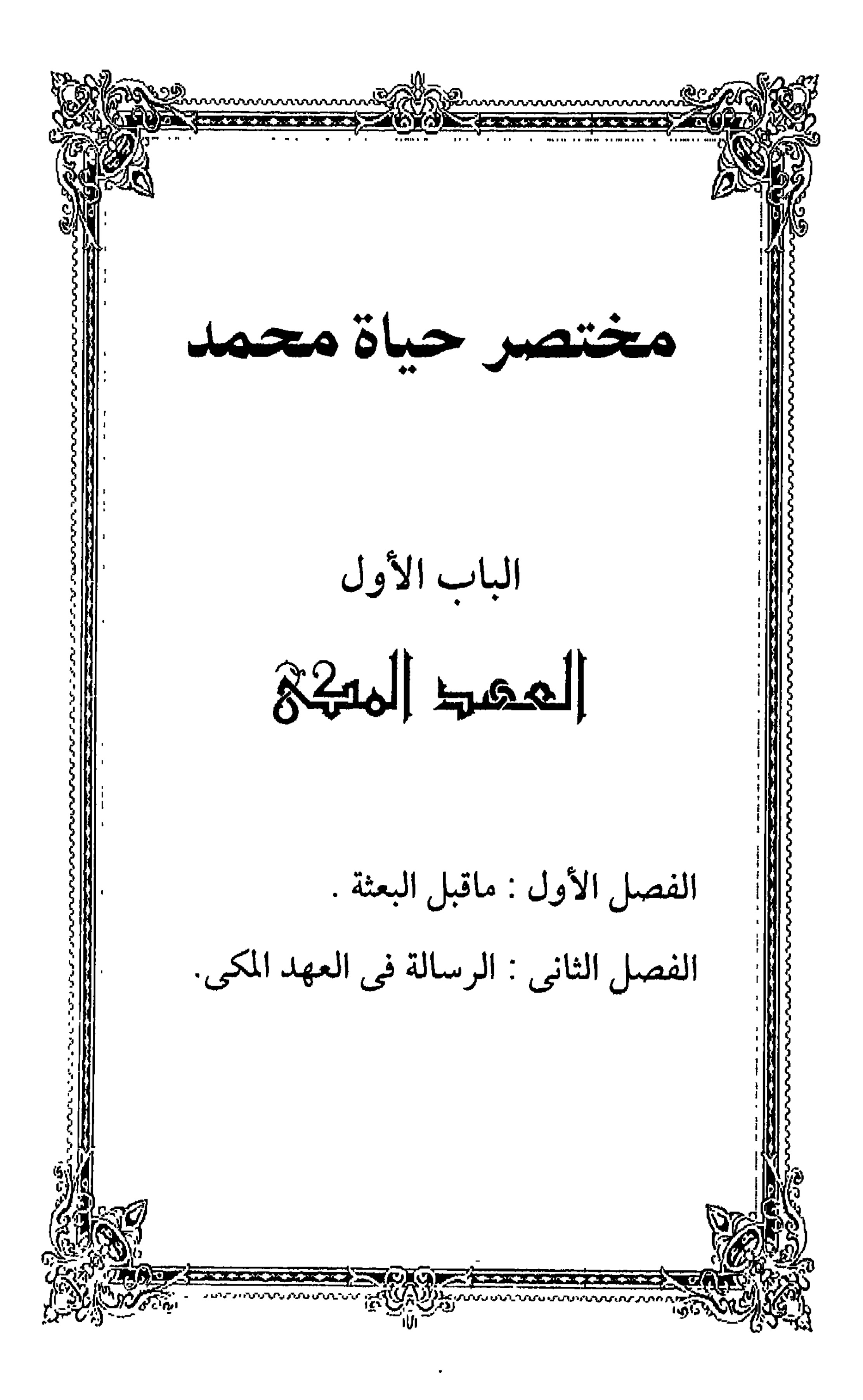
كما تم تصحيح الفهم الخاطىء الذى وقع فيه المستشرق نتيجة جهله للمدلول اللغوى . فقد يكون للكلمة معنى فى اللغة الدارجة (العامية) غير معناها فى اللغة الفصحى ، فيسلك المستشرق فى فهمه للعبارة طريق «العامية» . وبهذا يقع فى الخطأ .

وربما كان للكلمة مدلولان باعتبارين فيحمل اللفظ على غير محمله .

وربما وقع الكاتب فى الخطأ نتيجة لخطئه فى منهج البحث ، وجهله أو تجاهله قواعد المنطق وعلم الحديث ، وبخاصة ، علم الرجال ، أى رواة الحديث ، كما فى زعمه تخصيص على بن أبى طالب بالأكل مع النبى ﷺ فى حجة الوداع ورفضه عليه السلام أن يأكل معهما غيرهما ، وهذا مما افتراه على النبى الشيعة . وبينا ما دخله التحريف من النصوص .كما فى الحديث عن الاستبراء من حقوق الآخرين .

وربما لجأ المؤلف إلى تفسير الظواهر الإجتماعية والتقاليد السياسية التى كانت فى العصر الجاهلى لدى العرب وصدر الإسلام بما هو قائم فى العصور الأخيرة لدى الغربيين، بالرغم من اختلاف الطباع والبيئات وأنماط الشخصيات والبواعث العامة فى كل بيئة ، والمفاهيم (الأيديولوجيات) الموروثة التى تحكم كلاً من المجتمع العربى فى الجاهلية والمجتمعات الغربية فى العصر الحديث .. وإنما يلجأ الكاتب إلى هذا مع وضوح الخطأ فى منهج البحث وفى أسلوب التفكير لمجرد تفسير تاريخ الإسلام والرسول فى الصور البغيضة ، تقرباً منه إلى الكنيسة ، أو تملقاً للجماهير ، أو رغبة فى رواج كتابه ، أو إشباعاً للحقد الدفين على الإسلام ورسوله ، أو إيغاراً لصدور قرائه من بنى جلدته على المسلمين، وتحقيراً لشأن المشرق حتى يشد من عزائم ساسة الغرب والطموحين إلى غزوه ﴿يريدون لطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾.

الدكتور عبد *المتعال محمد الجبرى* .



مختصر حياة محمد

الباب الأول

العهد المكى

الفصل الأول : ماقبل البعثة .

الفصل الثانى : الرسالة فى العهد المكى.

[الفصل الاول : ما قبل البعثه]

مختصر حياة محمد

دراسة مقتبسة من مؤلفات أشهر الكتاب العرب ومن الترجمات الصحيحة للسنة(1)

[مولد الرسول ونسبه]

عام ٦١٦٣ من هبوط آدم ـ حسب تقدير أبي الفداء عام ٥٧٨ من ميلاد المسيح ، و٥٣ ق هـ

[وقيل عام ٥٧٠م وهو الذى ذهب إليه د . محمد حسين هيكل فى كتابه «حياة محمد» ص١٠٦ ط ثانية] .

ولد محمد (2) ـ الذى يلقبه المسلمون [؟!] بالرسول والنبى تمجيداً وتعظيماً له ـ فى بداية حرب الفيل (3) بمكة (4) وأبوه هو عبد الله بن عبد المطلب ، وأمه هى آمنة بنت وهب أمير بنى زهرة ، ويرجع أصلها إلى قبيلة قريش أشهر قبائل العرب .

وهذه الأمة التى لا مثيل لها فى الاهتمام بحفظ الأنساب ، احتفظت بسلسلة أنسابها بدقة تامة ، ولقد وضح لنا أبو الفداء ـ أمير حماة وأشهر الكتاب العرب ـ شجرة عائلة محمد فى كتابه « التاريخ العام » فأرجع أصله إلى آدم عن طريق إبراهيم وإسماعيل . وسنكتفى بنقل حلقات نسبه التى أوردها حتى بلغ هذين الشيخين . فهو أبو القاسم (5) محمد بن عبد الله بن

---

(1) السنة . هى جماع الأثر النبوى . وسلطتها التشريعية فى نظر المسلمين تشبه سلطة القانون الشفوى عند اليهود.

(2) ينطقها المسلمون [العوام] « مَحَمَّد » إلا أن ما يكنونه لهذا الاسم من تقديس لا يجعلهم ينطقون به من غير أن يضيفوا إليه « النبى » أو « رسول الله » .

(3) سميت هذه الحرب هكذا ، لأن « أبرهة » أمير اليمن ـ كان قد أعلن الحرب على قريش ، وأتى إلى مكة ممتطياً فيلاً لهدم الكعبة ، وقد هلك هو وجيشه (أبو الفدا). [جـ ١ ص ١١٤ - ١١٥]

(4) تقع مكة فى واد غير خصيب ، وطولها فرسخ وعرضها نصف فرسخ ، وتحيط بها الصحارى القاحلة ، والأراضى الصخرية ، ويعتبر ماء زمزم ـ الذى كشفه الملاك لهاجر ـ المصدر الوحيد للماء العذب . ويستخدم السكان الخزانات لجمع ماء المطر ، وقد فشلت مشروعات كثيرة لتوصيل مياة الجبال المجاورة إليها ، ولكن إحدى زوجات سليمان ـ الأمبراطور التركى ـ أقامت مشروعاً على نفقتها وحالفها التوفيق .

(5) بعد أن رزق « محمد » من زوجته الأولى « خديجة » بولد اسمه القاسم ، كنى به وأصبح ينادى « أبو القاسم محمد » كما هى عادة العرب فى أخذ اسم الابن الأول [عند الكنية] .

عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب [1] بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركه بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

إلى هنا وسلسلة النسب غير مضطربة ،فكل علماء الأنساب يعتبرونها صحيحة . كما أن عدنان هو من نسل إسماعيل ، وهذه أيضاً حقيقة يحفظها التاريخ ، ولكن المؤرخين يملأون الفراغ بينهما بطرق مختلفة ، وسوف لا نتوقف عند مناقشات قد لا تهمنا كثيراً .

كما أن عدنان هو من نسل إسماعيل ، وهذه أيضاً حقيقة يحفظها التاريخ ، « فالجمهرة » [« جمهرة الأنساب » لأبى المنذر بن هشام بن الكلبى (المتوفى عام ٢٠٤ أو ٢٠٦ هـ = ٨١٩ أو ٨٢١ م) وهو أوسع وأول من كتب كتاباً يحمل اسم «جمهرة الأنساب»] وهو الذى مجده أبو الفداء - يكمل هذه السلسلة على النحو التالى : « عدنان بن أد بن أدر بن اليسع بن الهميسع بن سلامان بن ثابت [ويقال : نبت] بن حمل بن قيذار [ويقال : قيذر] بن إسماعيل ...[2] .

[مهاجمة إسماعيل]

وبعد أن طرد أبو العرب من منزل أبيه [؟!] جاء ليستقر بمكة مع أمه « هاجر »حيث بنى الكعبة عام ٢٧٩٣ ق هـ [3] .

[هكذا حمل التعصب المستشرق على إظهار إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما

(١) ويسمى « حكيماً » أيضاً .

(٢) [نسب قريش لأبى عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيرى ص ٣ ، ٤ ط دار المعارف للطباعة والنشر . ذخائر العرب . حققه ونشره لأول مرة أ . ليفى بروفنسال ، وهناك روايات أخرى فى الطبقات ١٨، ١٩].

(٣) يرى العرب أن الكعبة هى أول معبد أقامه الناس لعبادة الله . ويذكر التاريخ أن بناءها سبق بناء معبد « أورشليم » ب ٩٩٣ سنة أى بأكثر من ألفى عام ق . م . ويوحى اسمها « الكعبه » أى المربعة بأنها بنيت فى زمن كان الناس فيه يجهلون فن العمارة ، فقد انحصر علمهم فى إقامة أربعه جدران تكون مربعا ، هكذا كان شكل الأبنية الأولى التى أقامتها سواعد الرجال [البداية صحيحة ، ولكن استنباط « سفارى »، هذا من شكل البناء استنباط فاسد ، اذ أن بناء البيت الكريم لتجمع عام ليس هناك شكل افضل له من أن يكون مربعاً وخالياً من الجدر التى تقسمه حجرات ، وذلك ليكون توزيع الصوت فى أرجائه توزيعاً عادلاً وسليماً ، وبخاصة وأنه لم تكن هنالك مكبرات صوت] .

السلام - فى صورة المنبوذ من أبيه إبراهيم أبى الأنبياء ، وإسماعيل هو أخو إسحاق أبى أنبياء بنى إسرائيل ، فقال الكاتب « طرد أبو العرب » .]

[ومع أن الكاتب يذكر هذا فى مقدمة ترجمة للقرآن ، فقد تناسى أن القرآن لم يذكر أن إسماعيل كان مطروداً ، وأنما - على النقيض - ذكر القرآن ، أن إبراهيم هو الذى أخذ إسماعيل صغيراً إلى المكان الذى أقيم عليه المسجد الحرام ، وأسكنه بنفسه هناك داعياً له بالبركات ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فأجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ (إبراهيم : ٣٧) . ثم ذكر القرآن أن إسماعيل هذا كان نعمة من الله جديرة بالحمد ﴿ الحمد الله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق ، إن ربى لسميع الدعاء﴾ « إبراهيم : ٣٩ .]

[فهو يقرنه باسحاق عند شكره لأنعم الله عليه ، ولو أن إسماعيل كان مطروداً لكان طرده يقتضى دعاء ينم بالنقمة عليه والبغض له ، وليس الشكر لله على أن وهبه هو وإسحاق له . . . « عليهم السلام » ولكن «سفارى » لا يريد أن يكتب الحقيقة ، وإنما يريد التشويه لتاريخ محمد ﷺ بل التشويه لكل ما يتصل به ﷺ ولو كان فى أقدم العصور .]

[وانه لا يخفى أن هذه الصورة المشوهه لجد محمد الأعلى تمضى مع علم النفس الحديث فى خدمة غرض واحد ، إذ يقرر علم النفس أثر الوراثة فى الأحفاد ، فالجد الشرير تشبهه ذريته ، والعكس صحيح . هذه ناحية .]

[والناحية الثانية أن « سفارى » يلقى - فى عالم الأفكار بكلمته ، وكأنها قضية تاريخية مسلمة ، وكأن القرآن - حين ذكر نقيضها - لا يذكر الحقيقة ، وإنما يذكر أساطير. وهذا خبث فى الطوية ،﴿ ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم ﴾ (محمد : ٣٠) .][1]

[رسالة اسماعيل]

ويقول الكتّاب المسلمون : إن السماء أرسلت إلي إسماعيل أباه إبراهيم ليساعده في بناء

(١) [أبو الفداء : ج ١ص١٥ ط دار الطباعه العامره الشاهانيه بقسطنطينيه عام ١٢٨٦ وهذه الطبعه التى سنعّول عليها فى ذكر الصفحات التى نقل منها « سفارى » معلوماته موضوعه بين قوسين هكذا [....] .

الكعبة] وهنا يهمل سفارى ما ذكره أبو الفداء الذى عول عليه فى كتابه من أن الله هو الذى أرسل إليه إبراهيم . وعبارة الكاتب تحمل فى تضاعيفها التشكيك فى إرسال السماء إبراهيم ليبنى مع ولده إسماعيل الكعبة حرصاً منه على تخفيف ما للكعبة من قدسية الإنتماء لإبراهيم لدى المسلمين ، ولدى غيرهم من النصارى واليهود ، وهو فى الوقت ذاته يشكك فى القرآن الذى يترجمه حين يقرر هذه المشاركة وهذا البعث والتكليف .﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع والسجود ﴾ ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل . ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ ثم يؤكد إنتماء الأمة الإسلامية العربية لإبراهيم وإسماعيل مبشراً بنبوة محمد عليه السلام ﴿ ربنا واجعلنا مسلمِيْن لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ ثم يلعن الذين ينحرفون عن ملة إبراهيم التى بعث محمد بتجديدها ويحقرهم ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾ (البقرة : ١٢٥ – ١٣٠] .

] وكتابة « سفارى » بهذا النهج تحمل أول الأدلة على الكفر بالقرآن الذى يترجمه، ولهذا فإنه يرفض مقرراته التاريخية ، ولا يجعل لها أى قدسية ، بل ويشحذ عزيمته لتشويهها ، بل إن الكاتب بعمله هذا يحجب ما فى كتابه المقدس عن إسماعيل وذريته من تمجيد وتكريم ، ففى كتاب أشعيا الباب ٤٢ أن الدين الجديد فى بيوت قيدار بن اسماعيل [1] ، وفى سفر الاستثناء الباب ٣٦ ما نصه (جاء الرب من سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبل فاران) وتوضيح ذلك أن مجىء الرب من سيناء كناية عن إعطائه التوراة لموسى عليه السلام ، وأن إشراق الرب من ساعير كناية عن إعطائه الإنجيل لعيسى عليه السلام ، وأن استعلانه من فاران كناية عن إنزاله القرآن على سيدنا محمد ﷺ لأن فاران جبل من جبال مكة ، فهى المرادة بقول التوراة : (سكن إسماعيل فى برية فاران) لأن استعلان الله بالقرآن لم يكن إلا بمكة وما جاورها [2] . وفى أشعيا ص٦٠ :١-٧ (كل غنم قيدار تجتمع إليك . كباش نايوت

---

(١) [ثبات الإيمان ونصرة القرآن فى الرد على هاشم العربى الطاعن فى القرآن فى كتابه المسمى بالتذييل لمحمد حلاوه المرصفى ص ٢٦ طبعه الامتياز بالزقازيق بعد سنة ١٣٢٩ هـ] . (٢) [نفس المرجع صفحه ٣٦ : ٣٧] .

تخدمك ، تصعد إليك مقبولة على مذبحى - وأين بيت جمالى) وقيدار ونايوت (نايت) هما ابنا إسماعيل . وقوله : (تصعد مقبولة على مذبحى) ، إشارة إلى يوم الأضحى بمنى .]

[وأعجب من «سفارى» أولئك المستشرقون الذين ينكرون قصة دخول إبراهيم وادى مكة على الإطلاق ، فهو أوغل فى الفساد لما ذكرناه . وللاجماع المنقول بالتواتر.]

[تسمية النبي محمداً]

ويعتز الشرقيون بكثرة الأولاد ، فمولد ولد عندهم يعتبر يوم عيد .

وأراد عبد المطلب الاحتفال بمولد حفيده (1) وكانت خدمته للكعبه قد أكسبته نفوذاً كبيراً. ومرد الفضل في توليه سدانه الكعبة - وهي أشرف المهام في الجزيزة العربية - يعود إلي فضائله الخلقية قبل شرف نسبه .

وعندئذ قام بدعوة زعماء قبيلته إلى العقيقة [وهى المأدبه التى تقام ابتهاجاً بالمولود يوم السابع] ونهض بعض المدعوين يثنون عليه وسألوه عن اسم الوليد المحتفي به فقال : « لقد سميته محمدا . قالوا ألا يحسن أن تمنحه اسماً مأثوراً عن عائلته ؟ ! فرد عليهم قائلاً : إني أردت أن يكون محموداً فى السماء محموداً فى الأرض (2) .

[إرهاصات النبوة]

ولقد أحاطت الخوارق بنبأ ميلاد محمد مثله مثل مشاهير الرجال الذين أدهشوا الدنيا . ولا يمل الكتاب العرب من سرد هذه الخوارق ، وإذا صحت شهادتهم ، ففى لحظة ميلاده غمرت الضواحى والمدن القريبة بضوء ساطع ، وطردت الشياطين من أقطار السماء ، وزلزل قصر كسرى زلزالاً شديداً ، وسقط أربعة من أبراجه ، وخمدت النار المقدسة فى بلاد فارس -

---

(1) أبو الفداء [جـ 1 ص 110] حياة محمد : ص 2 - [فقه السيرة ص 61 ط 4 دار الكتب الحديثة شارع الجمهورية بالقاهرة] [الطبقات جـ1 ص 64 أن هذه التسمية كانت استجابة لرؤيا أمه آمنة وهى حامل برسول الله أن تسميه أحمد].

(2) ومحمد : اسم مفعول لفعل حمد : ومعناه متصف بالحمد والتمجيد .

وقد كانت مشتعلة منذ أكثر من ألف سنة ـ وجفت بحيرة ساوه فجأة .(١)

[تعقيب]

[وما قرره الكاتب من أن جفاف البحيرة المقدسة ليس له أى دلالة : أراد به مهاجمة فكرة لدى المسلمين وغيرهم : وهى أن هناك من الأحداث الاجتماعية أو الطبيعية الكبرى القاهرة ما يكون تمهيداً للرسالات السماوية ، ويسمى « إرهاص » ولا شك أن فى إزالةالبحيرة المقدسة « ساوه » من الوجود ، تخليصاً للفرس من وثنية كانت ستقف عقبة كئوداً يجتمع حولها الوثنيون لمقاومة التوحيد الإسلامى ، ولا ريب أن سقوط أى معقل للوثنية تمهيد للطريق أمام انتصار التوحيد] .

[ومنطق التفكير الدينى ـ منذ أربعة عشر قرناً يوجه عام ـ بل وخارج المجامع الأكاديمية فى العصر الحاضر ـ كان ولا يزال يجعل من مثل هذا الذى حدث يوم ميلاد النبي محمد ﷺ دليلاً على صدق الرسول فى دعواه ، فالتأثر الوجدانى والقلبى، لا يخضع للمنطق الرياضى أو الارتباط العلمى بين السبب والنتيجة ، فهناك التفاؤل ، والتشاؤم ، والأمل . وغير ذلك من الأمور . لها تأثيرها الكبير فى الأفراد والمجتعات . وهى أحوال إن رددتها إلى منطق العلوم الحديثة لا تعد شيئاً مذكوراً.] .

[ومن ثم فإن بحيرة ساوه حين غاضت ـ ان لم يكن لغيضها أثر يوم المولد ، فقد كان له أثر بعد الرسالة حين دعى الفرس للإسلام ، فقد ارتبط الحدث الخارق بمولده ﷺ .]

[حقاً إنه أمر لا يرتبط مع مبادىء الرسالة الإسلامية وعقيدتها برباط ، ولكنه أمسى ـ وراء ذلك ـ ذا تأثير كبير فى نفوس الفرس عند دعوتهم إلى الإسلام ، وتوقيت الزلزال أو الثورة البركانية فى جوف الأرض بحيث تزلزل إيوان كسرى فيسقط مع ضخامة بنائه كما سقط غيره ، وبحيث تهبط الأرض بكسر يبتلع مياة بحيرة ساوه

---

(١) وقد بلغ محيط هذه البحيرة ست Parasanges (حوالى ٥٢٥٠ متراً للوحدة) وكانت تجوبها السفن الكبيرة. ولقد جفت تماماً وشيدت في مكانها مدينة سميت « ساويا » وترجع هذه الحادثه لأسباب طبيعية وإن توافقها مع ميلاد محمد ليس له أية دلالة..

وترتفع القشرة الأرضية حتى تبنى فوقها مدينة .. هذا التوقيت سيره الله رب الطبيعة ورب الناس . ومرسل الرسول محمدﷺ فى نسق يخدم الرسالة التى بعث بها الرسول ويسير الأحداث الكونية والبشرية والإجتماعية فى خدمة المشيئة الإلهية السامية .]

[وهو بهذا الوضع ظاهرة لفضل الله علينا وعلى الناس يدركها ذو الحس الدينى المرهف والإيمان الحى ، ومن ثم فإنهم يذكرونها على أنها من آلاء الله ، وليست من عمل الرسول، وهى حقائق تاريخية يفسرها المستشرقون والملاحدة الماديون بأنها مجرد ظاهرة طبيعية ويقفون عند ظاهرة الطبيعة ، أما المؤمنون بالله فيمرقون من خلال المادة إلى ما وراءها .. ليدركوا جلال الله الذى خلق المادة وسير الأحداث وصنع الطبيعة ، وسخرها فى الاتجاه الذى يخدم الإنسان والتعاليم السامية الإلهية التى نسميها أحياناً « المبادىء والفضائل الإنسانية »]

[وفاة عبد الله]

ومهما يكن من أمر هذه العجائب ، فإن « محمدا » قد أصابه الضر منذ مولده ، إذ تيتم قبل أن يبلغ الشهرين من عمره بموت أبيه عبد الله ، الذى اشتهر بجماله وفضائله أكثر من الاشتهار بالثروه ، كما تمتع بحب أبيه عبد المطلب وثقته .

أرسله أبوه ذات يوم ليشترى [من الشام] المؤن التى تنقص بلادهم الجرداء (١) وعندما مر يثرب (٢) فاجأه الموت وهو فى ريعان شبابه . ودفن فى دار « الحارث » (٣) خال عبد

---

(١) لما كانت مكة وضواحيها ليست سوى صخور قاحلة ، ورمال ملتهبة ، فإن سكانها كانوا يضطرون الى الذهاب بعيداً لشراء مؤونتهم ، ـ ومنذ اليوم الذى اشتهرت به بفضل «محمد » ، بعد أن جعلها حرم دينه ـ فإن مصر وسوريا واليمن تمدها بكل ما يلزمها لرفاهيه الحياة . [وقول « سفارى » (جعلها حرم دينه) ، لاشعارنا أنه صانع الدين ، منكراً أن الله هو الذى جعلها حرماً آمناً]

(٢) ولما كانت يثرب ملجأ محمد ، فقد سميت « مدينه النبى » أو المدينه فحسب ، وتبلغ مساحتها نصف مساحة مكة ولكن أرضها أكثر خصوبة .

(٣) [فى الطبقات ١/٦١ ، ٦٢ أن عبد الله دفن فى دار النابغة ، وهو رجل من أخوال بنى عدى بن النجار ولعل اسمه الحارث . والراجح أن النبى كان لا يزال جنيناً . وقيل كان سنه ٧ أشهر ، وقيل ٢٨ شهراً .]

المطلب ، ولم يخلف لابنه الذى كان لا يزال فى المهد سوى خمسة جمال ، وأمَةً حبشية تدعى « بركه» . وقامت آمنة - فى بداية الأمر بإرضاع وحيدها ، ثم عهدت به إلى «ثويبه» جارية عمه « أبى لهب » (١) .

[إرضاع محمد]

ولما كان جو مكة غير صحى للأطفال ، فقد كانت العادة أن يسلم الأطفال إلى نساء يصطحبنهم إلى البادية ، وذات يوم حضر كثير من المراضع مكة وسرعان ما عدن محملات بالأولاد والخير الوفير، إلا أن « محمداً » اليتيم بقى وحده لأن مظهر أمه المتواضع كان يدعو إلى إهمال شأنه ،ولكن « حليمة » التى لم تجد طفلاً تأخذه لترضعه ، جاءت وطلبت « محمداً » ، وحملته معها إلى صحراء « بنى سعد » حيث عاش معها ومنحته حبها وعطفها (٢) .

وبعد بضعة شهور اضطرتها مصالحها إلى الذهاب إلى مكة فاصطحبت معها ، «محمداً » ولما رأته أمه « آمنة » سرت به ورغبت فى احتجازه ، إلا أن حليمة تغلبت عليها بإصرارها ، وعادت به إلى بنى سعد .

[والكاتب فيما ذكره : عن العودة إلى مكة من حيث السبب ومنه الحضانة ، يخالف أبا الفداء فيما قرره اذ قال « ثم قدمت به حليمة إلى مكة » . وهكذا قال صاحب الطبقات ، قال :إنها قدمت بعد انتهاء الرضاعة ومدتها سنتان ، ثم رجعت به لتحتضنه، فمكث عندها سنتان أخريان فعادت به إلى مكة بسبب حادث شق الصدر فطمأنتها«آمنة» على أنه لن يمسه شيطان ، فرجعت به إلى البادية للمرة الثالثة فكان عندها سنة أو نحوها لا تدعه يذهب مكاناً بعيداً ... ثم قدمت به إلى أمه لترده وهو أبن خمس سنين (٣) »] .

[وروى ابن هشام عن حليمة « فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى

---

(١) أبو الفداء ص ٨ [ص ١١٨ دار الطباعه العامرة ، والطبقات جـ ١ ص ٦٧ : ٧٣ وحياه محمد لهيكل ص ١٠٦ طـ ٢] .

(٢) أبو الفداء ص ٨ [ص ١١٨ دار الطباعه العامرة] وحياه محمد لهيكل ص ١١٧ والطبقات جـ١ ص ٦٧ : ٧٣] جناب أحمد بن يوسف [وتهذيب سيرة بن هشام ص ٣٦ : ٣٨] .

(٣) [الطبقات جـ ١ ص ٧٠]

مضت سنتان وفصلته - أى فطمته - فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شىء على مكثه فينا ... فلم نزل بها حتى ردته معنا فرجعنا به ، فو الله إنه - بعد مقدمنا بأشهر مع أخيه - لفى بهم - أى غنم صغار - لنا خلف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتد ...» وحكى قصه شق الصدر[1] .] .

[فعودة حليمة به إلى مكة بعد أشهر لم تكن كما قال «سفارى» بعد أن أخذته حليمة للرضاع فى المرة الأولى ، ولا كانت العوده بسبب مصالحها ، وإنما كان هذا بعد أربع سنوات هى مدتا الرضاعة والحضانة . وكان بسبب خوفها على النبي بسبب حادث شق الصدر ، وإنما اختلط الأمر على المستشرق .]

[وهذه صورة للقارىء عن مدى عجز المستشرقين فى الاستيعاب والتحقيق للمسائل ، برغم توافر الإمكانيات اللازمة للباحث عندهم .] .

[شق الصدر]

عام ٦١٦٦ من مهبوط آدم . حسب تقدير أبي الفداء = عام ٥٨١ = عام ٥٠ ق هـ = عام ٣ من ميلاد محمد - جناب أحمد بن يوسف .

ومن بين المعجزات المتعددة التى يخلطها المؤرخون بحياة محمد أنهم يذكرون بثقة الحادثة التالية : ذات يوم خرج محمد و« مسروح » أخوه فى الرضاعه [؟] إلى البادية يلعبان ويلهوان، فقدم عليهما رجلان بملابس بيضاء ، وأمسكا بمحمد ، وطرحاه أرضاً ، وشقا صدره ..

عندئذ أسرع « مسروح» إلي أمه ، وقص عليها ما حدث ، فأنتابها الخوف ، لأنها لم تكن تعلم ما تدبره السماء ، وعادت به إلي آمنة ، وسلمتها وديعتها .

[١ - (المعجزة فى اصطلاح المحققين من علماء المسلمين تطلق على الأمر الخارق للعادة يقع من نبى دعا إلى دين الله فى مقام التحدى لمن ينكرون نبوته : تصديقاً من الله لنبيه ، فهى بمثابة قول الله للناس صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى] .

[وبهذا فإن شق الصدر - وهولم يصاحبه « التحدى » ولا « دعوة النبوة » أمر لا يعد - اصطلاحاً معجزة ، ولكنه يسمى « ارهاص » وهذا أول مظهر لجهل المستشرقين

---

(١) [تهذيب سيره ابن هشام ص ٣٨ .]

بمصطلحات الفكر الإسلامى .]

٢ - تسمية المستشرق أخاً « محمد » فى الرضاعة « مسروحاً » وتقريره أنه الذى كان يرعى مع النبى الغنم يخالف ما جاء فى الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ١ ص ٦٨، ٦٩ . اذ روى ابن سعد أن « مسروحاً » هو ابن ثويبة أول مرضعة للنبى بعد أمه وقبل حليمة السعدية . أما ابن حليمة فاسمه « عبد الله بن أبى ذوءيب الحارث بن عبد العزى » . وهذه صورة أخرى لاختلاط عقليات المستشرقين . وعدم القدرة التامة أو الاهتمام الكامل بتحرير المسائل ، ولم يذكر - هنا - مرجعه الذى استند إليه .] .

[و «سفارى» كغيره من المستشرقين أمثال سير « وليم موير » ودرمنجم » ينكرون هذه القصة وجرى مجراهم بعض كتاب المسلمين مثل د . محمد حسين هيكل (١) ومحمد الغزالى السقا ، وذكر هيكل أن أسانيد الرواية ضعيفة . فموير يقول : لعل الذى حدث نوبة عصبية أصابته ، ولم يكن لها أن تؤذى صحته لحسن تكوينه ، و«درمنجم» يرى أن هذه القصة لا تستند إلى شىء غير ما يفهم من ظاهرقوله تعالى: ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ وقد نقل «درمنجم» روايته عن الخازن فى تفسير الآية وقال هو والغزالى السقا المراد بهذا تطهيرالقلب وتنظيفه . فإذا كانت للشر موجات تملأ الآفاق ، وكانت هناك قلوب تسرع إلى التقاطها والتأثربها ، فقلوب النبيين بتولى الله لها - لا تستقبل هذه التيارات الخبيثة ولا تهتزلها - وبذلك يكون جهد المرسلين فى متابعة الترقى ، لا فى مقاومة التدلى ، وفى تطهير العامة من المنكر ، لا فى التطهر منه ، فقد عافاهم الله من لوثاته ، « عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ .« ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن ، وقرينه من الملائكة» . قالوا وإياك يا رسول الله ؟ قال: « وإياى . إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم ، لا يأمرنى إلا بخير .»(رواه مسلم ١٣٩/٨) . ولعل أحاديث شق الصدر تشير إلى هذه الحصانات التى أضفاها الله على محمد ﷺ فجعلته من طفولته بنجوة قصية عن مزالق الطمع الإنسانى ومفاتن الحياة الأرضية(٢) .]

[والحق أن أسانيد الرواية ليست ضعيفة . فقد رواه أبونعيم فى الدلائل وأخرجة

[(١) حياة محمد ١٠٩ ، ١١٠ ط ثانية.]

[(٢) محمد الغزالى ص ٦٤ : ٦٥ من فقه السيرة ط ٤]

مسلم فى صحيحه (١/١٠١-١٠٢) وأحمد (١٢١/٣، ١٤٩، ٢٨٨) وابن سعد فى الطبقات (٩٧/١) عن أنس « أن رسول الله ﷺ « أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان،فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرجه ، فاستخرج منه علقة . فقال هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده إلى مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعنى مرضعته - أن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون» ، وقد زاد أحمد فى آخر الحديث :« قال أنس : وكنت أرى أثر ذلك الخيط فى صدره » وللحديث شواهد كثيرة - يعنى أحاديث بنفس المعنى - منهاما يروى عن عتبة بن عبد السلمى . وقد أخرجه الدارمى (٨/١) والحاكم (٦١٦/٢) وصححه ، ووافقه الذهبى ومنها ما رواه عن أبى بن كعب عن عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند (١٣٩/٥) ومنها ما رواه عن أبى ذر، ابن جرير الطبرى فى تاريخه (٥١/٢- ٥٢) وما ادعاه هيكل على الطبرى من أنه أحاط الخبر بالريبة اذ يذكرها فى حوادث سنة ٣ من ميلاد محمد ﷺ ثم يذكرهاوالنبى فى سن الأربعين قبيل البعثة . مردود على هيكل، لأن شق الصدر صحته روايته ، وأنه حدث أكثر من مرة : مرة فى الطفولة التى نحن بصددها ، ثم مرة أخرى عند البعثة ، ثم مرة أخرى والنبى فى الخمسين من عمره ليلة المعراج . فقد روى البخارى فى صحيحه (٦/ ٢٣٢) ومسلم فى صحيحه (١٠٣/١-١٠٤) والنسائى فى سننه (٧٦/١) عن مالك بن صعصعة أن رسول الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به « قال : بينما أنا فى الحطيم - وربما قال فى الحجر - مضطجع بين النائم واليقظان أتانى آت : فشق ما بين هذه إلى هذه .- يعنى ثغرة نحره إلى شعرته : قال : فاستخرج قلبى . ثم أتى بطست من ذهب مملوء إيمانا ، فغسل قلبى ، ثم حشى ثم أعيد » ودعوى موير أن الذى حدث هو نوبة عصبية . مرفوضة علمياً ، (أ) لأن النوبة العصبية عندما تحدث لا يكون معها إدراك .. وقد أدرك النبى ما حدث له ورواه بنفس الصورة التى ذكرها أخوه فى الرضاعة . وهذا التوافق مما لم تجر العادة على حدوثه من أطفال دون أن يكون له حقيقة اشتركوا فى مشاهدتها . (ب) ولأنه لم يكن لحليمة وابنها غرض أو منفعة فى نسج قصة كهذه لرضيعها ، وقد كان لها ولغيرها من المرضعات أطفال أرضعنهم .. مضى بهم التاريخ دون أن يروين شيئاً مثل ذلك عمن أرضعنهم . (جـ) أن الدعوى لا تقبل بدون

برهان. ودعوى موير ليس عليها برهان، وانها مجرد توهم . وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً] .

[أما قول درمنجم : إن القصة لا تستند إلى شيء غير الآية ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ فباطل ، وقد ذكرنا الأحاديث الصحيحة التى وردت بشأنها . والآية ليست فى الموضوع كما قال . فثم فرق بين انشراح الصدر وانشقاقه .]

[والشيخ محمد الغزالى السقا يتأثر فى هذه القضية بمنطق المستشرقين فى تفسير الدين والسيرة بالمنطق المادى ، فيقول : « لو كان الشر إفراز غدة فى الجسم ينحسم بانحسامها ، أو لو كان الخير مادة يزود بها القلب ، كما تزود الطائرة بالوقود، فتستطيع السمو والتحليق لقلنا : أن ظواهر هذه الآثار مقصودة ، ولكن أمر الخير والشر أبعد من ذلك)[1]]

[ومقالة الشيخ هذه تدل على أنه لا يعلم ما وصل إليه العلم من العلاقة بين السلوك والأحوال النفسية وبين الأعضاء . فالأمراض العقلية تعالج بالصدمة الكهربية، والمخ يعالج أحيانا بالجراحة ، والشهوة الجنسية تعالج بالعقاقير أو بالجراحة كيما يمسى الرجل حصوراً أو شبقا .]

[ونحن فى هذا المقام نعنى تقريب المسألة . أما أدراك حقيقة الحكمة على وجه اليقين فلا نزعمه ، وليس جهلنا بالشيء أو بالحكمة فيه مسوغاً لإنكار وجودهما . فكثير من المكتشفات العلمية الآن كان فى طى الجهالة ، بل وبعيداً عن التصور ، وقد أصبح مما يستفاد به فى حياتنا العملية كالمجهر والطائرة والمذياع ... وما إلى ذلك «وغداً يعرف الحقيقة قومى »]

[وقد اعترض البعض على الحادث بأنه من غرائب الطبيعة . فهو غير ممكن عادة . ونحن نسلم بأنه من الخوارق . ولكن خرق العوائد موجود فى الطبيعة والاجتماع لحكمة يعلمها الله ، وبخاصة فيمن يصطنعهم ، أو يخلقهم غير عاديين لأمور يجريها على أيديهم ، ولقد كانت طفولة وولادة عيسى عليه السلام مناط أمور

---

(١) [فقه السيرة ـ ص ٦٤ ط ٤ دار المكتبة الحديثة بالقاهرة]

غريبة كذلك، فهو بلا أب ، وقد تكلم فى المهد صبياً ، والمستشرقون لا ينكرون هذه الغرائب فى شأنه ، فلماذا ينكرونها بشأن غيره ؟ . والعجيب أن يقاس الملك على الحداد ويقال: هذا شيء لا يفعله أمثاله . وفى القرآن قالت الملائكة لأمرأة إبراهيم ﴿أتعجبين من أمر الله ﴾ حين تعجبت من أن يكون لها ولد بعد بلوغها سن اليأس]

[وقد يعترض على القصة بأن « ابن اسحاق ذكر أسباباً أخرى للرجوع بمحمد إلى مكة ، فهناك عراف تفرس فى « محمد » فصاح : يا معشر هذيل . يا معشر العرب . أقتلوا هذا الصبى ... إلخ ..وهناك نفر من نصارى الحبشة رأوه بعد فطامه بأشهر .. وتحدثوا بعد تحديق فيه - عن شأن عظيم له . وأنهم يريدون أخذه إلى ملكهم .. فخشيت عليه وردته إلى أمه آمنة .]

[ونحن لا ننكر هذه الأسباب لاحتمال تنوع السبب فقد يكون شق الصدر وغيره من الأسباب . وقد يكون كل سبب كان سببا فى الذهاب إلى مكة بمحمد يوماً . فقد روى أن آمنة حين عرفت سبب إعادة حليمة لمحمد وأنه شق الصدر، طمأنت حليمة وأعادته معها ، وهكذا قيل إن آمنة حين ذكرت حليمة لها قصة العراف طمأنتها عليه وأعادته معها . قائلة :« أتخوفت عليه الشيطان ؟ والله ما للشيطان عليه من سبيل »]

[رأى كزيميرسكى : قال :« فى القرآن ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ وهو مجاز حملته السنة على الحقيقة فجعلت النص فى شق صدر النبى[1] »وقد أخطأ المستشرق فى تفسيره « شرح الصدر» فهو بمعنى الارتياح النفسى ، وشرح الصدر غير شقه . والسنة لا تخالف القرآن إن كانت وحياً . وما كان من اجتهاد النبى قبل نزول الوحى ببيان الحكم ثم نزل القرآن بما يخالف الاجتهاد، فلا اعتبار له ،وليس هو السنة التى أمرنا باتباعها . وقد ذكرنا أن دليل شق صدر النبى هو السنة وليس القرآن]

---

(١) [خاتم النبيين فى نظر المستشرقين ص ٢٣]

[وفاة آمنة]

تكفلت آمنة بتربيـة ابنها [بعد ما سلمته لها حليمة] . وعند ما بلغ السادسة من عـمره اصطحبته الي المدينة حيث ذهبت لزيـارة بنى عدىّ . وهم أخوالها من بنى النجار(١) وبعد أن أمضت مـعهـم بعض الوقت عـادت إلى مكة ، فـفاجـأها الموت وهى فـى الطريق ، ودفنت فى «الأبواء » وهى قرية صغيرة بالقرب من المدينة .

[كفالة جد محمد ثم عمه له]

ولما علم عـبد المطلب بهـذا الخبـر الأليم ضم إليـه حفـيده (٢) . وتولى تربيته وسط اسـرته الكبيـرة ، ومنحه من حبه وعطفـه ما كان يمنحه لأولاده ، ولكن مـحمداً لم يتمـتع طويلا بهذه الرعاية ، لأن جده عبد المطلب كان قد بلغ منتـهى الشيخوخة وتوفى عن عشر سنوات ومائة . فضم أبو طالب ـ شـقيق عبـد الله ـ ابن أخيه إلـى كنفه ، وجعله تحت وصـايته ، وكان يشتغل بالتجـارة مثل القرشيين ، فـقد كانت التـجارة هى مورد الرزق الوحيـد لأهالى هذه القرية ذات الأرض الجرداء التى لم تكن تصلح لأى نوع من أنواع الزراعة ، ولقـد علم أبو طالب تلميذه فن تحقـيق الرخاء فى البلد القـحط ، عن طريق المبادلات التـجارية المربحة ، وعندمـا اعتـقد أنه نال نصيبـاً كافـياً من العلم أخذه مـعه فى رحلة إلى سوريـا حيث كانت تدعـوه تجارته . ولم يكن محمد قد جاوز الثالثة عشرة ، ولكن ذكائه ورجاحة عقله جاوزا هذه السن .

---

(١) أبو الفدا [١١٩/١] حياة محمد ص ١٩

(٢) أبو الفدا [١١٩/١] .

[أول رحلة تجارية لمحمد]

عام ٦١٧٦ من هبوط آدم طبقاً لتقدير أبى الفدا - عام ٥٩١ م - ٤٠ ق هـ - عام ١٣ من ميلاد محمد .

كانت القافلة تتقدم حتى وصلت إلى بصرى (١) ، وهى مدينة قديمة بسوريا الدمشقية ، حيث كان يوجد بالقرب منها دير (٢) كان يرأسه « بحيرا » الذي قدم إلى الغرباء واجبات الضيافة وعاملهم بكل كرم . وعندما راقب الراهب الشاب القرشى بثاقب نظره قال لأبى طالب . « ارجع بابن أخيك إلى مكة ، واحذر عليه مكر اليهود(٣) . واسهر علي راحته ، فإن طالع المستقبل يتنبأ لابن أخيك هذا بأخبار عظيمة.. » .

وعاد أبو طالب بابن أخيه إلى مكة ، وقد كان يتمتع بمكانة مرموقة بين العرب لوراثته سدانة الكعبة . و كان منزله مفتوحاً لجميع زعماء العرب . فكان يستقبل فيه أعظم القوم (٤) . كان محمد يتحبب إلى الجميع بفضائله وخلقه ، ولما بلغ أشده أحب الناس فيه جماله ورجاحة عقله ، ولقب بالأمين بين مواطنيه ،وحظى بالتقدير لفطنته فى الإجابة ، وصدقه فى الحديث ، وإخلاصه فى شئون الحياة ، وحسن طويته ، وشدة خوفه من الرذائل . لقد كانت هذه هى سمعته التى سمعها ونقلها إلينا جميع المؤرخين، والتى حققها محمد فى مكة ، واحتفظ بها إلى الوقت الذي ثار فيه قومه عليه عندما سمعوا أنه يحارب الوثنية ، وعندما خشى عظماؤهم من طموحه المتخفى تحت ستار الدين [؟!] .

[أحقاً كان للنبى مطامع ؟]

[هكذا قال سفارى وأمثاله من المستشرقين . ولست أدرى ، وليت الكاتب - لو راجع نفسه - يدرى .. لماذا يتهم محمدا بأنه يتخفى تحت ستار الدين ليحقق طموحه ؟ والكاتب نفسه قرر قبل سطور أنه (صلى الله عليه وسلم) ملك على الناس قلوبهم

(١) هذه المدينة التى يطلق عليها الروم «بصرى» ويسميها اليهود « بيسترا» Beestra أو استاروت « Astarot » (أى دار إستر» Ester) تقع على مسيرة أربعة أيام جنوب دمشق ، ويعتبرها أبو الفدا فى جغرافيته عاصمة « حران » .

(٢) تعتبر الأديرة فى الشرق دياراً للضيافة . ففى جزيرة كندى candie حيث ترك الأتراك أملاكاً واسعة يجد فيها المسافرون المأوى والمأكل مجاناً [يعنى بالأتراك المسلمين]

(٣) أبو الفداء . حياة محمد ص ١١ [١/ ١٢٠ط العامرة] .

(٤) نفس المرجع ص ١١ [١/ ١٢٠ ط العامرة] .

فآمنوا بعقله ، وبأمانته ، وبخلقه ، وعرفوا فيه جمال الخلق والخلق معاً ، ولقبوه - دون جميع معاصريه « بالأمين » ؟ وكيف يتهم ؟ وهو رجل ترشحه فضائله وأعماله بين أمته إلى درجة « الأمين الأول » و « الأمين العام » الذى إذا أطلق لفظ «الآمين» لم ينصرف إلا إليه ، وكأنه المعلم الدال على اللفظ ، والبيان الواضح المجسم للكلمة .. إن من له هذه الشعبية يكون - بلا ريب - فى مقام الزعامة والسيادة ، وفى غنى عن المكر واللؤم والتخفى وراء أى ستار .]

[وقد ذكر الكاتب نفسه أن « محمداً » عليه السلام سليل المجد . ففى بيته سيادة العرب منذ أمد بعيد ، وجده الرابع هو« قصى» منشىء ما كان يمكن أن يسمى بلغة عصرنا الحديث « مكة الحديثة » . والبيوت التى ترأس الأمم لا تنخلع منها الرياسة ، ولم يكن ينازعها فيها أحد .. وقد كان محمد .. بين أسرته - هو الوارث الطبيعى لهذه الرئاسة ، فقد كان (صلوات الله وسلامه عليه) أحب بنى عبد المطلب إلى عبد المطلب وإلى خليفته من بعده أبى طالب] .

[هذا هو الحق االواضح ، وهو لا يمكن أن يحتجب عن مفكر لولا التعصب الاعمى والغرض الخبيث ..]

[وقد كان فيما عرض على النبى أن تعقد له الرئاسة أو يجمع له المال . إن كان يريد بدعوته مالا أوجاهاً فى الناس . فأبى المال والجاه والرياسة مصرّاً على أن يعيش لدعوته باذلا ماله ودمه . وقد طال جهاده وجلاده حتى أدركته الشيخوخة ولم يتراجع قيد أنملة فى طريق الدعوة التى اختطها الله له . ولو كان يبغى بدعوته غيرها لدفعته الشيخوخة ، وحذر ضياع الفرصة إلى مهادنة خصومه ، وإلى الرضا بأى مغنم تصل إليه يده . ولكنه - كان رائد أصحابه الذين نزل فيهم ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾ (الأحزاب ٢٣)]

[وقد قال كارليل الإنجليزى : « إنه لا يمكن أن يكون محمد كذوباً ، فإنه إن كان كذلك فلا يستطيع أن يأتى بمثل هذا الدين العجيب ، والله إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبنى بيتاً من اللبن ، إذا لم يكن عليما بمواد البناء على اختلاف أنواعها . فما بالك بمواد بناء صرح شامخ البنيان ، مدعم الأركان ، مثل دين الإسلام الذى ظل على قوته

وعظمته قروناً طوالاً ؟،]

[وقال الكاتب الانجليزى المشهور :(هـ . ج . ويلزان) : من ،أقوى الأدلة على صدق ، محمد ، كون أهله وأقرب الناس إليه يؤمنون به . فقد كانوا مطلعين على أسراره ، ولو شكوا فى صدقه لما آمنوا به ، .]

[وقال (كارليل) أيضاً . ، أتريد دليلاً ممن يدعى لك أنه بنّاء أقوى من أن يبنى لك دارا تسع الملايين الكثيرة من الناس وتدوم قروناً طويلة لا يعتريها تصدع ، ولا يعتورها أقل خلل .؟ كذلك هل يطلب طالب من مدع للنبوة دليلاً أقوى من أن ينشر دينا بين ملايين من البشر يستمرون عليه قروناً طويلة ويتحمسون له تحمساً كبيراً ؟،]

[، فمحمد قال بأنه رسول من عند الله ، وبرهن على صدق قوله بدين نشره فى الناس أخذ به مئات من الملايين ، ومضى عليهم فى ذلك قرون طويلة ،وهم يحبون دينهم هذا، ويتحمسون له أكبر تحمس . فماذا يراد من الأدلة على نبوته بعد ذلك؟،]

[، ألا فليعلم الناس أن التعاليم كأوراق ، البنكنوت ، فالصادقة منها تتداول بين الناس ولا تثير أقل شبهة ، والزائفة منها تخدع بعض الناس مرة أو مرتين، ثم يفتضح أمرها، ويعرف أنها زائفة فتمزق كل ممزق .. (١) ،].

[وقد جاء فى تاريخ الأديان للكاتبة الإنجليزية (آنى بيزانت Annie Besant)فى الجزء الخاص بالإسلام عن تاريخ محمد ما نصه .:ـ

[،نعم : فإنه يجب عليكم جميعاً معشر الذين لا تتبعون ديانة هذا النبى العربى أن تتحققوا بأنه لا يوجد فى جميع الديانات البشرية ديانة توحى الى الأخذ بها عقيدة أبين صحة ، وأعلق بنفس صاحبها من الديانة التى خرجت من فم النبى العربى.]

[وإذا كان الأمر كما يقول الفيلسوف ، Bain ، ،إن العقيدة تثبت صحتها بسيرة أهلها، فتأمل فى أتباع محمد ، وانظر كيف تتحكم أقواله الى اليوم ـ فى أعمال الناس. لايوجد مسلم فى الأرض يخجل من السجود فى الصلاة ، وإن كان حوله جمهور من

---

(١) [المستشرقون والإسلام لزكريا هاشم زكريا ص ٧١ ، ٢٠ . ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . لجنة التعريف بالاسلام .] .

المستهزئين الذين يكرهون النبى الذى ينتمى إليه ، فانظر الى أى مدى قهرت العقيدة عند أتباعه كل خوف من الموت . فأين تصادف بطولة مثل بطولة هؤلاء الدراويش الأفريقيين الذين اقتحموا مجالاً سلطت عليه بنادق « كاتلنج» ووقعوا صفاً بعد صف قبل أن يصلوا الى أعدائهم سائرين الى الموت كما يسير غيرهم إلى خطيباتهم ، كل ذلك محبة فى نبيهم وفى عقائد الاسلام »] .

[ثم قالت فى التعقيب على إسلام خديجة وأقاربه الأدنين « وهذه حادثة ذات مغزى كبير - بالنسبة لمؤسس دين ، فإنه من السهل أن تحصل اتباعاً من جمهور لا يعرفونك ولم يروك إلا على منبر الخطابة ،ولم يسمعوك إلا فى محاضرة متقنة ، أو فى أجوبة على مسائل موضوعة ، ولكن أن يصير الإنسان نبياً فى نظر امرأته وبنته وصهره وأقاربه الأدنين . فهذه هى النبوة حقاً ، وهو انتصار لمحمد لم يحصل على مثله عيسى نفسه »] .

[ثم قالت : «إن شهادة التلميذ هى أصدق شهادة فى معلمه . وكلمة «خبيب» حين أرادت قريش صلبه وكلمة زعيم المهاجرين المسلمين فى الحبشة أمام ملك النصارى .. « أيها الملك لقد كنا قبل محمد غرقى فى الضلالة ..» إلى آخر ما قال، مظهر دال على صدقه فى دعوى النبوة .»](١)

[وقال شاعر فرنسا الأشهر الفونس لامارتين - وهو خبير فى الدراسات الشرقية الإسلامية .اترون محمداً كان أخا خداع وتدليس وباطل ؟ كلا - بعد ما وعينا تاريخه ودرسنا حياته ، فإن الخداع والتدليس من نفاق العقيدة ، وليس للنفاق قوة العقيدة ، وليس للكذب قوة الصدق . وإذا كانت قوة الصعود والرمى فى علم الطبيعة هى المقياس الصحيح لقوة المصدر الذى تصدر عنه الرمية والقذيفة ، فإن العمل الذى يحدثه المحدث فى علم التاريخ وسجل الخلود وكتاب الإنسانية هو المقياس الصحيح لمقدار الوحى وقوة القلب والوجدان والفكرة السامية التى تنفذ إلى مكان بعيد وتبقى زمنا طويلاً ، وتمشى فى الحياة أبداً رخية . وهى لا ريب فكرة قوية صدرت من

[(١) الكاتبة توفيت عام ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٤ م وهي زعيمة جماعات « التيوصوفية» ولها خمس وعشرون كتابا ترجمت لمعظم اللغات الحية . وما ننقله عن المرحوم محمد فريد وجدى فى مجلة الازهر المجلد السابع ص ٥٤٧، ٦٤٤ - ٦٤٥.]

وجـــدان قــوى ، ولكى تكون تلك الفكرة قــوية ينبــغى أن يكون ظاهرها وباطنهـــا الإخلاص ، وعلمها الأكبر الحق والصدق ، ولابد أن تكون معقولة يقبلها اللب ويعتمدها الذهن .. ولا ريب أن ذلك ينطبق على محمـد ورسالته والوحى الذى تنزل عليه . إن حياته وقوة تأمله وتفكيره وجهاده ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه ، وبأسه فـى لقـاء مالقيـه مـن عبدة الأوثـان ، وإيمانـه بالظفـر وإعـلاء كلمتـه ، ورباطة جأشه لتثبيت أركان العقيدة الإسلاميـة .. إن كل ذلك أدلة على أنه لم يكن يضمر خداعاً ، أو يعيش على باطل ، فهو فيلسوف وخطيب ورسول ومشرع . وهادى الإنسان إلى العقل، وناشـر العـقائد المعقولة الموافـقـة للذهن واللب .. ومنشىء عـشرين دولة فى الأرض وفـاتح دولة فى السمـاء من ناحـيـة الروح والفـؤاد.[1] . وقـال ان مـحـمـداً أقل مـن إله وأعظم من إنسان عادى أى أنه نبى .]

[وقال الفيلسوف الروسى « تولوستوى » :« ومما لا ريب فيه أن النبى محمداً من أعظم الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمات جليلة ، ويكفيه فخراً أنه هدى مئات الملايين إلى نور الحق ، والى السكينة والسلام ، وفتح للإنسانية طريقاً للحياة الروحية العالية ، وهو عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتى قوة والهاماً وعوناً من السماء .»]

[وقال(توماس كارليل) أيضاً فى كتابه « الأبطال» :«لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى تلك الإتهامات التى وجهت الى الإسلام والى نبيه ، وواجبنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التى أداها ذلك الرسول الكريم مازالت السراج المنير لنحو أربعمائة مليون من الناس ، والرجل العظيم ـ فى نظرى ـ مخلوق من فؤاد الدنيا وأحشاء الكون ، فهو جزء من الحقائق الجوهرية للأشياء ، ومحمد ـ ﷺ ـ كان كذلك وكان فوق ذلك: الرجل العظيم الذى علمه الله العلم والحكمة ، وما كلمته الا صوت صادق صادر من السموات العلا [2] »].

[(١) المستشرقون والإسلام ص ٢٧٢ ونور الإسلام ص ١٣ العدد الممتاز سنة ١٣٥٤ هـ ـ ١٩٣٥.]

[(٢) المستشرقون والإسلام ص ٢٨٠ ، ٢٨١.]

[وقال العالم الهندى « ت . ل . فسوانى »: « تأملت أمر محمد ﷺ ، فتعجبت من هذا الرجل العظيم الذى نشأ بين هؤلاء القوم المختلى النظام ، الفاسدى الأخلاق ، العابدى الأحجار . هذا الرجل العظيم « محمد » وقف - تقريباً - وحده شجاعاً متحدياً - غير هياب ولا وجل - فى وجه التوعد بالقتل . فمن أعطاه القوة التى قام بها؟ . كان بطلاً من أبطال الأساطير . ثم استمعوا لكلامه . فمن أين جاء سحر بيانه؟ ثم أنظروا إلى أعماله . كيف ألف بين النبلاء الأشراف والصعاليك المنبوذين حتى صاروا إخوانا وخلانا؟ .. ونحن هنا فى الهند إلى الآن - لا نزال نقتتل من أجل جواز لمس البعض البعض الآخر . وعدم جواز ذلك . ولا نزال عاجزين عن إباحة الدخول إلى بيوت الآلهة للمنبوذين من أبناء جلدتنا .. من أين استمد محمد ﷺ قوة حياته الغالبة ؟ »]

[« الهند - الآن - مصابة بشرب الخمر ، والرجل محمد ﷺ - كما تقول الكتب المقدسة - اقترح مقاطعة الخمر وكل شراب مسكر [بل أخبران الله أمر بذلك] ، فقام أصحابه وألقوا دنان الخمر فى أزقة المدينة ، وحطموها تحطيماً . لقد كان تصرف محمد فى قومه كالتنويم المغناطيسى . فمن أين جاءه سر هذه القوة ؟ » .]

[« ألم تر أنهم كانوا أشتاتاً قد عمتهم الفوضى ، فألف بين قلوبهم وجعلهم أمة واحدة ، وكانوا راسبين فى التوجس فرفعهم وأنقذهم ، وجعلهم عظماء أقوياء فى أعين أمم الأرض كلها ، فصارت الأمة العربية صاحبة القيادة العليا فى التمدن ، وصارت اللغة العربية آخذة بيمينها مصباح التهذيب والرقى .. والتهذيب العربى هو الذى أنشأ فى آسيا وأوروبا نشأة جديدة ، وإنسانية جديدة . »]

[« إليك يا محمد - ﷺ - وأنا الخادم الحقير - أقدم إجلالى بخضوع وتكريم (1) . إليك اطأطىء رأسى . إنك لنبى حق من الله ، قوتك العظيمة كانت مستمدة من عالم الغيب الأزلى الأبدى . »]

[هذه تأملات واتجاهات فكرية متنوعة تقيم الأدلة علي صدق محمد في دعواه الرسالة ، وأنه لم يكن ذا أطماع في جاه أو مال . أردت أن أذكرها علي لسان كبار

[(1) المستشرقون والاسلام ص ٢٨١ - ٢٨٢)]

الكتاب العالميين وفيها الكفاية .]

[وأقول : وفضلاً عن ذلك فمن دلائل نبوته أيضاً الاجماع على الحاجة إلى مبادىء الاسلام ، وعلى أنه كان صادقاً فى صغره . فما كان ليدع الكذب صغيراً ويقترفه كبيراً ، ويدع الكذب على الناس ليكذب على الله - ثم ان كمال رسالته وشمولها أعظم من أن يدركها بشمولها عبقرى واحد . ثم إنها تضمنت أخباراً بالغيبيات أكدها الواقع ممالا يعرف إلا من الله .]

[حرب الفجار]

وفى سن الرابعة عشر اشترك محمد فى الحرب لأول مرة (١) ، وذلك مع أقارب ابيه فى حروب الفجار (٢) .وقد ظهر بين المحاربين بشجاعته فى المعارك التى دارت بين قريش وكنانة ، ثم اشترك فى الحرب ضد قبيلة هوازن . ولقد انتصرت قبيلته فى كل هذه الحروب .

[تجديد بناء الكعبة]

استتب السلام بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، ففكرت قريش بعد انتصارها على أعدائها فى تشييد بناء تخليدا لأمجادها ، ولما كانت الكعبة (٣) وهى المعبد المقدس منذ العصور القديمة الذى كانت قريش تتولى الدفاع عنه - لا تتسع مساحتها للعديد من القبائل ، فقد فكرت قريش فى توسيعها(٤) . وهدم المعبد ، وأعيد بناؤه على نفس النمط ، وعندما ارتفع البناء إلى المستوى الذى يتعين فيه وضع الحجر الأسود (٥) ثار الخلاف عليه بين القبائل ، لأن كلا منها

---

(١) أبو الفداء - حياة محمدص ١١ [١/ ١٢٠] [وكذا محمد حسين هيكل ص ١٤ (ط٢)]

(٢) يوجد عند العرب اربعة اشهر حرم هى . المحرم / ورجب / وذو القعدة / وذو الحجة . وتسمى الحروب التى تقع فيها حروب الفجار ، أى الحروب المحرمة [وفى الأصل المترجم (حروب الكفر) وهو خطأ].

(٣) بدأت خدمة الكعبة باسماعيل الذى كان الزعيم الدينى الاول . ثم انتقلت الى ابنه ثابت وخلفه بنوجرهم فى اشرف مهمة فى الجزيرة العربية ، ولكن انتهاكهم حرمة الأماكن المقدسة حرمهم منها . وانتقلت بعد ذلك الى بنى خزاعة . ثم اخذتها قريش واحتفظت بها حتى زمن محمد .

(٤) الجوزى . كتاب العبادات . مناسك الحج . الفصل ٦٨ .

(٥) يقول الكتاب العرب إن الحجر الأسود كان فى مبدأ الأمر من الحجر الصغير الأبيض اللون احضره جبريل إلي إبراهيم وإسماعيل وهما يبنيان الكعبة. وفيما بعد لمسته أمراة غير طاهرة فتحول بياضه إلي سواد .

تريد أن تحظى بشرف وضعه فى مكانه ، وبعد مداولات عديدة اتفقت القبائل علي الاحتكام لأول من يدخل فى رحاب الكعبة ، ولقد ساقت الصدف محمداً ، واختير حكماً فقررأنه يجب وضع الحجر الأسود علي بساط مفروش ، وأن يأتى من كل قبيلة رجل ويمسك بأحد الأطراف ، ويرفعوا البساط معاً . وعندما ارتفع الحجر الأسود بالقدر الكافى رفعه محمد بيده ووضعه فى مكانه ، ثم استكمل البناء وكسى بستائر فاخرة .

[لم يكن هناك بساط وانما فرش النبى رداءه ووضع فيه الحجر الأسود باتفاق المؤرخين]

[الزواج بخديجة]

عاد محمد إلى مشاغله الهادئة مجداً فى كسب رضا عمه أبى طالب ، فقد كان محمد فى ريعان شبابه ، وكان مشهوراً باستقامته وذكائه ، وسمعت خديجة بذلك ، وكانت أرملة غنية ونبيلة ، وكانت مثله من قبيلة قريش الشهيرة ، وكانت لها تجارة واسعة تشعر أنها بحاجة إلى رجل ذكى يتولى ادارتها ، فوقع نظرها على محمد ، وعرضت عليه امتيازات كبيرة إذا ما قبل إدارة أعمالها (١) فوافق بدون عناء ، وسافرإلي سوريا حيث كانت تقتضى هذا مصالح خديجة ، وصاحبه فى رحلته « ميسرة » (٢) خادم هذه السيدة ، فباع البضائع التى عهد بها إليه ، وأجرى مبادلات رابحة ، وعاد إلى خديجة محملاً بالخير الوفير ، وكانت سمعة محمد قد كشفت عنه ، وبدا غيابه طويلاً فى نظر خديجة ، ثم تحقق أملها وازداد فرحها وسرورها بنجاح محمد فى مهمته ، وشعرت بقلبها يميل إليه (إنها عبارة أبى الفدا) .

---

(١) أبو الفداء ص ١٢ ، ١٣ [(جـ ١ ص ١٢٠) وتهذيب سيرة ابن هشام ص ٤٨) د . هيكل - حياة محمد ص ١٢٨)]

(٢) طبقا لرواية ميسرة التى ذكرها جناب الورع المسلم - كانت هذه الرحلة زاخرة بالعجائب ، فطوال الوقت الذى كان المسافر المعصوم من السماء يعبر فيه الصحراء العربية الملتهبة .. كان هنالك ملك ينشر جناحيه ليحميه لفح أشعة الشمس ، وكان يسير تحت هذا الظل الخارق للعادة ، وفى بصرى عند ما جلس تحت شجرة جافة اخضرت الشجرة، واكتست بالأوراق والزهور ، ولقد حدثت هاتان المعجزتان فى حضور الراهبين «نستور» «وبحيرا» اللذين نسج المحدثون عنهما أساطير عديدة ، فأسلما واعترفا بنبوة محمد «جناب» . ولكن هاتين المعجزتين اللتين رواهما خادم لم يكن لهما وزن عند ابى الفدا الذى رفض أن يجعل من حياة محمد أسطورة سخيفة .

[رجعت إلى أبى الفداء فلم أجد لما قاله المستشرق ذكراً ، وإنما قال أبو الفدا :
«ولما قدم رسول الله بمال خديجة ، وحدثها ميسرة بما شاهده من كرامات النبى ﷺ
عرضت خديجة نفسها على النبى ﷺ فتزوجها » (جـ ١ ص ١٢٠ من أبى الفداء) .]
[ثم قال سفاري] ولم تحاول خديجة أن تقاوم شعوراً طبيعياً . بل انساقت بكيانها فى ركاب
هذا الشعور وعرضت يدها على من أنبته فى قلبها ، فقبل محمد هذا التكريم بامتنان ،
واصطحب أبو طالب زعماء قريش [الى بيت خديجة] وأقام حفل الزواج ، والقى خطبة
جديرة بأن تنقل هنا لانها تحيطنا علماً بالتقاليد العربية القديمة :

[الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بلدا حراما ،
وبيتاً مججوجاً ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن محمدا بن عبد الله ابن أخى ، من
لايوازن به فتى من قريش ، الا رجح عليه برا وفضلاً وكرماً وعقلاً ، ومجداً ونبلاً ،
وإن كان فى المال قل ، فإنما المال ظل زائل وعارية مستردة ، وله فى خديجة
بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ... وما أحببتم من الصداق فعلىّ (١) .]

[وروى أنه قال بعد ذلك « وأن الفحل لا يجدع له أنف» ، أى العظيم لا يرد عن
طلبه ، ولكن قد رويت هذه العبارة عن ابى سفيان عندما علم بزواج ابنته بمحمد ﷺ]

بعد أن القى أبو طالب هذا الخطاب جمع بين الزوجين ودفع عشرين بعيراً مهراً لخديجة
تسلمها اهلها ، ثم أعدت الوليمة ، ورغبة فى أن يزداد الحاضرون بهجة أمرت العروس جواريها
أن يرقصن علي إيقاع الدفوف .(٢)

(١) لم يكن العرب يتزوجون المرأة إلا بعد أن يجعلوا لها صداقا تتمتع به فى حال طلاقها [؟]، ولقد ساد هذا
العرف الحكيم الذي شرع في بلاد تتعدد فيه الزوجات ، وأكدته آيات عديدة من القرآن وأصبح هو القانون
السائد بين المسلمين .

[وما قاله الكاتب فى التعليل لمشروعية الصداق من أن علته تأمين المرأة عند الطلاق ، إنما يغمز به
مشروعية الطلاق ، لأن الصداق تأخذه المرأة وتنفقه عادة فى أفراح الزواج ، أوفى تأسيس عش الزوجية ،
ولا يودع مدخرا ليكون تأمينا للزوجة . وهذا يعلمه الكاتب جيداً . ويعرفه كل المخالطين للشرق الإسلامي]

(٢) يحتفل المصريون اليوم بالزواج على نفس الطريقة تقريباً ، ففى اليوم المحدد لإقامة حفل الزواج ، تذهب
صديقات العروس وقريباتها إلى دار اسرتها ليأخذنها ويصحبنها فى موكب الى بيت الزوج ، ويتقدم
الموسيقيون والراقصات الموكب . اما العروس فتسير في خطى هادئة تحت مظلة رائعة ، وقد تحلت بالذهب
والجواهر مع أنها هى وصويحباتها فى ثياب الحجاب ، وحين يبلغ الموكب منزل الزوج تنسل السيدات إلي
الطابق العلوى حيث يتاح لهن النظر إلي الرجال من خلال المشربيات ، وعند انتهاء الوليمة يجلس المدعوون=

وكان محمد فى ذلك الوقت يتجاذب مع اسرته أطراف الحديث ، ولم يكن قد بلغ من العمر سوى خمسة وعشرين عاماً ، بينما بلغت خديجة الأربعين ، وكانت أول من آمن برسالته، وقد عاشت معه عشر سنوات بعد النبوة (١) .

لقد أثرى هذا الزواج محمداً ، ولكنه لم يفقده توازنه (٢) . ولقد أحب طوال حياته المرأة التي كانت سبباً فى ثرائه . وبقدر ما عاشت معه قاوم قانون بلاده الذى كان يبيح له الزواج بأكثر من واحدة فإن الرخاء لم يغير قلبه ، ولقد جاءته حليمة المرضعة ذات يوم تشكو إليه فقرها، فرق لها قلبه ، وطلب إلي خديجة أن تحسن إليها فأعطتها قطيعاً من أربعين شاة عادت به حليمة سعيدة إلى صحراء بنى سعد.

[التحنث بغار حراء]

ويسكت التاريخ [عن ذكر شيء] فى هذه المرحلة ، ويخيم السكون على خمسة عشر عاما من حياة محمد ، فالجهل مطبق بكل ما فعل فى حياته من سن الخامسة والعشرين الي الأربعين ، ولكن أبا الفدا - وحده - يقول كلمة ، وكأنها ومضة من النور يلقيها علي التاريخ . قال : «إن الله ألهمه حب الخلاء ، فعاش معتكفا ، وكان يقضى كل عام شهراً فى غار بجبل حراء (٣).»

== على الأرائك حلقا يتحدثون فى وقار ، يدخنون ، ويستمعون إلى الموسيقى ، ويلهون بمشاهدة فتيات راقصات يتمتعن بمرونة غريبة فى أجسامهن فيأتين بحركات مثيرة ، ويصنعن أوضاعاً شهوانية ، وبين آونة وأخرى يزغرد النساء تعبيراً عن فرحهن ، بينما «العالمة» (أى الفتاة ذات العلم) تنشد الشعر فى مدح العروسين ، وفى الحب ، ثم يتفرق الجمع ويرى المسلم وجه زوجته لأول مرة .

[والكاتب يخطيء فى شرح معنى كلمة (العالمة)فهى ليست ذات علم . وانما هى بلغة مصر (المعلمة) أو (الغزّية) ويراد بلفظ العالمة أو المعلمة . المغنية الشعبية ، ولكن الكاتب أراد أن يحط من لفظ « العالمة » مؤنث العالم الذي اشتهر فى لغات الفرنجة بعالم الدين ورجال الفقه الاسلامى . كما افترى الكذب على المسلمين فكثيرون كانوا يرون زوجاتهم قبل الزواج وقد خان المستشرق الأمانة العلمية لأنه يعلم ان الاسلام لا يقر هذا فالنبى يقول « انظر اليها لعله يؤدم بينكما - أى يوفق بينكما .]

(١) يؤكد Naracci فى حياة محمد ص ١٥ أن خديجة ماتت عن ٤٩ عاماً حيث كان محمد قد بلغ الثالثة والأربعين . ولكن شهادة جميع المؤرخين تهدم هذه الرواية . انظر «جناب» و Elcoda وأبا الفداء [١١٧/١].

(٢) ابو الفدا [١١٧/١] أحمد بن يوسف الجزء الأول الفصل (٤٠)

(٣) ابو الفدا ص ١٣ - [١١٧/١]

[هل الإسلام من صنع محمد ؟]

وفى هذه السنوات التى يخيم عليها الظلام والغموض عكف مشرع الجزيرة العربية [؟] علي إرساء أسس مجده المستقبل [؟] . كان فى سكون عزلته يفكر فى هذا الدين الذى سوف يخضع له الشرق .

فقد أدى تشتت اليهود بعد هدم « أورشليم » واشتعال الحروب الدينية بين الروم الي أن زخرت رحاب الجزيرة العربية باليهود والنصارى ، فدرس محمد عقائدهم [؟] وضم الي هذه المعارف تاريخ بلاده [؟] فقد كانت كنيسة الشرق منقسمة ، مزقتها مجموعة من الطوائف التى نشأت فى أحضانها ، وأهمل الحكام شئون بلادهم ، وركزوا كل اهتماماتهم فى مساندة القضايا المذهبية الدينية (الثيولوجية) . بينما كان الفرس تحت راية كسرى يحملون الحديد والنار ، ويدقون أبواب القسطنطينية . وكاد العرب ينسون فكرة التوحيد فغرقوا في ظلمات الوثنية ، وتدنس حرم الكعبة التى شيدت لعبادة « الكائن الاعظم»[؟] وصوِّر إبراهيم وإسماعيل وهما يمسكان بأيديهما بسهام الخط وأحاط بالحرم ثلاثمائة وثن . هكذا كان حال الشرق حين فكر [؟] محمد فى إنشاء الإسلام ، و جمع العرب المنقسمين تحت لواء قانون واحد ، فقد أعطى موسى بنى إسرائيل التوراة ، أما مخلص الناس فقد منحهم الانجيل ، فأراد محمد أن يظهر أمام أمته وبيده كتاب إلهى ، فعكف علي نظم القرآن [؟] ونظراً لعلمه بملكة العرب البيانية فقد حرص علي أن يستميلهم بجمال الاسلوب ويدهشهم بروعة الصور بدلاً من أن يقنعهم بالحجة والبرهان .

[العالمية الإسلامية]

[هكذا فى هذه السطور ،رأينا المستشرق ضلل قومه عن رسالة محمد ﷺ حين وصفه بأنه « مشرِع الجزيرة العربية» لينفى عن رسالته عمومها للناس فى مستقبل الأجيال ، وعالميتها فى كافة البقاع ولكافة الأجناس . وقد بلغ بالكاتب فى امتهانة عقول القراء الحد الأقصى . فهو يذكر هذا فى مقدمته لترجمة القرآن الذى ضم بين نصوصه العديد من الآيات التى تنص على عموم الرسالة وعالميتها . قال تعالى فى أول سورة الفرقان ﴿تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾ وقال فى سورة سبأ . ٣٨ ﴿ وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً . ولكن اكثر الناس لا يعلمون ﴾ .]

[والدلائل واضحة على أن جميع رسالات الأنبياء السابقين كان يصيبها التغيير والتبديل قليلاً أو كثيراً مما اقتضى بعثة مرسلين آخرين ، ولو أن الله أراد أن تكون رسالات السابقين لمحمد من الأنبياء عامة للبشر كافة فى طول الأزمان والآباد لحفظ هذه الرسالات من التغيير ولأبقى أصولها من الزوال .]

[ولكنه سبحانه ضمن حفظ القرآن ورسالة النبى محمد وحده ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ولذلك أعلن صفة الكمال والتمام للإسلام لأنه الدين الخاتم ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ ، ولم يعلن الله لدين سابق ما اعنه للإسلام عن تمام وكمال وحفظ [1] .. بل على العكس من ذلك نجد النص فى سفر التثنية من التوراة (١٨ : ١٥) على أن رسالة موسى مؤقتة ، وأن الله باعث غيره بغيرها « يقيم لك الرب الهك نبياً من وسطك - من اخوتك - مثلك - له تسمعون »وقال (١٥-١٨) . « أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك ، وأجعل كلامى فى فمه ، فيكلمهم بكل ما أوصيه به » و (٣٣:١-٢) هذه هى البركة التى بارك بها موسى بنى إسرائيل قبل موته فقال :«جاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من سعير ، وتلألأ من جبل فاران [2] » . « وأتى من ربوات القدس ، بيمينه نار شريعة لهم » ، فهذه الآيات من سفر التثنية تدل على أن الله يبعث نبياً مثل موسى فى يمينه نار شريعة ملتهبة ، وأن الله يلقى فى فمه كلاماً فيكلم الناس بكل ما يوحيه الله إليه . وهذا أوضح دليل على أن شريعة موسى لم تكن آخر الشرائع ولا أدومها إلى يوم القيامة] .

[وهذا النبى أشعيا يبشر ببعثة نبى آخر فى الاصحاح ٤٠ من السفر المنسوب إليه]

[وفى سفر ملاخى بشارة برسول من رسل الله ، وكذلك سائر أسفار بنى إسرائيل والزبور ، تدل كلها على أن ما كان عندهم لم يكن آخر رسالات الله ولا اتصفت شريعتهم بالبقاء والدوام .]

---

(١) [الرسالة المحمدية للسيد سليمان الندوى . المحاضرة السابقة ص ١٣٩-١٥٩ المطبعة السلفية بالقاهرة] .

(٢) [برية فاران هى التى سكنتها هاجر وابنها إسماعيل كما فى سفر التكوين ٢١-٢١]

[وهكذا الإنجيل يتضمن النص على أن المسيحية دين مؤقت يعقبه دين الإسلام العام الخالد ، ففى إنجيل يوحنا (١٤: ١٦)، وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليط آخر ليبقى معكم إلى الأبد ، وفيه (١٦-١٢-١٣) ، إن لى أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن . وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه ، فهذه نصوص بينة تؤكد توقيت رسالة عيسى ، وعموم الرسالة التى تليها وخلودها وهى رسالة الإسلام الذى بعث به محمد ﷺ لا للعرب خاصة ولكن للبشرية عامة . ولذلك قال ﷺ :،ختم بى النبيون ، ، وقال ، ألا لا نبى بعدى ، .]

[وهل أتى نبى آخر غير محمد ﷺ برسالة عامة لجميع البشر ؟]

[إن إليهود كما نرى يزعمون أن إله العالمين هو إله أمتهم وحدها ، وأسفارهم لا تخاطب غيرهم ولا تدعو لإلههم الا أسباطهم ، بل إن عيسى المسيح لم يرع إلا غنم بنى إسرائيل الضالة ، ولم يبلغ رسالته إلا فى قراهم وأرضهم والمنسوبين إليهم ، ولم يرغب فى إعطاء خبز الأولاد للكلاب . وكذلك صحائف (ويدا) الهندية – وهى الكتب المقدسة التى يدّعى الهنادك أنها منزلة على أنبيائهم من السماء- لا تطرق نبرات تلاوتها غير آذان الأمة الآرية ، وجميع الناس من غير الآريين أنجاس مناكيد ، وآذان الشودر (أى الأنجاس) إذا سمعت آيات (ويدا) فليصب فيها الرصاص المذاب] ..

[أما الرسالة المحمدية فهى الأولى والأخيرة من رسالات الله التى جعلها للناس كافة .. ذلك لان إله الرسول ﷺ هو اله جميع الأمم وهورب العاليمن ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ فهو لأجل ذلك مرسل للإنسانية كلها ﴿ رحمة للعالمين ﴾ برسالة لجميع البشر ﴿ إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴾ (الأنعام ١٠١) - ﴿ قل يأأيها الناس إنى رسول الله اليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض ﴾ يطالب بها الإسلام كل من بلغه نداؤه ﴿وأوحى الىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ (الانعام ١٩) . وفى صحيح مسلم ان رسول الله ﷺ قال (بعثت الأنبياء قبلى إلى أممهم خاصة، وبعثت إلى الأمم كلها عامة، .]

[هل للرسالات المخالفة للاسلام كمال الاسلام ؟]

[الإسلام دين وفيّ ما يحتاجه المرء من اعتقاد قلبي ومن عمل للجوارح يتعلق بالله وبالناس وبالنفس والآداب . فهو دين عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق . وهذا مظهر اكتماله ووفائه بحاجات البشر . أما غيره من الكتب السماوية حين نقارنها بكتاب الإسلام ، فلا نجد فيها هذه الخاصة . فما في التوراة والإنجيل من العقائد لا يروى الغليل ولا يشفى العليل .]

[نعم . نجد فيها ذكراً لوجود الله وتوحيده ، ولكننا لا نجد فيها دليلاً يؤيد ذلك، ولا برهاناً يحمل النفوس على التصديق به ، كما لا نجد فيهما ذكراً للصفات الإلهية التى تزكو بها الروح الإنسانية ، وتطهر بها نفوس البشر ، وتنشأ بها محبة الله وعرفانه] .

[فقبل البعثة المحمدية لم يكن الناس يعرفون هذه الأمور، ولا كشفت لهم الحجب عن حقيقة النبوة والرسالة والوحى والإلهام ، والصلة بين الله ورسله ، ومكانة الأنبياء ومنازلهم ، وكيف يؤمن الناس بالنبوة ؟ وما معنى الإيمان بالأنبياء ؟ وما معنى عصمتهم ؟، هذه المسائل كلها لم يتكشف أمرها قبل الرسالة المحمدية ، لأننا لم نر نبياً من الأنبياء ، تصدى لذلك وأفاض فيه ، أو على الأقل ليس بين يدينا ما يدل على هذا] .

[أما الجزاء على الأعمال وأمر الجنة والنار ، والحشر والنشر ، والقيامة والحياة بعد الموت ، فكل ذلك غامض قليل الوضوح فى التوراة ، ولا نقرأ عنه فى الإنجيل إلا فقرتين فى جواب يهودى ، والجنة والنار لا نرى عنهما إلا فقرتين كذلك ، بينما الرسالة المحمدية هى التى أفاضت فى هذه الأمور بوضوح عظيم]

[وإذا أردت أن تعرف الملائكة من التوراة ، فإنه يلتبس عليك أمرهم ، وقد يشق عليك أن تميز بين حديث التوراة عن الله وحديثها عن الملائكة (انظر سفر التكوين ١٨ : ١ ، ١٩ : ١) وذكر فيها الملكان، كما التبست فى الإنجيل حقيقة روح القدس التباساً تاما حتى لا يتسنى للقارىء أن يميز بين الله وروح القدس ، بل يصح عنده أنه إله أو ملك . بخلاف الإسلام الذى وضح أمر الملائكة ووصفهم وذكر أعمالهم وأسماء بعضهم، فهم وسائط بين الله ورسله ، ومنهم ﴿ ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما

أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾]

[أما فى الأعمال ورأسها عبادة الله ، فان التوراة تتوسع فى ذكر القرابين وآدابها وشرائطها وعلى تناقض حاد بين المذاهب الإسرائيلية فيها - وفى التوراة ذكر الصوم والأدعية وذكر بيت ايل أو بيت الله ، ومع ذلك فإن هذه الأمور غير واضحة ، ولا تسترعى أنظار الناظرين حتى إن منهم من جنح إلى إنكارها ، وفيما عدا ذلك فإننا لا نجد فى التوراة أنواع العبادات وأقسامها ولا طرقها ولا آدابها ولا تعيين أوقاتها ، وليس هنالك عناية تامة بتعليم العبادة للناس ، وقد أهمل جانب عظيم من كيفية ذكر الله ودعائه ، فلا نرى ما يدل على تعليم دعاء خاص لرب العالمين ، ولا كيف يدعو الناس ربهم ويسألونه حاجاتهم ، ونرى فى الزبور أدعية كثيرة ومناجاة للرب طويلة ، ولكن ليس فيها ذكر لاداب العبادة وشرائطها وأوقاتها .]

[أما الإنجيل فقلما ترى فيه ذكراً للعبادات . بل ليس فيه ذكر للعبادة البتة . نعم نجد فى فقرة منه(متى ٤-٢) ذكراً لتقشف المسيح وصيامه أربعين يوماً . وفى الانجيل ايضاً اعتراض اليهود على المسيح بأن اصحابه لا يصومون ، وفيه ذكر دعاء دعا به عيسى عليه السلام فى الليلة التى أرادوا صلبه فيها . وفى ذلك الموضع دعاء آخر له ،لكننالانجد ذكراً لعبادات اخرى .]

[أما الإسلام ففيه الصلاة والصوم والحج مفصلة آداب كل منها وشرائطه ومواقيته وسننه وفرائضه . أما المعاملات أو قوانين المملكة وأصول المعاشرة ، فقد فصلتها شريعة موسى وفى بعضها شدة . فجاء الإسلام واقر معظمها ، وأضاف ما نقص فيها ، وحذف الشديد ، وجعل هذا الباب جديداً ، بأن يكون للناس كافة بعد أن كانت أحكامه خاصةببنى اسرائيل .]

[ونحن لا نرى ذكراً لقوانين المملكة فى الزبور ولا فى الإنجيل ، وقد نجد فى الإنجيل بعض الأحكام فى الطلاق . أما الأمور الأخرى فلا أثر لها فيه ، مع أن الدين العالمى الأبدى الذى يتكفل بحاجات المجتمع البشرى يتحتم ان يشمل قوانين الدولة وأصول المعاشرة . ولما كان دين عيسى عليه السلام خالياً من هذه القوانين فقد اضطرت الأمم المسيحية إلى استعارة هذه القوانين من الأمم الوثنية كالإغريق والروم.

بينما استوعب الإسلام هذه القوانين فوضعت الأصول المحكمة الكافية التى أمدت الفقهاء والقضاء بكل حاجاتهم نصا أو استنباطا زهاء ألف عام . ، ولم يعرف العالم كله إلى الآن قانوناً أعدل ولا أرحم بالإنسانية ولا أصلح لها من قوانين الإسلام .]

[وأما الأخلاق ففى التوراة أحكام تتعلق بها منها سبعة تعد أصولاً ، وليس فى هذه الأصول السبعة إلا أصل واحد إيجابى : وهو الأمر بطاعة الوالدين والبر بهما . أما الستة الأخرى فكلها سلبية وهى النواهى ، لا تقتل ، لا تسرق ، لا تزن . لا تشهد على جارك شهادة زور ، لا تخادن خليلة جارك . لا تطمع فى مال جارك ، . وبعض هذه الأصول داخل فى بعض فهى فى الحقيقة أربعة .]

[ولم يزد الإنجيل على هذه السبعة إلا محبة الغير . أما الإسلام فملىء بأحكام المعاشرة وفيه كثير من قوانين المعاملات مفصلة ، وفى ليلة الإسراء أعطى الله أمة الإسلام اثنى عشر حكماً أساسياً . منها واحد فى التوحيد ذكرتها سورة الإسراء (٢٣-٣٩) وفيها خمسة إيجابية ندعوها أوامر ، وخمسة سلبية تسمى النواهى ، اقرأ ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ..[إلى] .. ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾..]

[فالأمور الإيجابية هى]

[١- بر الوالدين وطاعتهما. [٢- إيتاء كل ذى حق حقه .

[٣- الاحسان إلى اليتامى . [٤ - الوزن بالقسطاس المستقيم .

[٥ - ايفاء الكيل . [٦- الوفاء بالوعد .

والامور السلبية

[١ - لا تقتل أولادك . [٢ - لا تقتل نفساً .

[٣ - لا تقرب الزنا . [٤ - لا تقْفُ ماليس لك به علم .

[٥ - لا تبذر فى النفقة واقتصد فيها .

[وهكذا عنى الإسلام بكرامة الجنس البشرى ومكانته من سائر المخلوقات ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على

كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ (الاسراء ٧٠)]

[وكان الإنسان قبل الإسلام يرى نفسه أحط منزلة من معظم المخلوقات . كان يهاب كل ما عظمت جثته ، ويطأطيء رأسه لكل ما يبدو له أسود حالكاً أو أبيض لامعاً، ولكل ذى لبن سائغ ، أو لعاب قاتل ، فعبد النجوم والبقر والأفاعى والنيران . وكل ما يخشى شره أو يرجى خيره من الكائنات . فرد الله للإنسان اعتباره قائلاً : ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض ﴾ (الحج ٦٥) ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾(النحل ١٢) ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض﴾ (الأنعام ١٦٥) . وبهذا تجرد الإنسان الذى يدين بالإسلام من كل ما نسجته حوله أيدى الأوهام الباطلة والعقائد الفاسدة .]

[وقد بشر الإسلام بأن الإنسان يولد على الخير . وله ماتجنى يداه خيراً أو شراً. بينما ديانات الصين والهند - التى تؤمن بالتناسخ - تقرر أن الروح التى تسكن المرء إنما هى روح أخرى تعذب أو تسعد جزاء عمل أسلافه الذين ماتوا ، وانتقلت أوراحهم إليه . وكذا المسيحية تحمل كل مولود خطيئة آدم . ولكن القرآن يقول ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ .]

[وكان براهمة الهند والزردشت - يحسب كل أن أرضهم الممتازة وغيرها محروم من رسالة السماء . وكذا كان بنو إسرائيل يعتقدون أن رسالات الله خاصة ببعض أسباطهم . أما القرآن فقد قال : ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيهانذير ﴾ (سورة فاطر) ، ﴿لكل قوم هاد ﴾ (الرعد) ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم ﴾ (الروم) وبينماكفر كل أهل ملة بغيرهم قال القرآن ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ (البقرة) ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ﴾(النساء ١٣٦) .]

[وكل الديانات تجعل بين الناس وربهم وسائط . فاليهود يتخذون من سبط لاوى ومن تناسل منه شفعاء بينهم وبين ربهم ، والنصارى جعلوا بعض الحواريين وخلافائهم

من الرهبان والقسيسين وسائل يتوسلون بهم الى الله . فما ربطوه فهو مربوط بالسماء ، وما حلوه في الأرض فهو محلول في السماء . كما زعم البراهمة أنهم مخلوقون من يمين الله ، فهم وسطاء الخلق إليه حين يتقربون ويعبدون ربهم . بينما ألغى الإسلام الوسائط جميعاً . فقال ﴿ وإذا سألك عبادى عنى ، فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانِ﴾ (البقرة) وأمر النبى بهدم الأضرحة . وألغى امتيازه من البشر ﴿ إنما أنا بشر مثلكم ﴾ بينما نرى فى هياكل الشام وبابل ومصر تماثيل الكهنة والأحبار تمثل الله عز وجل وتنتحل بعض صفاته .]

[وهكذا نرى أن الإسلام وحده هو الذى جمع الخصائص التى تجعله - دون سواه من الأديان - ديناً عاماً لكل عصر وجيل وجنس ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها . لا تبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم . ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾] .

[فما يجنح إليه سفارى وغيره من المستشرقين من التنصيص على أن النبى محمد ﷺ، « نبى العرب » ، إنما يوحون به إلى معنى فاسد ، وأكذوبة ضالة مضلة .]

[وقد ذهب « سوندرس» - المحاضر الأول بقسم التاريخ بجامعة نيوزيلانده - مذهب سفاري ، وقال إن عمر هو الذي نشر الاسلام خارج الجزيرة ولم يكن ذلك في برنامج محمد ، وذلك من الكاتب قياس علي أسلوب انتشار المسيحية واليهودية بعد عيسي وموسي . فقد كان هذا علي أيدي الحواريين من بعدهما ، بينما القرآن فيه نحو أربعين آية تدل علي طبيعة العموم فيه ، وأنه للناس كافة ، وأن الله رب العالمين .. وليست اليهودية كذلك . فهي تجعل الرب إلها لليهود . ويقرر قصد محمد نشر دينه للعالم كافة كثير من المستشرقين الخصوم مثل نولدكه وجولد سير وارنولد](١) .

[شبهات اخرى على عموم الرسالة]

[ويذكر المستشرقون والمبشرون شبهات أخرى على عموم رسالة الإسلام ليثبتوا خصوصها بالعرب ، فمن ذلك قولهم (٢) :

[(١) إن القرآن يقول (﴿ لتنذر أم القرى ومن حولها﴾ فأثبت أنه نبى العرب وحدهم .

(١) [المستشرقون والاسلام ص ٢٨٧ : ٢٨٨] .

(٢) [ثبات الايمان ونصرة القرآن للشيخ محمد حلاوة الموصفى ص ٨٨ .]

والجواب أن هذا تخصيص بعد تعميم ورد فى آيات كثيرة ، نحو قوله تعالى ﴿وما أرسلناك لا كافة للناس ﴾]

[(٢) وقالوا : انه لا حق لمحمد فى انذارنا ، فانا منذرون من قبل عيسى بن مريم عليه السلام . والجواب- ان يقال لهم : لو استقمتم على شريعة عيسى ما أنذركم محمد ﷺ، إذ لم يقل لكم عيسى أنى اله أو ابن اله . بل اخترتم ذلك من أنفسكم فوجب إنذاركم .]

[إنكار «وليم موير» عموم الرسالة [١]]

[قال وليم موير « إن فكرة عموم الرسالة جاءت فيما بعد ، وإن هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التى تؤيدها لم يفكر فيها محمد نفسه وعلى فرض أنه فكر فيها فقد كان تفكيره غامضاً . فإن المعنى الذى كان يفكر فيه إنما كان بلاد العرب ، كما أن هذا الدين الجديد لم يتهيأ إلا لها ، وأن محمداً لم يوجه دعوته منذ بعث إلى أن مات إلا للعرب دون غيرهم ، وهكذا نرى أن نواة عالمية الإسلام قد غرست ، ولكنها إذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك ، فانما يرجع هذا إلى الظروف والأحوال اكثرمنه إلى الخطط والمناهج .]

[وكذا وقف الامير « ليونى كيتانى » يتشكك فى أن الرسالة المحمدية كان يفكر النبى فى إنطلاقها خلف حدود الجزيرة العربية [٢] .]

[الرد على وليم موير وكيتانى]

[أولاً : لا يمكن أن يقبل العقل الادعاء بأن محمداً لم يفكر فى عموم رسالته ، وقد تناولت عموم الرسالة عشرات النصوص التى ذكرنا بعضها . ولا يمكن أن تكون دعوى العموم غامضة ونصها كما فى القرآن .﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً﴾ (الأعراف ١٥٨) ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (سبأ ٢٨) - ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ، ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ (ص٨٧، ٨٨) ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ، لينذر

(١) Nuir : the caliphate p 43-44 (1924)

[(٢) تاريخ الإسلام السياسى ص ١٧٧ جـ١ ط ٣ سنة ١٩٥٣ النهضة المصرية .]

من كان حياً ويحق القول على الكافرين ﴾ (يس ٣٦ . ٦٩، ٧٠) والحديث النبوى الشريف « وكان النبى يبعث فى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة » .]

[وكيف يقال عالمه الذى كان يفكر فيه انما كان بلاد العرب ، مع أنه أولاً ـ أرسل كتبه ورسله إلى الحبشة والروم ومصر وفارس وغيرها من الإمارات . وثانياً ـ أنه بشر يوم الخندق وغيره بفتح فارس والشام ومصر ، « إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فان لهم فيكم صهراً وذمة [1] » ، وثالثاً ـ أنه خرج إلى الشام صبياً وفتى بالتجارة مع عمه ثم مع ميسره فى مال خديجة وعرف من امر الروم ما عرف . رابعاً ـ أنه رأى المر فى مكة ، وقد صبر وصابر حتى دانت له الجزيرة ، فأصبح ذا شوكة هددت الروم وفارس بل والحبشة ـ إن صحت رواية سعد القائلةأن غزوة علقم بن مجرز للحبشة كانت فى عهده ﷺ ،لا عهد عمر ـ كما رجحه الطبرى وابن الأثير[2] .]

[أفيقال : إن هذا الذى ذاق حلاوة النصر على الصعاب ، والذى أصبح القوة الجديدة الحصينة بالجزيرة بين الروم والفرس كان فكره مغلقاً على الجزيرة ؟ وهو الذى قال عن بلال إنه « أول ثمار الحبشة » ، وعن صهيب « أول ثمار الروم » ، ومثل هذا عن سلمان الفارسى ، أفيقبل أن يقال : إن الإسكندر المقدونى ونابليون بونابرت الفرنسى ، أرادا تكوين أمبراطوريات كبرى فتصدق الدعوى . فإذا قيل هذا عن محمد أبيْنا أن نصدق لا لشيء إلا لأنه عربى ..؟!]

[دعوى أن الإسلام أنسب دين للعرب]

[يردد المستشرقون هذا قائلين : إن العرب أقبلوا عليه بينما لم يستجيبوا لليهوديةوالمسيحية اللتين لا توافقان منهاخ العرب . وجرى تلامذتهم مجراهم ... وهذه نظرة تأخذ صورة البحث العلمى للإيهام بأن الإسلام دين خاص بالعرب وابن بيئتهم . والرد على هذا أنه يناسب كل الأجناس والبيئات فى كل العصور بدليل اقتحامه

[(١) أورد الطبرى جـ ٤ ص ٣٢٨ ط القاهرة سنة ١٣٢٦ لابن عبد الحكم رواية مماثلة جـ ١ ص ١ ، ٢ من فتوح مصر طبعة القاهرة سنة ١٩١٤م .]

[(٢) الطبرى ٤/٣٢١ سنة ١٣٢٦ وابن الأثير ٢/٢٤٠ الكامل فى التاريخ ط بولاق وقد رجحا انهافى عهد عمر وفى الطبقات ٢/١١٧ انها في عهد عمر .]

الأسوار على كل البيئات والأجناس، وسيطرته على قلوب أهلها. وتجنيدهم للدفاع عنه]

[الدين العالمى فى المستقبل]

[وإذا كنا ناقشنا مبدأعالمية الإسلام من حيث النصوص الدالة على ذلك .. فإننا نضيف إلى ذلك أن العالم جميعاً يتجه طبيعياً إلى تعاليم الإسلام مما جعل بعض المفكرين الكبار يتوسمون استظلال البشرية به .]

[ومن هؤلاء الكتاب الكبار الفيلسوف الإنجليزى « برناردشو» إذ يقول :]

[لقد وضعت دائماً دين محمد ﷺ موضع الاعتبار السامى بسبب حيويته المدهشة . فهو الدين الوحيد الذى يلوح لى أنه حائز أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة ، بحيث يستطيع أن يكون جذاباً لكل جيل من الناس .. ولقد تنبأت بأن دين محمد ﷺ سيكون مقبولا لدى أوروبا غداً . وقد بدأ كونه مقبولا لديها اليوم .]

[وقد صور « اكليروس » - يعنى رجال الدين المسيحى - القرون الوسطى الإسلام بأحلك الألوان ، إما بسبب التعصب الذميم أو بسبب الجهل الممقوت .]

[ثم قال : « ولقد كانوا فى الواقع يمرنون على كراهية محمد ﷺ وكراهية دينه . وكانوا يعتبرونه خصماً للمسيح . ولقددرسته باعتباره رجلاً مدهشاً فرأيته بعيداً عن مخاصمة المسيح بل يجب أن يدعى « منقذ الانسانية » .]

[وإنى لأعتقد أنه لو تولى رجل مثله زعامة العالم الحديث لنجح فى حل مشكلاته بطريقة تجلب الى العالم السلام والسعادة اللذين هو فى أشد الحاجة اليهما . ولقد أدرك ذلك فى القرن التاسع عشر مفكرون مخلصون أمثال « كارليل » و« جوت » . هكذا وجد تحول حسن « فى موقف أوروبا من الإسلام » .]

[ولكن أوروبا فى القرن الراهن تقدمت فى هذا السبيل كثيراً ، فبدأت تعشق عقيدة محمد ﷺ . وفى القرن التالى ربما ذهبت إلى أبعد من ذلك فتعترف بفائدة هذه العقيدة فى حل مشكلاتها .]

[فبهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتى . وفى الوقت الحاضر كثيرون من أبناء قومى ومن أهل أوروبا قد دخلوا فى دين محمد ﷺ حتى ليمكن أن يقال . إن تحول أوروبا إلى الإسلام قد بدأ ، وأنه لن يمر القرن العشرون حتى تعتنق الأمبراطورية

الإسلام. (١) .]

[وقال « ماسينيون » فى كتاب« الإسلام والنظام العالمى الجديد » إن لدى الإسلام من الكفاية ما يجعله يتشدد فى تحقيق فكرة المساواة ، وذلك بفرض زكاة يدفعها كل فرد لبيت المال . وهو يناهض عمليات المبادلات التى لا ضابط لها ، وحبس الثروات ، كما يناهض الديون الربوية والضرائب غير المباشرة التى تفرض على الحاجيات الأولية الضرورية ويقف فى نفس الوقت الى جانب حقوق الولد والزوج ، ويشجع الملكية الفردية ورأس المال التجارى . وبذا يحتل الإسلام - مرة أخرى - مكانا وسطاً بين نظريات الرأسمالية البورجوازية ، ونظريات البلشفية الشيوعية .].(٢)

[وفى محاضرة للاستاذ « بوزورث سمث » عن « محمد والمسلمين » أنه قال : أما الإسلام فكل شيء يختلف فيه عن غيره . وإننا لنعرف الكثير عن محمد ، كما نعرف عن لوثر وملتون. ومن الامور التى دفعتنى إلى إعتناق الإسلام .. دعوته إلى المساواة بين الناس . ومن الإنصاف لهذا الدين أن نذكر أنه الدين الوحيد الآن الذى يستطيع أن يقضى على ما ينتاب العالم اليوم من نزعة عدم الرضا .]

[وقال « رينان » : لم أدخل مسجداً قط إلا شعرت بانفعالات نفسية وأسف بالغ حين أذكر أننى لست مسلماً . وانى لعلى يقين من أن فى أوروبا وأمريكا آلافا يتمنون مخلصين أن يعتنقوا الإسلام ، ولكن تعوزهم الشجاعة ليعلنوا ما يخفون . وإنى لأقولها كلمة حق مدوية بأننى ارتضيت الإسلام ديناً ، ورائدى فى ذلك قول الله سبحانه :﴿ قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العاليمن ..(٣) ﴾.]

[رد الدكتور دراز]

[وكتب الدكتور محمد عبد الله دراز مقالاً يرد فيه على من قال إن الإسلام دين محلى ، جاء فى مرحلة طفولة البشرية . فقال ما خلاصته . إن الإسلام دين عالمى لكل العصور القادمة :]

[(١) المستشرقون والاسلام لزكريا هاشم ص ٢٨٥-٢٨٦ ونور الاسلام ص ٧٢٠ من المجلد الرابع عام ١٣٥٧هـ.]

[(٢) المستشرقون والاسلام ص ٢٩٧]

[(٣) المرجع السابق ص ٣٠٠.]

[١ – فقد انتشر بسرعة فائقة بين أمم مختلفة فى ألسنتها وأبدانها ونزعاتها وطبيعة أراضيها وأجوائها ، وفى أساليب حياتها . فأثبت بصلاحيته لها كلها خاصية العالمية فيه .]

[٢ – لقد واجه الإسلام أقسى حروب التدمير .. فظل قادراً على الثبات فى وجهها. وعاد خصومه .. كناطح صخرة يوما ليوهنها .. فلم يضرها ، وأوهى قرنه الوعل.]

[٣ – ولا يزال الإسلام قابلاً للانتشار كلما رفعت الحواجز الصناعية الإرهابية أو الإنحلالية من طريقه . فالنفوس تتقبله كلما عرض عليها دون صراع ولا خداع:]

[أ – لمجاوبته للفطرة الانسانية ، ووفائه بحاجات العقول والقلوب ،]

[ب – ولخلقه روح الأخوة بين أتباعه ، فالمسلم - حتى فى عصور تعدد الخلافات - كان كما يقول المؤرخ الألمانى « متز» فى كتابه « نهضة الإسلام » كان يشعرأنه حيثما حل فهو فى قلب وطنه .]

[جـ – ولروح التسامح التى ينشرها بين كافة طوائف البشر لأنه ﴿ لا إكراه فى الدين﴾ . وقد ظلت هذه الروح المتسامحة فى شتى العصور بين المسلمين .كما قال المؤرخ الالمانى « كريمر » فى كتابه « حضارة الشرق فى عهد الخلفاء » وكما قال المؤرخ الفرنسي « جوتييه » فى كتابه« أخلاق المسلمين وعوائدهم » اذ قارن بين المسلمين وقبولهم كل الملل والنحل داخل مجتمعاتهم . وبين مسيحيى الغرب حين نشبت الحرب فى جنوب فرنسا بين المذاهب المسيحية نفسها ، فنهض البارون « سيمون دى موتفور » بإذن البابا على رأس لفيف من البارونات الفرنسيين ، ومعهم فرقة من الرهبان ، الى مقاطعة « لانج دوك » لاستئصال الديانة المجوسية منها حتى أهلكواكل من فيها ، وهكذا فعلوا مع فرقة « بوهيميا » التى نبتت بعد ذلك . ومع جماعة الإصلاح الدينى التى نشأت فى شمال ألمانيا بعد ذلك . وقد دامت المعارك بينهم وبين الإصلاحيين زهاء ثلاثين عاماً ، ولم تقف الحرب إلا على أساس عدم تعايش سلمى فى دولة واحدة ، بينما الخوارج والشيعة وأهل السنة يعيشون مع الأديان كافة فى إطار دولة إسلامية واحدة .]

[ولم يعرف الأوروبى التسامح إلا فى صورة إنحلاله وتحلله من مسيحيته ، بينما المسلم يكون متسامحاً وهو اشد ما يكون مستمسكا بدينه .]

[المنطق القرآنى]

[والعجب أن ينفى الكاتب عن القرآن وصفه بأنه مقنع بقوة الحجة وسلامة المنطق وصحة البرهان ، بينما القرآن لم يترك أسلوباً من أساليب الإقناع إلا استعمله ، ولا حجة للمشركين والملاحدة إلا نقضها .]

[ففى دعوى وجود إلهين للعالم أو أكثر قال القرآن ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ ، ﴿ ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً . ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين زعمتم فدعوهم ، فلم يستجيبوا لهم . وجعلنا بينهم موبقاً ﴾ وهى أدلة عولت على مقررات علم النفس والواقع العملى المشاهد فى المجتمع . والسخرية المنطقية فى اسلوبها اللاذع والمنطق الجدلى الذى لا يدفع .]

[وفى الرد على منكرى البعث قال القرآن ﴿ قال من يحيى العظام وهى رميم ؟ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً .. الآيات ﴾ (يس ٨٠) . ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض ﴾ (الروم ٢٧) .]

[وهكذا لقى « مستر فرانك فوستر» « الإقناع » عن القرآن ، ولعل أقوى دليل على فساد الدعوى ، أن القرآن نقل البشرية من أحط منزلة إلى أسماها . فمن الحمق أن يقال عنه أنه لا حجة فيه ولا منطق ، وإلا فبماذا أقنع الملايين إن لم يكن هذا بقوة الحجة.؟!]

[نزول القرآن منجماً (جزئياً)]

ويرجع الفضل فى نجاحه [ﷺ] إلى خطة بمقتضاها لم يكن ليظهر من القرآن إلا عدداً محدوداً من الآيات ـ الفنية بعد الفنية ـ وعلى مدى ثلاثة وعشرين عاماً . وبهذا الاحتياط الحكيم أصبح يتحكم فى حديث السماء ، ليجعلها تتحدث حسب الظروف والملابسات.[؟!]

[والعجب أن يذكر سفاري هذا بينما القرآن قد ضم بين دفتي المصحف أسئلة كانت تعرض على النبي ﷺ فلم يجب عليها حتى نزل الوحي بالإجابة ، ولو أنه ﷺ كان قد أعد القرآن في الخمسة عشر عاما السابقة على إعلان البعثة .. لما كان في حاجة إلى انتظار الرد انتظاراً أدى الى أن اتهمه الكفار يوماً بأن الله هجره . إذ منع عنه الوحي في المدة التي تسمى تاريخياً « فتور الوحي » ، ونزل في هذا قوله تعالى ﴿ما ودعك ربك وما قلى . ﴾

[بل إن القرآن ذكر أفعالاً وأقوالا للرسول في موضع اللوم والنقد كقوله تعالى :
﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم . حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ﴾ ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه امسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفي في نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ (الأحزاب-٣٧) والمرء لا يضع نفسه موضع اللوم .فلو كان محمد صانع القرآن لما ذكر نفسه في مقام المؤاخذة .]

[دعوى أن القرآن صنعه محمد مستعيناً بالكتابيين]

[هذه الدعوى ذكرها سفاري ، وذكرها آخرون . فالعرب في الجاهلية حكى القرآن عنهم أنهم قالوا ﴿ أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴾ . ومن المستشرقين الذين قالوا هذا « يوحنا الدمشقي » الذي كان معاصراً للنبي ولهرقل . ثم قال بهذا « ثيوفاينز البيزنطي » ثم « نيكتاس البيزنطي » في القرن التاسع ثم « وليم الطرابلسي» المتوفى سنة ٨١٧ م وقد ذكر في كتابه « حياة النبي محمد » توفى عام ٦٣٢م (٦١٢٢ من بدء العالم) - ثم توماس كارليل » . ثم « أ.ج . فينسينك » عضو المجمع اللغوي السابق وقد قال : «إن القرآن كتاب مسيحي نسخه محمد ﷺ وقد رد عليه الاستاذ حسين هواري في كتابه «المستشرقون والإسلام » (ص٧١) . وبهذا قال «بودلي » و«جب» وتجاهل هؤلاء التاريخ . فإن النبي لم يوجه الدعوة في العهد المكي إلى اليهود والنصارى وقد كان النصارى لا شوكة لهم حتى يتألفوا بالأخذ منهم . كما أن معاداة النبي لليهود تعلن استحالة القول بأنه استعان بهم على نشر دينه بأخذ معلومات عنهم . والإسلام في طبيعته يحارب العنصرية والطائفية فكيف يصنعها محمد بتقريب الكتابيين منه .]

[الأدلة على ان القرآن من عند الله]

١ ـ [إن أبرز دليل على أن القـرآن كـتـاب الله هو مـا تضـمنه من أسـرار وأحكام وتشـريعات ومـقررات علمـية واجتماعـية لا يمكن أن يكـون لهـا مـصـدر ـ مع تنوعها ودقتها وتميزها بين ثقافة العالم أبان نزول القرآن ـ إلا مصدر واحد هو الله خالق السموات والارض . فإن المشـرعين نراهـم يقتـرحون القوانين اليـوم ثم تبـدو فـيـهـا الثلمات فـيـرجـعون عنهـا مـقرين أنهم أدركـوا ـ مـؤخـراً ـ عـدم مواءمـتـهـا للنفـوس أو العمران أو الظواهر الطبيـعية . ولكن تشريعات القرآن لا يعتورهاهذا النقص .]

[ومرجع هذا إلى أن فلاسفة البشرية يجهلون أسرار الخلق ، بينما القرآن أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض .]

٢ ـ [ومن ناحية الصورة قال القرآن ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كـثـيراً ﴾ ووجـه الاستدلال فى الآية أنها تبين أن لكل إنسان ولكل عـصرطابعاً خاصاً فى التفكير . وفى أسلوب التعبير وفى التصوير البيانى . وهذا يعرفه كل نقاد الأدب والفكر ، ولو أن القرآن كان تجميعاً لآثار العرب الأقدمين ، ولما خلا فى الديانات الإسرائيلية . لاضطربت أفكاره وتشريعاته وصوره البيـانية بـل وطـرق الأداء اللغـوى، ولكن خلو القـرآن من أى اضطراب .. واتسـاق مـعـانيـه وعباراته واستواءها ، كل ذلك يقف دليلاً على وحدانية مصدر القرآن ونسبته إلى الله العزيز الحكيم .]

٣ ـ [ومن ناحية استحالة احتمال أن يكون القرآن من صنع البشر، نحن نعرف أن القرآن نفسه تحدى فصحاء العرب الذين نزل القرآن بلغتهم أن يأتوا بقرآن مثله فعجزوا . قال تعالى ﴿وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسـورة من مثله وادعوشهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ـ ولن تفعلوا ـ فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافريـن ﴾ (البقرة ٢٣ـ٢٤) . وقـال ﴿ قل لئن اجـتـمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القـرآن لا يأتـون بمثله ولوكـان بعـضـهـم لبـعض ظهـيراً ﴾ . (الاسـراء ٨٨) وقـال . ﴿ أم يقـولون افـتـراه . قل فأتوا بعشر سـور مثله مفتريـات وادعوا من استطعتم من دون الله إن

كنتم صادقين ﴾ (هود ١٣) . وقد استمر التحدى من جهة القرآن والإستسلام من جهة خصومه بعد عدة محاولات فاشلة . ولهذا فإن عتبة بن ربيعة لم يلبث حين سمعه أن آمن بأنه ليس من قول البشر . ومن المغالطات أن ينسب كزيمرسكى إلى محمد بن عبد الوهاب القول بإمكان الإتيان بما هو أبلغ من القرآن [١] .]

٤ ـ [وقد جنح القرآن في الإقناع بأنه كتاب الله أنزله على محمد ﷺ نبيه ورسوله إلى الدليل التاريخى فقال ﴿ قل لوشاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون . فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون ﴾ (يونس ١٦-١٧) .]

٥ ـ [وقد ذكر القرآن من أخبار الغيب الماضى ما كان مجهولاً لعصره ﷺ ولعصور عديدة من بعده . ثم جاءت الدراسات الأثرية وكشوفها تؤكد صدق القرآن فى دعواه . وهذا التصديق يفرض علينا أن نعممه فى كل ما نزل فى القرآن . بما فى هذا نصوصه التى تؤكد أن القرآن من عند الله وليس من عند محمد كقوله تعالى ﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ (وهذه) الأخبار التى ذكرها القرآن وليس لها ذكر فى الكتاب المقدس تنفى صحة دعوى المستشرقين والجاهليين الأولين أن القرآن مجموع من الكتب المقدسة السابقة وغيرها وتدل على أن القرآن من عند الله علام الغيوب .]

٦ ـ [القرآن تضمن من القضايا الدينية التى جاءت فى الكتب السابقة مالا يعلمه الا المتخصصون فيها من أحبارها مما يضنون به على العامة ، فضلا عمن ليس من ملتهم . ولهذا فإن نجاشى الحبشة لم يلبث حين سمع قراءة جعفر بن أبى طالب سورة مريم وما فيها من قصة يحيى وزكريا وعيسى ومريم أن سالت دموعه وقال: ليس بين ما نسمع منك الآن يا جعفر ، وبين ما تقوله ديانتنا إلا سمك هذا القضيب [٢] ، .]

---

(١) [خاتم النبيين فى نظر المستشرقين ص ١٠٤ .]

(٢) [لبات الإيمان ونصرة القرآن ص ٥٦]

[شبهات اخرى]

[وقد اعترض بعض المستشرقين والمبشرين واتباعهم على دعوى أن القرآن من عند الله بقولهم : لوكان من عند الله لما وجد فيه تعارض وتناقض ، وقد وجد التعارض بين قوله سبحانه فى النحل ﴿ لسان الذى يلحدون اليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين﴾ إذ يدل على أن القرآن بيّن . و بين قوله سبحانه فى آل عمران ﴿هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات ـ هن أم الكتاب ـ وأخر متشابهات . فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ﴾. فهذا يدل على أن القرآن فيه متشابه لا يعلم تأويله إلا الله . وهذا معناه أنه غير بيّن .. فكيف يكون فى آية النحل ﴿ عربى مبين ﴾ وفى آية آل عمران ﴿آيات متشابهات... وما يعلم تأويله الا الله ﴾ مع أن المبين هو الذى لا يحتاج إلى تأويل؟..]

[والجواب]

[إن المبين هو اللفظ الذى دل على معناه الموضوع له، ولاشك ان اللفظ المشتابه كلفظة « اليد » فى قوله تعالى ﴿يد الله فوق أيديهم ﴾ دل على المعنى الموضوع له وهو الجارحة المخصوصة إلا أن هذا المعنى لايصح أن يراد لاستحالة الحدوث عليه تعالى، فيلزم أن يفوض فيه الأمر إلى الله الذى يعلم تأويله . وذلك رأى السلف .]

[أو يراد من اليد غير المعنى الموضوع له لعلاقة بينهما ، وذلك المعنى هو القدرة . وذلك رأى الخلف . وحينئذ خرج لفظ اليد من المتشابه ورجع إلى المحكم كما يشير إلى ذلك التعبير بلفظ « أُم » فى قوله تعالى « هن أُم الكتاب » أى اصله . بحيث يرجع ما فيه من المتشابه اليها ، وعلى هذا فالمتشابه عربى مبين ، وإن لم يكن المعنى الموضوع له مراداً .]

[كما استشكل « هاشم العربى » نزيل البلاد الإنكليزية فى « تذييله » للفصول الثلاثة الأولى من كتاب المستشرق الأنجليزى « جرجس صال » فقال بعد ما ذكرناه «إن التناقض فى القرآن يظهر أيضاً فى قوله تعالى ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾ (الاسراء ـ ١٦) فهو يناقض

قوله ﴿ إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ وقوله ﴿ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ﴾ .]

[أ - فالآية الأولى تفيد الأمر بالفسق ﴿ أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ﴾ فتناقض الآية الثانية .]

[ب - وتدمير من لم يفسق من أهل القرية . يناقض الآية الثالثة ، .]

[والجـواب]

[أ - ، ان المأمورية فى الآية الأولى ليس هو الفسق كما زعم . بل المأمورية هو الطاعة . وتقدير الكلام .(أمرنا مترفيها بالطاعة ففسقوا) ، كما تقول : أمرت فلانا فعصانى ، ولنا أن نقول : إن الأمر بالفسق مجازى . والمعنى . صببنا عليهم النعم ، وافضناها عليهم فبطروا وفسقوا .كأن الفسوق من حيث كونه ناشئا عن نعمة الله التى أدتهم الى البطر - مأمورية .]

[أو نقول - معنى أمرنا ، أكثرنا ، . ويكون المعنى ﴿ إذا أردنا إهلاك قرية أكثرنا المترفين المطيعين لهواهم . ففسقوا . فأهلكناهم ﴾ ومن ذلك قوله ﷺ . ، خير المال سكة مأبورة ، ومهرة مأمورة ، (أى كثيرة النتاج) .]

[وعلى كل تفسير من هذه التفاسير ، فإن غير المترفين الذين لم يفسقوا استحقوا الإهلاك لعدم اعتزالهم الفاسقين ورضاهم بفسقهم .]

[وقد قرىء ، أَمَّرنا ، بمعنى جعلنا أمراءهم مترفين فأدى حكمهم إلى الهلاك . وما قيل من قبل يقال هنا .]

[كما استشكل الكاتب بقوله تعالى ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾ فقال : إن نجاة فرعون من الغرق يناقض قوله سبحانه فى سورة الإسراء ﴿فأغرقناه ومن معه جميعاً ﴾ وفى سورة الزخرف ﴿ فأغرقناهم أجمعين ﴾ حيث أنهما لا تفيدان نجاة فرعون بل إغراقه]

[الجواب]

[أن الآية لا تفيد النجاة بعد قوله تعالى ﴿ حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت ﴾ . بل تفيد اليأس من النجاة لتوبيخه بقوله ﴿ آلآن وقد عصيت قبل ﴾ .]

[نعم فى الآية وعد بأن جثته لا تصل إلى قاع البحر كغيره بل تلقى على الساحل لتكون عبرة لمن يأتى بعده ، بدليل قوله ﴿ لتكون لمن خلفك آية ﴾ بمعنى أن الله يجعله عبرة لمن يعتبر فليست النجاة إلا للجثة التى هلكت غرقاً كما هو واضح من السياق .]

[وقد ذكر الكاتب آيات مثل هذه وتحدث عن النسخ فى القرآن باعتباره ظاهرة للتناقض ، وقد صدر لى كتاب « النسخ فى الشريعة الإسلامية كما أفهمه » رددت فيه كل دعوى للنسخ فى أى آية (1)]

[النبى الأمى]

لقد انفق [النبى] خمسة عشر عاماً كاملة فى إرساء أسس نظامه الدينى ، وبرع فى إعلانه بوضوح مثل فلق الصبح ، وفى إخفاء اليد التى تربط مصائر الناس بالسماء وتظاهر بأنه لا يعرف القراءة والكتابة ، واعتمد على فصاحته الطبيعية ، وعلى مواهبه المتدفقة التى لم تخنه أبداً ، وتصنّع لهجة النبى المؤثرة . فقد كانت « إجيرى » Egérie هى التى تقوم بإلهام الملك الأسطورى «نوما» Numa (ملك روما) فاختار محمد الملك جبريل معلما له .

[تعقيب]

[والعجب أن يقول الكاتب هذا فى القرن الثامن عشر الميلادى بعد مضى اثنى عشر قرناً على الرسالة . وقد تحدث القرآن عن النبى فوصفه بأنه ﴿ النبى الأمى ﴾ وتلقى العرب - الذين عاصروا النبى وكانوا فى مقام التحدى والعناد ، وكانوا يتلمسون السقطات - خبر أميته هذا بالقبول . ولم ينكروا ذلك عليه لأنهم يعرفونه أمياً كما يعرفون أنفسهم . فهذا الإتهام من الكاتب للنبى بأنه كان يتظاهر بالأمية فقط ، إتهام ينقضه اجماع الخصوم والأصحاب فى عهد نزول القرآن ، وفيما بعد نزوله على أنه «النبى الأمى» ، فهذا من الحقائق المتواترة تواتر العلم بوجود مدينة مكة وباريس .ومنكر الأخبار المتواترة اما جاهل شديد الجهالة أوغبى . أو معاند للحقيقة .]

---

(1) [ثبات الايمان ص ١٢٨ - ١٤٣ .]

[فنلى يعظم النبى ويتهم]

[قال « فنلى » « قد ينحرف المؤرخ عن موضوعه ليتأمل حياة رجل نال سلطة خارقة على عقول أتباعه وأعمالهم ، ووضعت عبقريته أساس نظام دينى سياسى مازال يحكم الملايين من البشر من أجناس مختلفة وصفات متباينة . إن نجاح محمد - كمشرع - بين أقدم الأمم الأسيوية . وثبات نظامه مدى أجيال طويلة فى كل نواحى الهيكل الاجتماعى ، لدليل على أن ذلك الرجل الخارق قد كونه مزيج نادر من كفايات ليكورغوس والاسكندر »]

[هكذا يظهر فنلى رسول الله فى مظهر العبقرى الذى نسج الدين من فكره برحيق عبقريته . وقد اسلفناالرد على هذا بأن القرآن الذى جاء به النبى إنما يحمل دليل تصديقه ﷺ بما فيه من إعجاز . تضمن النص على أن محمداً رسول وما يأتى به ﴿إن هو إلا وحى يوحى﴾ .]

[ونضيف الى هذا أن العبقرى - بل وكل إنسان - لا يجد عظمته الشخصية فى أن يطفىء بريقها الذاتى ويحجبها باسناد كل مصادر الإضاءة والبريق إلى آخر . فهذا مما يدافى طبائع الأشخاص . إنما يتهرب المرء من العمل السيء أو الرديء فينفيه عن نفسه وينسبه إلى غيره .. ولو أن هذا العمل العظيم - وهو الإسلام - صنع رجل لافتخر بنسبته إلى نفسه فقط .. فكيف ومحمد ﷺ قد نسب كل عظيم إلى ربه ﴿ إن أنا إلا نذير مبين ﴾ ﴿ قل ما كنت بدعا من الرسل ﴾ .]

[ثم إن ليكورغوس والاسكندر خمد ذكرهماوانطفأت آثارهما ، وخلد محمد ودينه يضيئان للبشرية . فلو كان محمد مزيجا ليكورغوس والاسكندر لانطفأ تاريخه وتعاليمه، كما انطفأت تعاليم وتاريخ الرجلين . ولكن صدق الله العظيم ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .]

[كازيميرسكى والأمية]

[كتب كازيميرسكى البولندى ، ترجمته للقرآن بالفرنسية ووضع لها مقدمة فى تاريخ الرسول . وأنكرأن النبى كان أمياً يوحى اليه القرآن وقال : « من المحتمل أن يكون فعل ذلك ليظهر أمام قومه فى صفة رجل موحى إليه من السماء [1]، ثم قال :

(١) [خاتم النبيين ص ٩٧ .]

« لقد اقتبس محمد فقرات من الكتاب المقدس ضمنهاالقرآن وأوردها مشوهة إذ أن بعضها يخالف التوراة » ٠]

[الرد على كازيميرسكى]

[إن مخالفة القرآن للكتاب المقدس فى بعض الفقرات ناشيء عن تحريف الكتاب المقدس عبر القرون ، ولو كان النبى قد تلقى هذا عن مخالطيه من النصارى أو اليهود لما وقعت هذه المخالفات . فما سماه تشويهاً هو الدليل على عدم التلقى من البشر . ودعوى أنه عليه السلام كان قارئاً قلنا إنها باطلة لإجماع خصومه على تصديقه فى دعوى أميته وقد كانوا مخالطيه . ثم ماذا يضير الرسالة الاسلامية لو كانت منقولة عن الكتب السابقة مادامت قد أصبحت افضل من المنقول عنه من حيث نضج القضايا التى تعرضها ومن حيث صحتها وتكاملها وشمولها وعمق النظرية ؟ أليس هذا الرجحان فى مزايا الجديد جديراً بأن يوجب علينا الإيمان به والالتزام له والمنافحة عنه . ؟]

[إثبات أمية النبى]

[استدل الأستاذ الإبيارى على أمية الرسول بالآتى(١) :

[١ – لقد اتخذ النبى كتّاباً للوحى كأبى بكر والأرقم بن أبى الأرقم وشرحبيل بن حسنة وعلى بن أبى طالب ثم خالد بن الوليد ومعاوية بن أبى سفيان وعبد الله بن الأرقم وغيرهم . ولو كان كاتباً ما احتاج إليهم .]

[٢ – فى غزوة أحد أرسل العباس بن عبد المطلب إلى النبى خطابا مع رجل من بنى غفار فاستقدم النبى أبى بن كعب ليقرأ له الخطاب ، فلما انتهى أُبى من قراءة الكتاب استكتمه النبى الخبر . ولو كان النبى يقرأ ما ورط نفسه فى استدعاء أُبى ليقرأ له سراً خطيراً .]

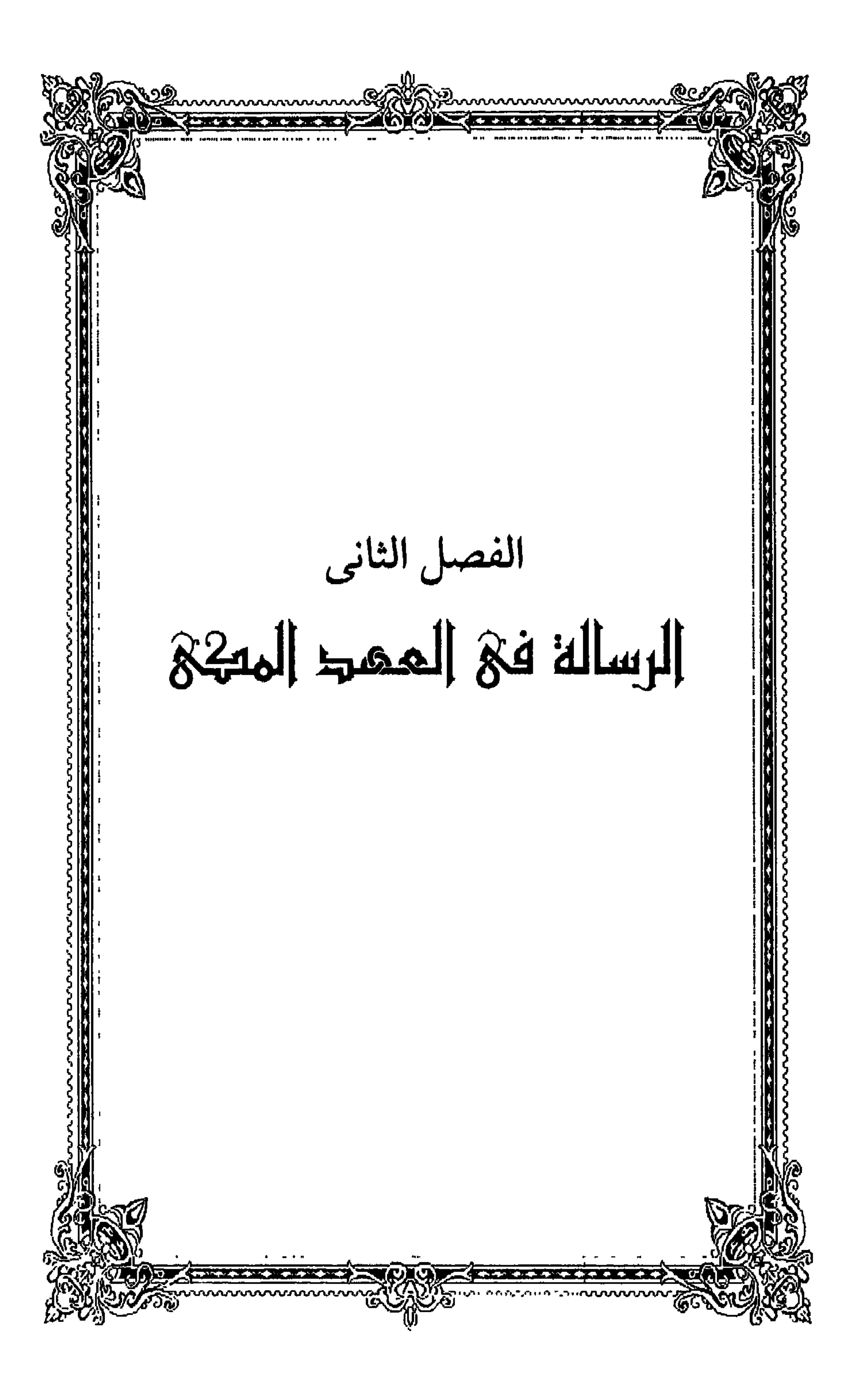
[٣ – وفى عام الوفود ، جاء وفد ثقيف ليبايعوا النبى ، وسألوه أن يكتب لهم كتاباً فيه شروط تريحهم . فقال النبى ﷺ « أكتبوا ما بدالكم ثم ائتونى به » فذهبوا إلى على يسألونه أن يكتب لهم كتاباً يعرضونه على النبى ، وطلبوا منه أن يذكر فيه إباحة الربا والزنا لهم . فأبى على أن يكتب ذلك فذهبوا إلى

(١) [تاريخ القرآن لابراهيم الابيارى ص ٤٧ - ٤٩ دار القلم .]

خـالد بن سـعـيـد بن العـاص كى يكتب لهم فكتب مـا أملوه عليـه تاركـاً للنبى التصـرف . ثم ذهبوا بالكتاب إلى النبى وقرأ القارىء الكتاب عليه ـ فلما انتهى الى الربـا قـال رسـول الله ﷺ ، ضع يدى عليـهـا فـوضـع يده ، فـقـال ﴿ يأيـهـا الذين آمـنوا اتقـوا الله وذروا مـا بـقى من الربا ان كـنتم مـؤمنين ﴾] . ثم مـحـاهـا وأمر بالكتاب أن ينسخ بعد ما شطب .]

[٤ – وفضلاً عن هذا ، فالقرآن وهو حـجة الحجج ـ ذكر هذه الأمية فقال﴿ الذين يتـبـعـون الرسول النبى الأمى ﴾ . واسـتـدل على إعـجـاز القـرآن بدليل الوقـوع المعروف لدى المخـاطبين فى عـصـر النبى فقال ﴿ ومـا كنت تتلو من قبله من كـتـاب ، ولا تـخـطه بيـمـيـنك ﴾ وقـد كـانت الأمـيـة هى الظاهرة السـائدة فى المجتمع . ولم يكن بالمدينة كلها من الكتاب إلا بضعة عشر كاتباً منهم سعد بن زاره والمنذر بن عـمـرو وأبـى بن وهـب وزيـد بن ثابت ورافـع بن مـالك وأوس بن الخـولى . فكان الكاتب مشهوراً فـى عصـره . ولو كان النبى كـاتباً لما جـهـل العرب المخالطون له ذلك ، ولكذبوا القرآن فى دعوى الأمية .]

* * *



الفصل الثانى

الرسالة في العهد المكي

الفصل الثانى

[الرسالة فى العهد المكى]

[بدء الوحى]

عام ٦٢٠٦ من هبوط آدم ـ حسب تقدير أبي الفداء = عام ٦٢١ م ـ ١٣ ق.هـ ـ ٤٠ من ميلاد محمد .

بلغ مشرع الجزيرة سن الاربعين . وهو الوقت الذى كان قد اختاره [؟!] ليعلن فيه عن مجيء بعثته ، فأنعزل حسب عادته فى غار جبل حراء ، وفى صحبته بعض الخدم [؟!]، فقد جاءت الليلة التى توجت حياته بالمجد ، حسب تعبير أبى الفداء (١) . فنزل جبريل من السماء وقال له « إقرأ (٢) . قال : ما أنا بقارى ء . قال الملك : إقرأ بأسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق [النص الفرنسي : من التقاء الجنسين] إقرأ وربك الأكرم (الجدير بالعبادة) الذى علم بالقلم (استخدام القلم) . علم الإنسان مالم يعلم .» وضع فى قلبه شعاع العلم » .

فأنشد [؟!] محمد هذه الآيات . وتقدم خطوات نحو وسط الجبل(٣) ، فسمع صوتاً من السماء يردد هذه العبارات « يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل » ووقف يتأمل حتى اللحظة التى اختفى فيها الملك عن نظره .

[تعقيب على دعوى أن القرآن شعر]

[لم يخف على القارىء سوء قصد المستشرق من اختيار لفظ « مشرع الجزيرة » عند ذكر النبى وهكذا يجب ألا يخفى قصده السيء من عبارته « فأنشد محمد هذه الآيات ..» وكأنه يردد مع كازيميرسكى قول الجاهليين من العرب الأولين .. أن القرآن شعر ينشده محمد .]

[وقد رد القرآن عليه وعلى أمثاله هذا الاتهام فقال :« وما علمناه الشعر وما ينبغى

---

(١) أبو الفدا ص ١٤ . [١/١١٧].

(٢) القرآن سورة العلق الاية الأولى وما بعدها .

(٣) أبو الفدا . ص ١٥، ١٦ [١/١١٧].

له﴾ . ذلك أن مقام الزعامة السياسية والاجتماعية ، والتبعات الملقاة على كاهل الزعماء السياسيين والاجتماعيين لا تسمح لهم بالتحلق فى آفاق الشعر والشعراء ، كما أن الشعر ليس الأسلوب الطبيعى للحقائق والمعارف التى يقتضيها الإصلاح الاجتماعى والسياسى ، فما بالنا بمقام النبوة، وهى قمة الاصلاح السياسى والاجتماعى والعقدى ؟! بل أن عباقرة الشعر كلُبيدْ حين سمعوا القرآن لم يجدوا للفصاحة معه مقاماً فتركوا قريضهم .]

[وقديماً اقترح ترويج هذه الإشاعة ، فقال الوليد بن المغيرة للمقترحين ..«لقد عرفت الشعر هزجه ورمله وقصيره ومديده ، والله ما هو بشعر » ولا شك أن الوليد العربى المكى أعلم بالشعر العربى من سفارى ؟) .]

[دعوى وجود خدم بالغار]

[وما زعمه سفارى من وجود خدم للنبى يصاحبونه فى غار حراء .. منقوض بأمرين :]

[أولهما

[أن غار حراء ليس فقط قصراً أو متنزهاً يتسع للخدم ، ولكنه كهف صغير لا يتسع لإيواء أكثر من فرد واحد ، ولا يتسع لأعمال خدمة ، ولا حوله زروع أو محال تجارية يتزود منها الخدم بما يحتاجه سيد مخدوم .]

[ثانيهما :

أن طبيعة الخلوة عمل رياضى روحى يتنافى مع مظاهر الخدمة والرفاهية ، ولكن الكاتب رأى أن يضفى على محمد صورة الملوك الجاهليين كأمرىء القيس فى رحلاته للصيد ، ليضع « محمداً » فى الجو الذى يهيئه لحوار الإتهام بطلب الملك والاعداد له .. وهذا هو التهافت المزرى بالمؤرخ المغرض .. ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم . والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ (الصف : ٨)]

[السابقون إلى الإسلام]

[خديجة :]

لم يكن لمحمد صاحب يعرف سره . فلم يكن هناك بد من تصديق كلامه [هكذا ينسى المستشرق من ذكرهم من الخدم الذين زعم آنفاً أنهم كانوا معه فى الغار] .

وتوجه [ﷺ] فى بدء الأمر إلى زوجته وأثر بسهولة على عقلها بعد أن كان قد ملك قلبها ، وقص عليها ما شاهده ، ولم ينس أى ظرف من الظروف الجيدة التى لازمت هذا المشهد فقالت له خديجة : « إن ما تخبرنى به لبشير بالخير (١) ، والذى نفسى بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة ».

وبعد أن علمت هذا السر من محمد ، ذهبت على الفور لتفضى به إلى قريب لها يدعى « ورقة » ، كان يعكف على دراسة الكتب المقدسة ، وكان على علم بكتب اليهود والنصارى، فأيد رأيها وأكد لها أنه سيكون نبى العرب [؟] فأثلجت هذه الشهادة صدرها ، ولم تستطع الإمتناع عن أن تقصها على زوجها .

[على ابن أبى طالب]

كانت خديجة أول من آمن برسالته وأول من اعتنق الإسلام (٢) ، ولم يقم محمد بإثارة أية ضجة فى أول أمره ، وأنما اتبع الطريق التى رسمها لنفسه خطوة خطوة ، وبكل أدب.

وبعد إسلام خديجة وجه نظره إلى علىّ الذى كان أحد أبناء عمه أبى طالب ، وتكفل به محمد فى وقت اقفرت فيه مكة واشتدت بها المجاعة ، وظل منذ ذلك الحين يتولى تربيته فى بيته بعناية أبوية . ولما علم فى تلميذه طبعه الحاد وخياله المتدفق غذى فيه نزعاته الطبيعية ، وجعله جديراً بأن يكون فذاً فى مغامراته الحربية ، ولم يكن من العسير السيطرة على قلب كان محمد يملؤه بفضل إحسانه وإنعامه ، فصدق علىّ بقول محمد على الفور ، وأقسم أن يفدى عقيدته بالدم ، ولم يكن على قد جاوز الحادية عشر فى أشهر الآراء (٣) .

[تعقيب]

[هكذا أراد الكاتب التعليل لإسلام خديجة وعلىّ بأنه كان تأثيراً عاطفياً ، وقع نتيجة لدافع الحب من خديجة كما أنه ثمرة النعمة والإحسان إلى علىّ ، ومن المشهور أن علياً حين أراد الإسلام طلب منه النبى أن يتروى فى هذا الأمر ، ويستشير والده ، ولا يتعجل فقال على : ان الله حين خلقنى لم يستشر أبا طالب . فكيف استشير فى عبادة

---

(١) [أبو الفداء : ص ١١٧] أحمد بن يوسف « التاريخ » الجزء الاول الفصل التاسع .

(٢) ان كلمة إسلام مشتقة من فعل (أسلم) وليس معناها كما يقول الدكتور « بريدو Prideaux (ص٢) « الدين الذى يخلص » وإنما معناها « الاستسلام لله ».

(٣) مؤلف كتاب السيرة [وفى أبى الفداء كان علي في التاسعة وقيل في العاشرة وقيل الحادية عشر جـ١ ص١١٨.]

الذى خلقنى انسانا من الأناس حتى ولو كان أبى ؟! وهذا يدل على أن عليا لم يتابع ابن عمه إلا على بينة من الأمر . كما أن خديجة لم تتابعه إلا عن اقتناع .]

[زيد بن حارثة]

وقرر محمد ألا يترك كافراً داخل بيته . ولما كان « زيد بن حارثة» عبداً يبشر بمواهب عظيمة ، فقد ربطه محمد إلى شخصه برباط الدين الوثيق ، وآمن زيد بفرحةوبهجة برسالة سيد كان ينتظر منه الحرية،ولما اعتنق الإسلام اعتقه « محمد » .

[أبو بكر الصديق]

وكان أبوبكر (١) مواطنا ذا نفوذ فى مكة ، مشهوراً باستقامته وبثرواته ، فشرع محمد يعمل على إسلامه ، اعتقادا منه أنه جدير بأن يعطى قوة لدينه الجديد ، وتوج النجاح مجهوداته، وأصبح أبو بكر من أقوى أنصار الإسلام ، لقد كان إسلامه نصراً كبيراً ، فحمل أبو بكر بين أصدقائه شعلة الإيمان التى ملأت صدره وأخضع بها الكثيرين ، وقدم إلى النبى عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، آمن الجميع واعتنقوا الإسلام ، وكانوا الرعيل الأول للديانة المحمدية ، وتبعهم كثيرون غيرهم ، وغمر الفرح محمداً عندما رأى أبا عبيدة وسعيد بن زيد وعبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وقد اضموا تحت لوائه (٢) .

[الإعداد السرى للرعيل الأول]

ولقد كان عدد اتباعه قليلاً حتى ذلك الوقت ولكن شرف نسبهم وثرواتهم ومواهب الكثير منهم .. كل ذلك داعب قلب « محمد » بالأمانى المعسولة [!] ، ولكنه كان ضعيفاً، فلم يكن فى استطاعته أن يكشف عن نفسه ، وقرر ألا يظهر إلا أمام المؤمنين، تفرغ لتعليمهم ، ولتثبيت إيمانهم ، وطوال أعوام ثلاثة حرص على أن تظل دعوته واهدافه الواسعة تحت ظلال من السرية ، ولما اعتقد انه يستطيع ان يعتمد على الطاعة العمياء [؟!] من المؤمنين الجدد ، أعلن عن نزول وحى جديد ، فظهر له جبريل ، وأمره بأن يدعو عشيرته ، وأن يستحثهم على الإسلام فنادى علياً ، وقال له :« أعد لنا وليمة ، وهيىء لنا حملاً مشوياً ، واملأ إناء كبيراً

---

(١) كان اسم أبى بكر « عبد الكعبة » « فغيره إلى اسم « عبد الله » . ولما زوج ابنته عائشة من النبى حمل بعد ذلك اسم « أبو بكر » تشرفاً بهذا الزواج . (ومعناه أبو الفتاة البكر .)

(٢) أبو الفدا ص ١٨ [١/١١٨].

باللبن ، وادع بنى عبد المطلب ، فقد حان الوقت الذى أعلن إليهم فيها إرادة السماء .»

[التعقيب]

[هكذا بأسلوب التآمر الاستعمارى الذى يعيش فيه الكاتب ، أراد أن يفسر تاريخ حركة الإنقاذ والهداية السامية حين اخذت دور السرية] .

[والحقيقة أن النبى ﷺ فى مرحلة الدعوة السرية لم يكن يبغى تربية جنود له على الطاعة العمياء لذاته ، بل كان يريد تربية جنود مستنيرين بدعوتهم ، يعرفون أبعاد ورسالتهم وأصولها ومراميها ، فأخذ يدربهم على تطبيقها حتى يكونوا صورة حية تعبر عن هاتيك المبادىء التى جاء بها رسول الله ﷺ - شاملة كل جوانب الحياة ، وكل ما بين جوانح الانسان . فهذه السنوات الثلاث لم تكن للتخفى ، ولكنها للتفرغ أو « مرحلة التدريب والإعداد » بلغة العصر - للانطلاق بالرسالة علماً وعملاً على أوسع نطاق على المستوى العالمى .]

[وفى هذه المرحلة لم تتوقف الدعوة الفردية . وإنما الذى طرأ عليها فى المرحلة الثانية هو إضافة العمل بأسلوب الدعوةالعامة أو ما يسمى بالدعوة الجماهيرية التى يقصد بها تهيئة الرأى العام لتقبل هذه التعاليم ، والكشف من خلالها عن الملكات اللامعة وعن ذوى الاستعداد للعمل المتتابع من أجل الدعوة ، كيما يبذل لهم مجهود خاص ، فيمروا بمرحلة الدعوة الفردية التى لا يتم - إلا من خلالها - بناء رجال الدعوات وأصحاب المبادىء .]

[بل أن الطاعة العمياء التى زعمها الكاتب مرض اجتماعى جاء النبى لحربه ، بل هو ماجاءت رسالة الإسلام لعلاجه ، وفى السيرة النبوية ، وفى الحديث الشريف أمثلة تدل على هذا بوضوح ، ففى غزوة بدر حين أمر النبى أصحابه بالنزول فى مكان حدده لهم قال له أحد الجنود : « يا رسول الله أهذا منزل أنزلك الله . أم هوالحرب والمكيدة ؟ » قال له النبى ﷺ :« بل هو الحرب والمكيدة » قال الرجل :« إذن ليس هذا بمنزل . وإنما يجب أن ننزل بدراً فنغور المياة حتى تصب عندنا جميع مياة المنطقة . فان جاء العدو لم يجد ماء ، فنشرب ولا يشربون ، ونرتوى وأعداؤنا من الظمأ يهلكون » . فأقره النبى ﷺ وأمر أصحابه أن ينتقلوا إلى حيث أشار الجندى . ولم يستبد برأيه ، ولم يكن من الجند - كما ترى -

طـاعة عميـاء].

[وأخرج النبى بعثاً ، وقال قائده لمن معه : « اجمعوا حطبا » ، فجمعوا له الحطب. فأشعل فيه النار ، وطلب من جنده أن يتفحموا فيها قائلاً : « أليس الله أمر بطاعة الأمير؟» فلم يطيعوه الطاعة العمياء بل خالفوه واحتكموا الى النبى فقال لهم ﷺ : «لودخلتموها ما خرجتم منها. إنما الطاعة فى المعروف » أى أنها ليست طاعة إلا فى حدود الدستور الإلهى .]

[فهذان مثلان يصرخان بأنه ليس فى الإسلام طاعة عمياء ، ولا كان الرسول يدرب اصحابه عليها ، وإنما علمهم الطاعة فى المعروف .]

[الدعوة العامة]

عام ٦٢٠٧ منذ هبوط آدم - حسب تقدير أبي الفداء

- ٦٢٢ م - ٩ ق .هـ - ٤٤ من ميلاد محمد

أطاع على أمر الرسول فأعد وليمة وبلغ عدد المدعوين الأربعين ، وجميعهم من أقارب أبى طالب [عشيرة النبى الاقربين] وأكلوا حتى شبعوا . وعند انتهاء المأدبة، أراد محمد أن يتحدث إليهم وبدأ يكلمهم عن دعوته الجديدة . إلا أن أبا لهب لم يرقه هذا الاستقبال وقاطعه وهو يقول بخبث : « لقد طال احتجازك لضيوفك ، فهلا كففت عن استغلال تسامحهم ؟!»

بهذه الكلمات تفرق الجمع ، ولكن هذه المصادمة لم تثبط همة محمد وقال لعلى : [أرأيت كيف سبقنى هذا الرجل الى الكلام : فاصنع لنا فى غد كما صنعت اليوم واجمعهم ثانياً]

فنفذ على أمر محمد ، وحضر آل عبد المطلب المأدبة وما أن فرغوا من طعامهم حتى وجه إليهم محمد العبارات الآتية : -

[ما أعلم انساناً فى العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به . قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرنى الله تعالى أن أدعوكم إليه . فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر ، على أن يكون أخى ووصيى وخليفتى (١) فيكم ؟ (أضاف النص الفرنسى « ويكون

---

(١) كلمة خليفة « مشتقة من « خلف » وهو اللقب الذى اتخذه من خلف محمداً ، ولكن علياً ، بالرغم من =

وزيرى (١) ويكون قائد جيشى ، وهى زيادة مفتعلة لم يذكرها أبو الفداء (٢) .]

دهش المدعوون من هذا الحديث ، فالتزموا الصمت ، ولم يجرؤ أحد على أن يعلن عما فى طوية نفسه ، فاغتاظ على ونهض قائلاً : «يا رسول الله أنا هو سوف أشاركك أعباءك ، وسوف أنزع عيون أعدائك ، وسوف أحطم أسنانهم وأشق صدورهم » (٣) ... لم يفاجأ محمد بهذا الاندفاع . فقبل علياً وقال على مسمع من الحاضرين : « هذا هو أخى وقائد جيشى وخليفتى اسمعوا له وأطيعوه . »

انفجر الجميع بالضحك ، والتفتوا إلى أبى طالب قائلين : عليك من اليوم أن تتلقى الأمر من ابنك وأن تدين له بالطاعة .

[تعقيب]

[وهكذا يحرص الكاتب منذ البدء ، وفى خواتيم الكتاب على إبراز الرسول وصهره ودينهما فى صورة المحارب وفى صور وحشية ، ولهذا أضاف الكاتب من نسج خياله الكاذب قوله « وقائد جيشى »]

[والقصة لم يصح منها إلا دعوة عشيرته الأقربين . أما ما جاء بشأن على بن أبى طالب والوصية له ، فهو من خيال فسقة الشيعة حينما لعبت بهم الأهواء السياسية وقد ردده أيضاً درمنجم فى كتابه (٤) . ومن البدهى أن النبى لو أراد أن يوصى بالإمارة على قوم فإنما يوصى بذلك عند ما يكون القوم داخلين فى طاعته وله عليهم حق الولاء ... أما والأمر هكذا ... حشد لكفار يناصبونه العداء ... فإن الوصية لا مكان لها .. فكيف يطلب النبى إلى

=اختياره ، لم يحمل لقب خليفة إلا بعد أبى بكر وعمر وعثمان ، ولقد اثار هذا الظلم [؟!] . الشقاق بين الفرس والأتراك ، فالفرس ينظرون الى الخلفاء الثلاثة الأول علي أنهم مغتصبون ولا يمنحون لقب الخليفة الا لعلى ، بينما العثمانيون يتمسكون بالعكس ، ومن هذا الخلاف نشبت حروب مزقت الامبراطوريتين .[والكاتب يعني بالفرس الشيعة ، ويعني بالأتراك اهل السنة] .

(١) كلمة « وزير » معناها « مستشار » ولقد كان على أول من حمل هذا اللقب الذي يطلقه العثمانيون علي الضابط الاول للتاج .

(٢)[أبو الفداء ١/١١٩]

(٣) أبو الفداء ١٩ -[(١/١١٩)] .

(٤) [حياة محمد لدرمنجم ص ٩٢ ط ٢] .

خصومه قبول زعامة غلام فى الطفولة الناضجة. ان الذين وضعوا قصة الوصية هذه .. بلهاء .. ولا يقبلها إلا أخرق .]

[ثم قال سفارى :]

لم توهن هذه البداية غير السارة من عزيمة الرسول الجديد ، فقد كان رابط الجأش، وطفق يتقدم بخطى ثابتة نحو تنفيذ ما نوى . واستمر فى استمالة أقاربه وأصدقائه للدين الجديد ، وشرع يرعد الوثنية ويصعقها ببلاغته الغلابة ، فارتعد الشعب إشفاقاً على آلهته، وخشى الأشراف على سلطانهم ، وكان الحقد ثمار جهد محمد ، فهجرته عائلته ، ولم يبق على الوفاء له إلا أتباعه وحدهم .

[هل حقاً لم يناصر النبى أقرباؤه ؟]

[ان الكاتب يفترى الكذب ، فقد كان من عشيرته عليه السلام من ناصره ووقف إلى جواره كعلى بن أبى طلاب وجعفر وحمزة . بل وأبو طالب نفسه بالرغم من عدم إشهاره الإسلام .]

[وإنما جنح الكاتب إلى هذه الفرية لينفى ما قاله المنصفون من المستشرقين فى مزية إسلام بعض أقاربه . فقد قال الكاتب الإنجليزى المشهور « هـ . ج . ويلز » : « إن من أقوى الأدلة على صدق محمد كون أهله وأقرب الناس اليه يؤمنون به ، فقد كانوا مطلعين على أسراره ، ولو شكوا فى صدقه لما آمنوا به (1) » .]

[وقال المستشرق « ادوار مونييه » إن مما يملأ الباحث إعجاباً بخطة محمد الدينية أنه فى بدء نشاطه كان أول المؤمنين به هم من بين أسرته وأقاربه ، واننى لأعتقد ان محمداً هو الوحيد بين مؤسسى الديانات الذى امتاز بأن يضم - أول ما يضم - اقرب الناس اليه برباط الدم ، او رباط القرابة القريبة (2) ».]

[وقد قال « فولتير » « إن الرجل لا يكون عظيماً فى داخل بيته .

(1) [المستشرقون والاسلام لزكريا هاشم زكريا ص ٢٧ ط ١٩٦٥ - ١٣٨٥].

(2) [المستشرقون والاسلام ص ٥٥٣ .]

ولابطلاً فى أسرته ، يريد أن عظمة المرء لايعترف بها من هو أقرب الناس إليه ، لاطلاعه على دخيلته فى مباذله . وهذا الحكم يشذ عنه أمر الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ويقول ، باسورث سمث ، : ، ان ما قيل عن العظماء فى مباذلهم لا يصح ـ على الاقل ـ فى محمد رسول الإسلام ، ، واستشهد بقول (كبن) : ، لم يمتحن رسول من الرسل أصحابه كما امتحن محمد أصحابه . إنه قبل أن يتقدم إلى الناس جميعاً تقدم إلى الذين عرفوه انساناً المعرفة الكاملة . فطلب من زوجته وغلامه وأقرب أصدقائه إليه ، وأحبّ خلانه أن يؤمنوا به نبياً مرسلاً ، فكل منهم صدق دعواه وآمن بنبوته ، وأن حليلة المرء أكثر الناس علماً بباطن أمره ، ودخيلة نفسه ، وألصقهم به ، فلا يوجد من هو أعرف منها ببهتانه ونقائصه ، أليس أول من آمن بمحمد رسول الله زوجه الكريمة التى عاشرته خمسة عشر عاماً ، واطلعت على دخائله فى جميع أموره وأحاطت به علماً ومعرفة ، فلما ادعى النبوة كانت أول من صدقه فى نبوته ،]

[إن أعظم الناس لا يأمن لزوجه ـ وإن كانت له زوج واحدة ـ بأن تحدث الناس عن جميع ما تراه من حليلها ، وأن تعلن كل ماشاهدته من أحواله ، لكن رسول الله كانت له فى وقت واحد تسع زوجات ، وكانت كل منهن فى إذن من الرسول بأن تقول عنه للناس كل ماتراه منه فى خلواته ، وهن فى حل من أن يخبرن الناس فى وضح النهار بكل مارأين منه فى ظلمة الليل ، وان يتحدثن فى الساحات والمجامع بما يشاهدن منه فى الحجرات ، فهل عرفت الدنيا رجلاً كهذا الرجل يثق بنفسه كل هذه الثقة ويعتمد عليها الى هذا الحد ، ولا يخاف قالة السوء عنه من أحد لأنه ابعد الناس عن السوء .(١)..]

(١) [الرسالة المحمدية للسيد سليمان الندوى كبير علماء القارة الهندية فى هذا العصر ـ ترجمة محمد ناظم الندوى ص ٧٣ ط السلفية بالروضة بالقاهرة] .

[التوسط لوقف الدعوة]

ظل أبو طالب يساند فى الخفاء مصالح ابن أخيه الحبيب إلى نفسه ، وجاءه زعماء قريش ومن بينهم « عتبة » و « أبو سفيان » و « أبو جهل » وغيرهم من صفوة كبراء القبيلة [هكذا أراد الكاتب بلفظ القبيلة تصغير شأنهم - فهم من زعماء مكة بل والعرب - وفي الغض من شأنهم غض من شأن ما لقيه النبي من عسف واهتمامات .]

وخاطب هؤلاء أبا طالب بهذه الكلمات : « يا أبا طالب . إن ابن أخيك يسفه آلهتنا. ويتهم شيوخنا الحكماء بالجهل ، ويدعى أن آباءنا عاشوا فى الضلال المبين . أوقف زيغه وقاوم طموحه خشية أن يدب الخلاف ، ويضطرب السلام الذى نعيش فيه (١) ».

بدا التأثر على أبى طالب من هذه الشكوى ، ورد على المندوبين بعبارات لطيفة ، ووعدهم بوضع حد لعنف ابن أخيه .

[تعقيب]

[هذا ما قاله سفاري . ولكن هل نقل سفارى هذه العبارة عن أبى الفداء (أوقف زيغه وقاوم طموحه) ؟ ! إنها زيادة أقحمها الكاتب زوراً على أبى الفداء الذى ينسب إليه الكلام . أراد أن يوحى بها إلى القارىء أن كبار قريش وقع فى روعهم أن دعوة محمد ﷺ صيحة طامع ذى مآرب شخصية ... والحق انها لم ترد على ألسنتهم ، وما كان محمد ﷺ موضع اتهام بهذا بين العرب الذين يعرفونه ، وإنما النص كما رواه ابن هشام وأبو الفداء « مشى رجال من أشراف قريش إلى أبى طالب فقالوا : « يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا . فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه ... » (تهذيب سيرة ابن هشام ص ٦٩ وأبو الفداء

---

(١) أبو الفداء ص ١٠ -[(١١٩/١)] .

جـ١ ص ١١٩)] .

[تشبث النبى بالدعوة]

كانت هذه المواقف بلا جدوى ، وشدد محمد حملته على الوثنية ، وأثبت بطلان عبادة الأوثان ، وضلال من يعبدونها ، وكانت خطبه تحمل لمحات من النور الساطع ، فتبدد الظلمات الكثيفة التى كان الشعب يرزح تحتها ، وانزعجت قريش من ذلك ، وخشيت أن ترى زوال الدين الذى كانت تحميه ، وبدا لها أن النفوذ الذى تتمتع به فى ظل الأوثان بدأ يتزلزل ، فاجتمعوا للقضاء على الذى يقوض بنيانه ، وذهب رؤساؤها مرة ثانية لمقابلة أبى طالب وخاطبوه قائلين : « إذا لم تسكت ابن أخيك ، وإذا لم تكبح حماسته المتهورة [؟!] فإننا سنحمل السلاح للدفاع عن ديننا ، ولن تحول بيننا وبين عزمنا روابط الدم والقربى ، وسنرى فى أى جانب يكون النصر » .

[دعوي التهور]

[ليس في النص العربي ما ذكره « سفاري » من اتهام قريش للنبي « بحماسته المتهورة » ، فهي زيادة من الكاتب للإيحاء بأن حركة الإسلام كانت دفعة شباب ، وحماسة ذي طموح ، ليذهب بالسامع عن الصورة الحقيقية للداعي الذى كان المثل الأعلي في الحكمة والروية والصبر والمصابرة . فقد كان ﷺ شيخاً وقوراً في العقد الخامس من عمره .]

[واللفظ الذى قالوه كما في رواية ابن هشام « يا أبا طالب : إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا .. حتي تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك حتي يهلك أحد الفريقين] (١) .

خاف أبو طالب من هذه التهديدات ، وبادر بإبلاغها إلى محمد (٢) فتلقى منه هذا الرد

---

(١) [تهذيب سيرة ابن هشام ص ٧٠ .]

(٢) أبو الفدا ص ٢١ - [١/١١٩] .

العـزيز :« يا عم لو سلـحت قـريش الشـمس والقـمـر ضـدى ، ولو رأيت هذين الكوكـبين أحدهما عن يمينى والثانى عن يسارى . فإنى لن أتهاون فيما عزمت عليه » .

[هكذا فـي الأصل المتـرجم ، أمـا النص العـربـي فـقـد قـال رسـول الله ﷺ : « ياعم والله لو وضعوا الشمس فى يميني والقمر في يساري علي أن أترك هذا الأمر ما تركته حتي يظهره الله ، أوأهلك فيه [1] .]

ولما أيقن أبوطـالب أن الوعـد والوعيـد ليس لهـمـا أى سـلطان على قلب بمثل هذا التصميم، لم يستطع أن يمتنع عـن أن يقـول له : « وبماذا أجيب قـريشـاً ؟ أمـا من جـهـتى ـ ورغـم أنى استهجن سـلوكك [؟!] ـ فـانى أشـعـر أنى لن أتخـلى عنك أبداً مـهـمـا كـان القـرار الذى يتخذه أعـداؤك .»

[تعقيـــب]

[وهكذا يروي سفـاري علـى لسـان أبي طـالب (أني اسـتـهـجن سلوكك) وفى هذا افتراء علي التاريخ ،وعلي أبي طـالب الذي أعلن عند مـوته أنه يؤمن بصدق مـحـمـد : وما يمنعه من إعلان هذا إلا خشية اتهامه بالجزع من الموت ، ولا أدري كيف يعرض زعيم نفسه وقومه للخطر دفاعاً عما يستهجنه ؟ والنص العربي كمايرويه كتاب السيرة : فـقـال أبو طـالب : « إذهب يا ابن أخـي فـقل مـا أحـبـبت . فـوالله لا أسلمك إلى شيء أبداً[2] » .

[التفكير في مقاطعة المسلمين]

ومع ذلك فقد اجتـمعت القبيلة [قريش] وقررت مقاطعة جـميع من اعتنقوا الإسـلام إلا أن نفـوذ أبى طـالب وفر الحـماية لمحمد فـترة من الزمـان ، وحـال بينه وبين أن يدخـل فى الحظر العـام.

---

(١) [تهذيب سيرة ابن هشام ص ٧٠ وأبو الفداء ١/١١٩]

(٢) [تهذيب سيرة ابن هشام ص ٧١] .

[إسلام حمزة وهل للنبى قصر ؟]

ساقت الصدفة إلى النبى سنداً قوياً ، إذ كان قد انسحب إلى صرح [؟!] على جبل الصفا.

[هكذا أراد الكاتب - فى خبث - تصوير بيت محمد بسفح الجبل بأنه كالترسانة المسلحة ، وكالحصن المنيع ، وكبيوت كبار القوم ، فوصفه بأنه «صرح» أي قصر كبير ... والمعروف أنه كان بيتاً متواضعاً] [كما أن الكاتب قال : انه ﷺ « انسحب » والنبي لم يعرف الإنسحاب من الدعوة يوماً من الأيام] .

ولما قابل أبو جهل (١) محمداً أوسعه سباً وإهانة ، فالتزم محمد الصمت . وعلم حمزة (٢) أحد أبناء عبد المطلب - وهو معروف بشجاعته - ما أصاب ابن أخيه من شتم ، وكان عائداً من الصيد يحمل قوسه على كتفيه ، فتفجر غضبه وأسرع لكى ينتقم لابن أخيه . وذهب رأساً إلى حيث تجتمع قريش ، وما أن لمح أبا جهل حتى رفع قوسه وشج به رأسه قائلاً هذا جزاء أهانتك ابن أخى . نهض بنو مخزوم من فورهم واستعدوا لدفع العدوان . وإمعاناً فى التحدى أعلن حمزة إسلامه قائلاً :« أشهد أن محمداً رسول الله وأن ما جاء به حق من عند الله (٣) .»

---

(١) اسمه عمرو بن هشام ، وكنيته أبو الحُكْم -- بمعنى أبو الحكمة [والضبط العربي أبو الحكم بفتح الحاء والكاف] ولقد أدى حنقه علي محمد إلى تسمية النبى له « أبا جهل » يعنى « أبا الجنون» ولا ينطق المسلمون اسمه أبداً من غير أن يضيفو إليه « لعنه الله » .أبو الفداء (أنساب قريش) . ويخلطه « ماراكى » « بجهن » عم محمد بينما هما شخصان مختلفان [وليس في أعمام النبى من يسمى « جهناً » ولا « جهلا » كما زعم سفارى ولكن فيهم «جحل »] .

(٢) كان أبناء عبد المطلب : العباس وحمزة والحارث وجهل والمقوم ودراز وأبو لهب وأبو طالب « واسمه عبد مناف » والزبير وعبد الله (والد محمد) ، ولم يسلم منهم سوى العباس وحمزة (أبو الفدا - أنساب قريش - [١ ص ١١٤] [وبالرجوع الى «نسب قريش» للهذلى (١٥٦ - ٢٣٦ هـ) وجدت الكاتب حرف اسم «جحل» الي « جهل » كما حرف اسم «ضرار» إلي « دراز » انظر ص ١٧ ، ١٨ ط دار المعارف . وقد عني بنشر الكتاب المستشرق أ. ليفي بروفنسال أستاذ اللغة والحضارة بالسوربون ومدير معهد الدروس الإسلامية بجامعة باريس]

(٣) [رواه الحافظ أ بن عبد البر « الدرر فى مختصر المغازى والسير » ص ٤٣]

[إسلام عمر]

لقد كـان إسـلام حمزة انتصـاراً عظيمـاً لمحمد ، فقـد جـدد أمل أتبـاعـه ، وخفض رأس قـريـش ، ولم تجسـر على أن تظهـر حـقـدهـا علنـاً ـ بعض الوقـت ، ثم تفاقـم خطرهـذا الحقـد الدفيـن ، فخططـت فى الظـلام للقضاء على نبى المؤمنيـن ، ولـم يكـن ينقصهـا سـوى رجـل ذى تصميـم يسـتطيع أن يخنـق هـذا الديـن الجـديد فى مهـده بقتـل رئيسـه ، فتطـوع عمـر (١) الشـرس لهذا ، وشـجعت قريش تهـوره فانطلق ممسكاً بالسيف الذى ينوى غرسـه فى صـدر محمـد.

وبينـمـا هـو فى طريقه قـابل « نعيمـاً » الـذى سـأله عن الغرض الـذى من أجـله توشـح سـلاحه على هـذا النحـو ، فلـم يخف عليـه عمـر أمره ، وأفضـى إليـه بما عـزم عليـه ، فقـال له نعيم [ابن عبد الله العدوي وشهرته الفحّام] : « لماذا تعرض نفسـك للأخطـار ؟ إنك إن ارتكبت هذا الجرم فإن بنى عبد مناف (٢) لن يصبروا على ترك قاتـل قريبهـم يمشى على الأرض ، فـهلا ذهبت إلى أختـك وزوجهـا سـعيد فـرأيتهـمـا ؟ فلـقـد صبآ .(٣) »

---

(١) لقد سمى عمر ـ الذي كان مجرد النطق باسمه يلقى الرعب فى النفوس ـ باسم الفاروق ـ أى القاسم ـ لأنه شق أحد المسلمين شقين لأنه رفض الاحتكام الى محمد (الطبرى) .

[وبالرجـوع إلى تاريخ الطبـرى وجدت أنه ذكر إسلام عمر فى المجلد ٢ ص ٣٣٥ ط دار المعارف دون أن يذكر ما نسبه إليه سفارى . وقد روى الخـازن القصـة فى تفسير ﴿الم تر الى اللذين يزعمون انهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت﴾ وهو برواية منقطعة تروى لنزول الآية فى منافق يقال له بشر . وقد قتله عمر باعتباره مرتداً يرفض حكماً من احكام الدين . وقد روى مرة أخرى بأن الآية نزلت فى المحتكم اليـه . وهو أبو بـردة وقيل برزة وقيل كـعب بن الأشـرف ، وهـذا الاضطـراب فى الرواية . يجعل الحديث ساقطاً . ولكن المستشرقين يجمعون السواقط . وقد أهمل الطبرى فى تفسيره ذكر القصة (الطبرى ٥/ ٩٠، ٩٢، ٩٣: ٩٥) اليمنية بمصر والخازن ١/ ٤٦١ ط التقدم العلمية بمصر]

(٢) عبد مناف هو اسم أبى طالب .

(٣) [الدرر فى اختصار المغازى والسير، لابن عبد البر الحافظ يوسف بن عبد البر ص ٣٦٨ و ص ٤٦٣ وأبو الفداء/ ١٢٠.]

بهذا الخبر شعر عمر أن سخطه قد تضاعف ولكنه غير هدفه وتوجه إلى منزل أخته أمينة [والمعروف أن اسمها فاطمة وليس كما قال سفاري أمينة] (١) .

وكان هناك [في منزلها] من يقرأ من القرآن السورة التى عنوانها (طه) فسمع عمر قراءة بعض الآيات ، ثم دخل وعندما أبصره الجمع خبىء الكتاب ، وساد الصمت ، فسأل عمر أخته قائلاً : « أى كتاب كنتم تقرؤن » ؟ فلم تجبه : ولما لم يتمالك غضبه لطمها على وجهها وأمرها بطاعته . فقالت له « إن إهانتك لن تجدى ، إننا لا نستطيع أن نلبى طلبك ، فالتمس لنا العذر، إن رفضنا هو قانون لا نحيد عنه » .

إزداد هدوء عمر ، وألح فى طلبه ، ووعد بإعادة الصحيفة إذا سلمت إليه ، فلم تمانع « أمينة » [الصواب فاطمة] أكثر من ذلك ، وسلمته القرآن فأخذ يقرأ عدة آيات ، فحلت فى نفسه الحمية للدين محل الغضب . وقال « يا لها من دعوة سامية ! كم أنا أوقرها . إننى اتحرق شوقاً لاعتناق الإسلام أين هو محمد ؟ قالوا : إنه فى قصر الصفا (٢) [هكذا يحرص سفاري علي تسمية بيت النبي قصراً كما أن المشهور أنه كان في دار الارقم لا بيته] كان محمد قد لجأ إلى هناك ليتلافى اذى قريش وكان يحيط به أربعون مسلماً - رجالاً ونساء - يتلقون عنه مبادىء الدين الجديد . ومن بينهم حمزة وأبو بكر وعليّ ، وذهب بعمر إلى هناك . وطرق الباب فتح له ، ولما ابصر الحاضرون عمر متوشحاً سلاحه ، ألقى الرعب فى نفوسهم ، ولكن محمداً الذى لا يعرف الخوف - نهض وأسرع اليه وأخذ بتلابيبه وجذبه إلى الداخل وقال له :[ماجاء بك يا بن الخطاب ؟ فوالله ما أري أن تنتهي حتي ينزل الله بك قارعة] .[والذي قاله سفاري يدل علي

(١) [تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون ص ١٠٠ و ١٠١ ط دار سعد بمصر .]

(٢) أبو الفداء ص ٢٥ - [جـ ١ ص ١٢٠] .

[أراد الكاتب أن يوهمنا أن الصفا مكان بعيد يمكن الاختفاء فيه بعيداً عن الرقباء . والواقع أن الصفا قرب المسجد الحرام وفى وسط مكة . فكيف التخفى والاحتماء بالصفا وهو وسط الأعداء ؟ .]

جهله بالاساليب العربية :] « ياابن الخطاب هل عزمت على الوقوف تحت هذا الباب إلى أن يسقط السقف فوق رأسك » .

فرد عمر : إننى جئت مؤمناً بالله ورسوله . ودخل عمر فى الإسلام وأصبح من أقوى أنصاره المدافعين عنه ، ولم تلن شراسته بل احتفظ بطبعه ، فقد كان لا يقبل التفاهم ، وكان يتحدى جموع قريش ويدخل وسط الكعبة ذاتها ..

كان انشقاق عمر ـ وهو من اشرف نبلاء قريش ـ نذيراً بقرب انهيار دينها ، فاتخذت إجراءات عنيفة للحيلولة دون هذا الانهيار ، وأصبح الاضطهاد والأذى عاماً . ولكن محمدا ـ الذى كان ضعيفاً ، ولم يكن فى مقدوره الدفاع عن دينه ـ خضع للظروف وسمح للذين ليست لهم أسرة تحميهم أن يهاجروا إلى مملكة الحبشة (١) .

[الهجرة الى الحبشة]

[الهجرة الأولى]

[رجب عام ٥ من البعثة كما في تاريخ الطبري ٢/٣٢٩] وعام ٦٢٠٨ من هبوط آدم حسب تقدير أبى الفداء عام ٦٢٣ م ـ ٨ ق هـ ـ ٤٥ من ميلاد محمد .

لقد أملت السياسة على محمد هذا الرأى إلا وهو أن يهيء ملجأ لوقت المحنة . وانحاز إلى هذا الرأى اثناء عشر رجلاً وأربع نساء [وقال الطبري احد عشر . وقيل عشرة

---

(١) الحبشة : اسمها مشتق من « حبش » وهو نفسه « كوش » بن كنعان بن حام بن نوح . (عبد الباقى فى كتابه عن سمو الاحبباش) ويكتبها بالاغريق (...) واللاتين ABASSENI ومعناها بالعربية « جمع من الأمم » دخلت هذه الشعوب الي الحبشة عن طريق مصر ، وأسسوا أمبراطورية ، وقاموا بعدة غزوات في اليمن ،ولقد اسسوا هناك ـ قبل ميلاد محمد بستين عاماً ـ مملكة كانت عاصمتها « سبأ» . وشن أبرهة أمير اليمن حرب الفيل ضد أهل مكة . ولقد هلك جيشه كله ،وكان ذلك عام ميلاد محمد (عبد الباقى).

جـ٢ص٣٣١] .

وأبرز هؤلاء الصابئين هم عثمان وزوجته رقية بنت محمد ، الزبير بن العوام ، وعثمان بن [مظعون (١)] وعبد الله بن مسعود، وعبد الرحمن بن عوف (٢) ، فأبحرت هذه الفرقة عن طريق البحرالاحمر ،ووصلت إلى مملكة النجاشي (٣) الذى استقبلهم استقبالاً كريماً .

[الهجرةالثانية]

وتبعهم بعد ذلك ،جعفر بن أبى طالب وغيره حتى بلغ عددهم (٨٣) رجلاً و(١٣) امرأة(٤) من مكة .

[صحيفة المقاطعة]

ولكى توقف قريش هذه الهجرة ،ولكى تحرم أتباع محمد من هذا المأوى . أرسلت بعثة الى ملك الحبشة ، فكلفت عبد الله ابن أبى ربيعة ، وعمرو بن العاص ليقدما إليه الهدايا ، وليطالباه بتسليم المهاجرين . فأنجزا مهمتهما ،

---

(١)]حرفه سفارى إلى متون Matoun وقد نشأ خطأه عن تصحيف الكلمة فى أبى الفداء الي مطعون (جـ١ ص ١٢٠) والتصويب (مظعون) من كتب السيرة انظر الدرر لابن عبد البرص١٥].

(٢) هذه الهجرة الاولى ـ والهروب ـ غير معروفة عندنا ، ولكنها مشهورة بين المسلمين ويحدد تاريخها كل منElcona و جناب بأنها فى العام الخامس من بعثة محمد [وكذا في الطبري ٣٢٩/٢ وابن سعد فى الطبقات جـ١ ص ٢٠٤] .

(٣) النجاشى كلمة حبشية معناها « الملك » ، وهى كلمة مشتركة تقال لجميع حكام الحبشة مثل كلمة « فرعون » لحكام مصر . (عبد الباقى ـ تاريخ الحبشة ص ١ من الفصل الثاني).وهذا الاسم حوره المؤرخون الفرنسيون وجعلوه Negus

(٤) أبو الفداء ص ٢٥ ـ [١٢١/١ (وقيل (١٩) امرأة كما فى فقه السيرة ص ١١٩ والذى في أبى الفداء . وثمانى عشرة لسوة ، وفى تاريخ الطبرى ٢٣٠/٢ قيل ٨٢ رجلاً إن كان عمار بن ياسر فيهم] .

ولكـن الملك حـابى المسـلمين بعد أن اسـتمع بإعجـاب إلى ما قصـه عليه جعفر عن نبى الجـزيرة ، ورد البعثة بهداياها .

ولم يخفـف هذا الاخـفـاق من حـقـد قـريش ، ولما لـم تتمـكـن من القـضـاء عـلى «محـمـد» فى الخفـاء ـ وهو الـذى يحـوطه جمع من المتحمسـين الذين يسـهـرون على حيـاته .. فـقد اعلنت مقاطعـة جـميع بنى هاشـم (١) . وصـدر الاعـلان باسـم جـميع القبـائل (٢) . فـحـرم الـزواج مـنهم ، كـمـا حـرم التعـامل بينـهـم وبين سـائر العـرب ، وأصبحـت المقـاطعـة عامـة ومسـتمرة إلى أن يحيـن الوقت الذى يقـبلون فيه ان يـسلموا المبتـدع الخطير [؟!] . إلى غـل الامة وكـتـب القرار فـى صـحـيفـة من الرق ، عـلقت داخل الكعبة .

[بنو هاشم فى شعب أبى طالب]

عنـدئذ لم يـجد بنو هـاشـم ـ سـواء الوثنيـون منهم أو المؤمنون ـ الأمن بين مـواطنيـهم ، فلجأ وا إلى قصـر [!!] أبى طـالب [يعنى بالقصر « الشـعـب » الذي يسـكنه] حيث وجـدوا المـأوى ، أمـا أبو لهب (٣) بن عبـد المطـلب فهو وحـده الذى انضـم إلى صـف قـريش ، ودامت عـزلـة بنى هاشـم ثلاث سـنوات كـانـت فـيـهـا الطـرق المـؤدية إلى الشـعْب [في الأصل الفـرنسـي . القـصـر] تحـت حـراسـة الأعـداء ، مما اضطر المعزولين إلى أن يذهبوا لشـراء مؤونتهم وهـم يحملون السـلاح ، وكـانت الأشـهر الحرم ـ التى تحـرم فيـهـا الحـرب ـ هـى وحـدها الوقـت الذى كانوا يتمتعون فيه بحريتـهـم .

---

(١) كـان بنو هاشم من أبرز العـائلات فى قـريش . وكـانوا يملكون سـدانة الكعبة ، وكان «محمد» من هـذه العائلة .

(٢) أبي الفـداء ـ حيـاة محـمـد ص٢٦ ـ [١٢١] ويحـدد «جناب» تاريخ هذا الحدث بأنه بعـد ذلك بعاميـن .

(٣) ابو لهب: عم « محمـد » كان دائماً عدوه الألد » ، وكانت ام جـميل ـ زوجته ، وهى بنت أبي سفيـان تشاركه حنقه على «محمد» وكانت (تضع) [فى النص تزرع] الشوك فى الاماكن التي كان يمر بها وسورة « المسد» تقضى عليهما بالخلود فى النار، ولقد أعطى له هذا الاسم إيذانا بالمصير الذي ينتظره. أما اسمه الحقيقى فهو عبد العزى (أبو الفداء) [ص١٢١].

[هذا استنباط سفاري] ، وكانت المقاطعة لازالت مستمرة عند ما ترددت الشائعات فى الحبشة بأن أهل مكة قد أسلموا . مما دفع بثلاثة وثلاثين من المهاجرين إلى الإبحار صوب الجزيرة العربية . وما أن وصلوا إلى الساحل حتى تبين لهم كذب هذا الخبر فعادوا من فورهم إلى المهجر عدا عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعثمان بن مظعون [في النص بن متون] . فهم وحدهم الذين تجرأوا ودخلوا مكة . [بل دخل كل المسلمين الآخرين دون جوار أحد ، وتواروا ، فلاحقهم الأذي حتي اضطروا إلي الهجرة الثانية للحبشة ومعهم آخرون ، وقد جاء في سيرة ابن هشام أنه قد دخل عثمان بن مظعون بن حبيب الجمحي مكة بجوار الوليد بن المغيرة ، وابو سلمة بن عبد الاسد بن هلال بن عبد الله بن عمروبن مخزوم بجوار من أبي طالب ابن عبد المطلب وأم ابي سلمة برة بنت عبد المطلب . أنظر تهذيب سيرة ابن هشام ص١١٣ وفقه السيرة ص ١١٨ : ١١٩] .

[نقض الصحيفة]

كانت العداوة مستمرة بين الفريقين ، ووقعت اشتباكات عديدة بينهما فى كثير ما الأحيان وكانت النتائج مختلفة . ولكن حدثا غير مرتقب جاء فأوقف الشقاق المدنى . اذ أن الأرَضة (١) قد أكلت الصحيفة التى صاغتها أحقاد قريش ، وعلم « محمد » بذلك ـ وسواء أكان قد اشترك فى هذا الحادث أو كان ماحدث أمر يرجع أثره إلى الطبيعة ـ فإنه عرف كيف يحقق منه أكبر الفائدة ، فقال لأبى طالب : [« يا عم ان ربي سلط الأرضة علي صحيفة قريش (٢) فلم تدع فيها غير أسماء الله (٣) ونفت منها الظلم والقطيعة » .]

---

(١) [في النص الفرنسي . « الدودة » والصواب : الأرضة] (٢) أبو الفدا ص ٢٧ [١٢١/١] .

(٣) كانت هذه الوثيقة تبدأ بعبارة « باسمك اللهم » ولم يبق غيرها ، اما الباقى فقد فنى كله . (أبو سعيد عبد الرحمن فى كتاب الأنوار ، ولقد أورد Maracci رواية أخرى عن أحمد عبد الرحيم مضمونها أن الأرضة (الدودة فى النص) أكلت كل الأماكن التى كتب فيها اسم الله وتركت الباقى سليماً . ولكن هذه الرواية التي رفضها فى الجامع الصحيح الامام البخارى ليست لها اية حجية عند المسلمين ، أما Maracci فقد ارتضاها واستخدمها .

[أبو طالب يعلن إتلاف الله للصحيفة]

وذهب أبو طالب إلى قريش وحمل إليها نبأ ماحدث وقال : « إذا كانت الواقعة صحيحة فاخمدوا نار أحقادكم دوننا ، وارفعو عنا قرار مطاردتكم لنا ، أما إذا كان الأمر مجرد غش فإني ارتضى تسليمكم ابن أخي .»

قبلت قريش هذا الشرط ، وانطلق الجمع إلى الكعبة فوجدوا كل شيء مطابقاً تماما لحديث أبي طالب . فألغى قرار قريش ، وعاد المسلمون إلى مجتمعهم ، وتمتعوا بحقوقهم من جديد كما كانوا في الماضي .

[المعروف في كتب السيرة أن قرار فض الحصار والعزل تم نتيجة ثورة بعض الأحرار من قريش علي الصحيفة حيث كان مجتمع قريش حاضراً عند الكعبة حتى قال ابو جهل : « ان هذا لأمر « بيت بليل » . وقد روت كتب السيرة حديث أبي طالب ولم تذكرأنه كان السبب الوحيد لالغاء قرار العزل] .

[عام الحزن]

كان سنة ٦٢١٣ من هبوط آدم - حسب تقدير ابى الفداء - ٦٢٨ م - ٣ ق هـ - ٥٠ من ميلاد الرسول محمد - ١٠ ق البعثة .

لقد كان إلغاء قرار قريش [المعلق بالصحيفة] ، قد أوقف الأعمال العدوانية بين الفريقين [الحق ان العدوان كان من جانب واحد هو قريش] ولكن تمزيق الصحيفة لم يطفيء الضغينة المشبوبة في النفوس ، وإذا كان محمد قد ذاق شيئاً من الراحة فالفضل في هذا يرجع إلى نفوذ أبي طالب .. وما هي إلا فترة قليلة خطف الموت بعدها هذا المُعين .

وبينما كان أبو طالب في سكرات الموت أراد محمد أن يقتنص [؟!] لحظة ضعفه ؟ لكي يدفعه إلى النطق بما يفيد إيمانه بعقيدة المسلمين وهي « لا إله إلا الله محمد رسول الله (١) » ولكن الشيخ كان يتمتع بقدر كاف من القوة المعنوية لكي يعطيه الإجابة التالية:« يا ابن أخي . كنت أود أن أحقق رغباتك لولا أنني أخشى العار ، ولست أريد أن تعتقد قريش أن الخوف من

---

(١) أبو الفداء ص ٢٨ - [١٢٢/١] وجنّاب [ولماذا لا يقال أراد النبي إنقاذ عمه من النار في آخر لحظة ، وقد روى أبو الفداء قولاً انه اسلم عن ابن عباس وإن كان قولاً غير مشهور] .

الموت هو الذى جعلنى أسلم ».وهكذا انتهى دور أبى طالب الذى مات عن أربع وثمانين سنة، وكان محمد لا يزال يبكى موته عندما خطف الموت زوجته خديجة التى كان يربطه بها الحب وعرفان الجميل فبكاها هى أيضاً .

كانت هاتان الخسارتان إيذاناً بوقوع النكبات ، فاستيقظت العداوة والبغضاء . ونشطت قريش فى إيذائه بعد أن أصبحت لا تحسب حساباً لأحد ، وأحاط به المضطهدون له مثل أبى لهب والحكم وعقبة الذين كانوا أصدقاء ه فى الماضى ، وصاروا لا يتركون أية فرصة تسنح إلا ويتعرضون له فيها بالأذى . وكانوا يسبونه وهو فى داره ، ويسبونه وهو فى صلاته ، وناصبوه العداء فى كل مكان . فاشتكى « محمد » فى القرآن من ذلك بهذه الكلمات ﴿أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى ؟. أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ؟! ، أرأيت إن كذب وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى ؟ ﴾ (١).

[الكاتب هنا وفي كثير من المواطن يصور النبي بأنه الذى ينزل القرآن ويصنعه ويؤلفه وقد رددنا عليه] .

[الذهاب الى الطائف]

ولما أصبح محمد هدفاً لكل هذا الأذى غادر وطنه وتوجه إلى الطائف (٢) . هذه المدينة الجبلية التى تقع على بعد عشرين فرسخاً شرقى مكة والتى كانت تتمتع بمزايا عديدة ، لقد كانت مدينة حصينة ، وتقطنها قبيلة قوية شغوفة بالحروب ، وكانت أراضيها خصيبة .

كل هذه الاسباب شجعته على أن يبحث له فيها عن مأوى ، وأملاً فى أن يتقبل اهل الطائف دعوته الجديدة بالترحاب .. توجه إلى مجمعهم الذى كان يتكون من أشرف رجالها ومن بينهم مسعود [وعبد ياليل] وحبيب بنو عمرو [بن عمير] ، ووجه إليهم حديثه ، فبين لهم ضلال عبادة الأوثان ، وعرض عليهم صورة رائعة لقوة الله الواحد الذى يعبده ، ورسم لهم روائع خلقه ثم قال:« إنى رسول الله ، ولقد أمرنى أن أدعوكم إلى الاسلام ، فبرز له أحد الحاضرين وقال [إني أمْرِط (أمزق) ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك . وقال الآخر : أما وجد الله احداً يرسله غيرك ؟! وقال الثالث : والله لا أكلمك ابداً .. لئن كنت

---

(١) سورة العلق ـ الآية ٩ وما بعدها .

(٢) انظر جغرافيا الإدريسى .

رسولاً من الله كما تقول : لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام : ولئن كنت تكذب علي الله ما ينبغي لي أن أكلمك .[1]]

التزم محمد الصمت وخرج من الاجتماع ، وقد كان من أهل الطائف من استقبله استقبالاً أكرم من ذلك . أما عامة الشعب الذى سب آلهتهم فقد ثاروا عليه وطردوه من المدينة . فغادر الطائف صائحاً [« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني علي الناس . ياأرحم الراحمين ! أنت رب المستضعفين . وأنت ربي ، إلي من تكلني ؟ إلي بعيد يتجهمني (يلقاني بغلظة ووجه كريه) أم الي عدو ملكته أمري [؟ !] إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي . ولكن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل عليّ سخطك . لك العتبي حتي ترضي ولا حول ولا قوة إلا بك] . وعاد إلى مكة فبلغها فى الثالث والعشرين من ذى القعدة . [2] .

[دعوة القبائل فى موسم الحج]

لم تفت هذه النكبات فى عضد محمد ، فلقد كان فوق كل المصائب . وكانت احتفالات الحج [3] قد بدأت ، وهى التى كانت تجلب إلى مكة جموعاً غفيرة من الناس ، وكان محمد يستفيد من هذا الوقت للدعوة ضد الوثنية . وكان يرفع صوته ضد الآلهة المزيفة فى الطرقات ، وفى الميادين العامة ، وفى كل مكان ويقول لوفود الحج [يا بني فلان : إني رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما يعبد من دونه ، وأن تؤمنوا بي وتصدقوني [4] .]

كانت الجرأة التى يحارب بها الأصنام بين عبادها تعرض حياته للخطر ، ولكن

---

(١) أبو الفداء - حياة محمد ص ٢٩ -[١٢٣/١ وتهذيب سيرة ابن هشام ص ١٣٠]

(٢) [تهذيب سيرة ابن هشام ص ١٣١ ط دار سعد مصر] وجناب .

(٣) كان الحج سائداً قبل محمد بوقت طويل ، وكان العرب يحتفلون بذكرى إبراهيم إسماعيل ، ولم يكن ذلك إلا عرفاً سائداً . أما المشرع [محمد] فقد جعله حكماً من الأحكام [الحق أن العرب كانت تعد هذا ديناً وان الله هو الذى شرعه] .

(٤) أبو الفداء - ص ٣٠ - [١٢٣/١].

الموت لا يخيف ذوى الطموح . ولقد كان أسلوبه فى دعوة القبائل الغريبة أكثر رفقاً من أسلوب دعوته لأهل مكة ، وذات يوم كان على تل يسمى « العقبة » قابل ستة من سكان يثرب كانوا يتجاذبون أطراف الحديث (١) .

[بدء إسلام الانصار]

عام ٦٢١٤ من هبوط آدم - حسب تقدير أبى الفداء - عام ٦٢٩ م - ٢ ق . هـ ٥١م محمد - ١١ من البعثة .

كان ستة من يثرب يتجاذبون أطراف الحديث عند العقبة فدنا [ﷺ] منهم واشترك معهم فى الحديث فأكبروا الذوق الذى ظهر به فى أعينهم فغبطوه عليه ، ولمسوا فيه حديث المهذب وكياسة القرشى (٢) ، فاستمعوا له باهتمام .ولما أدرك محمد وقع حديثه فى نفوسهم أراد أن يستكمل إقناعهم فقرأ عليهم بعض آيات القرآن حيث رسم صوراً جذابة لقوة الله ، وحيث يدعو الناس جميعاً إلى عبادة اله الكون الواحد .

أخذ الإعجاب بعقول الغرباء ، فاستسلموا لسلطان الإسلام وآمنوا برسالة محمد (٣) وثبتت الحماسة [؟!] التى بعثها فيهم ولم تمح أبداً . ولما عادوا إلى المدينة أصبحوا رسلاً للدين الجديد، وشرعوا يدعون إليه بنى قبيلتهم ، وكانت المدينة منقسمة بين الأوس والخزرج ، وكان المسلمون الجدد ينتمون إلى الخزرج (٤) ، وكانت القبيلتان على اتصال وثيق بقبيلتى بنى قريظة

---

(١) العقبة . اسم تل قريب من مكة كان لبنى ظفر فيه دار كان ينعزل فيها محمد كثيراً عن الناس .(أبو الفدا) **[١٢٤/١ والطبرى ٣٥٢/٢] . [هكذا قال سفارى وقد اختلط عليه الامر لجهله باللغة فبنو ظفر ورد ذكر حائطهم فى بيعة العقبة الأولى كما سيأتى وهو بالمدينة وليس حائطاً لهم بمكة كما فى أبى الفداء الذى يرجع إليه الكلام فى ١٢٤/١]** .

(٢) كانت قبيلة قريش هي أرقى وأقوى قبيلة فى الجزيرة ، وكانت لغتها أصفى لغات العرب وأجزلها .

(٣) أبو الفدا ص ٣٠ - [٢٣/١] .

(٤) لما عبر موسى صحراء الجزيرة العربية وهو على رأس بنى إسرائيل أرسل جيشاً يحارب الذين كانوا يسكنون يثرب وخيبر وبعض الأماكن القريبة من الحجاز ، وأمرهم بقتل جميع أعدائهم ، ونفذ الأمر عندما سنحت الفرصة .. ولما انتصر اليهود أفنوا هذه الشعوب وجاءوا يحتلون المدن التى خلت من أهلها ، ومكثوا هنالك إلى أن تهدمت سدود « إرم » وأغرق اليمن [ربما يقصد سد مأرب] .. وعندئذ هرب الأوس والخزرج من الطوفان ولجأوا إلي الحجاز ، وطردوا اليهود من يثرب ، وتركوا لهم خيبر وبعض الحصون الأخرى ، أبو الوفاء [١٢٤/١٦]التاريخ العالمى جـ ١ .

وبني النضير اليهوديتين اللتين كانتا تقطنان الحصون الواقعة على مشارف المدينة ، وكانوا قد استمعوا كثيراً إلى اليهود يتحدثون عن نبى سيفرض سلطانه على جميع أمم الأرض ، ولعلمهم بمقدار شوق اليهود إلى مجيء هذا النبى ولاعتقادهم أنهم وجدوا هذا النبى فى شخص «محمد» بادروا إلى اعتناق دينه لكى يحظوا بالفضل العظيم . وهكذا يرجع نجاح « محمد » إلى كل من حنكته السياسية وبلاغته [!!] .

[هل يرجع انتصار الاسلام إلي بلاغة النبي وسياسته فحسب ؟]

[هكذا يحاول المستشرقون ارجاع أمر انتشار الإسلام الى شخصية الرسول ﷺ لا إلي جوهر دعوته . وخشية افتضاح الكاتب أهمل ذكر هؤلاء الذين قابلوا النبي ورد إلي لقائهم انتصار الإسلام . أنهم كانوا ستة رجال فقط من بني النجار منهم « أسعد بن زرارة وأبو الهيثم بن التيهان وقد كانا يتكلمان بالتوحيد في المدينة من قبل . وهما على وعي كبير بالحقائق الدينية فإذا هما أسلما وصدقا بمحمد أيكون هذا لحنكة محمد السياسية ولبلاغته ؟ ، أم المعقول أنه تصديق بعد اقتناع ودراسة ومطابقة ماعند النبي لما يدعوان إليه ؟ .. وهذا لا ينفي اتصاف النبي بالبلاغة والحنكة فهذا أمر من صفاته ثابت ولكن تصديق هؤلاء الخزرجيين به إنما مرده إلي الاقتناع الواعي وحده .]

[وهذا الذي يفتريه الكاتب يردده المستشرقون في صور شتي لتأكيده ، فيكتبون مثلا - عن عمر بن الخطاب ويبرزونه في صورة ضخمة تكاد تحجب حقيقة الصورة المحمدية عند من لا يعرفون الإسلام ، ليربطوا عظمة الإسلام بعظيم من أبنائه وليس بالإسلام ذاته ، وكان من شأن صنيعهم هذا أن يعطوا للمسلمين الذين يستلهمون الثقافة الغربية ، ويصدرون عن مواردها .. الكثير عن « عمر » بينما لا يجدون إلا القليل المنصف عن محمد ، فإذا كتبوا ظهر هذا القحط في المعلومات عن النبى في كتاباتهم كما ظهر أثر عمر ورجالات الإسلام في الدين الإسلامي كبناة له ومنشئين ، لا كدعاة تابعين .. وإنك لتلمس هذا في كتابة العقاد عن « عبقرية عمر » من حيث المادة العلمية .. بل والصفحات التى كتبت عن كل شخصية . فتكاد تكون صفحات (عبقرية عمر) ضعف صفحات (عبقرية محمد) .]

[وهكذا عندما كتب المستشرقون والذين انطبعوا بالثقافة الغربية عن الصديق أبي بكر جعلوه المنقذ والمؤسس للدولة الإسلامية ، ومنهم من يجعل عمر هو المؤسس لها ، وكأن عمل محمد ﷺ لم يكن إلا ظلالا باهتة في الكيان الإسلامي ووجود الأمة الإسلامية .]

[وأجرأ وقاحة أن كاتبنا المستشرق سفاري ـ حين يكتب هذا في مقدمة الترجمة القرآنية ـ يعلم أن القرآن نفسه تضمن الرد علي هذه الفرية التي لم تزد علي أن تكون صدي لمفتريات الجاهلية الأولي ، فإن خصوم النبي من قريش قالوا : إن الإسلام سنهار بموت محمد ، إذ أنه ابتر ، فليس له عقب من ذريته يحملون رسالته من بعده ، ونزلت سورة الكوثر تعلن أن الأبتر المنقطع ليس رسالة الاسلام ولكنه سلطان قريش ووثنيتها وسدنتها ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ .]

[وفي « عمير بن سعد » جلينا هذه الحقيقة ، وبينا أن الإسلام يحمل في ذاتيته عناصر سيادته وخلوده ..] .

[وأكبر دليل على فساد دعوي الكاتب هوأن الإسلام كان ولا يزال يجتذب إليه الكثيرين ممن لا يعرفون البلاغة العربية ، بل ولا يعرفون العربية إطلاقاً ، وانما جذبهم سمو تعاليمه . بل إن عدد المسلمين الذين لا يعرفون العربية أكثر من عدد من يعرفونها ..]

[كما شاهدنا أن الأمم التى ارتبطت بزعماء من العباقرة كانت تصاب بالنكسات في سن الشيخوخة لهؤلاء الزعماء ،أو عقب وفاتهم أو اعتزالهم العمل السياسي ، بينما الإسلام يزداد قوة حتي في العصور التي مال فيها الميزان العسكري والسياسي والاقتصادي لغير صالح المسلمين . فان تعاليمه كانت من القوة والصلابة بحيث غزت جموع القوي المنتصرة الغازية لأراضي المسلمين وحولتهم إلي عبيد يجاهدون للاسلام بعد ان كانوا يجالدونه ، وتاريخ « التتار» وتكوينهم امبراطورية إسلامية .. صفعة لكل من يتناسي أن الاسلام ينتصر بذاته على عوامل الفناء ، كما ينتصر به أهله على كواسر القوي الباغية لو أنهم استمسكوا به في جدٍّ وإعتزاز وإصرار .]

[الإسراء والمعراج]

عام ٦٢١٥ من هبوط ادم - حسب تقدير أبى الفداء - عام ٦٣٠م - ١ ق هـ - ٥٢ م محمد - .

يحدد التاريخ حادثة الاسراء الشهيرة بعام قبل الهجرة ، ويرى أقوى المؤرخين الذين تبلغ سلطتهم قوة القانون أن الإسراء رؤيا . وقد نسجها « محمد » من خياله لكى يعطى وزناً لطريقة الصلاة الجديدة التى فرضها [؟!] وسوف نورد الوصف الموجز لهذه الرحلة طبقاً لرواية البخارى وأبى هريرة (١) : يقول محمد « كنت نائما [؟!] بين تل الصفا وتل المروة (٢) حين جاءنى جبريل واقترب منى وأيقظنى وكان يصحب معه« البراق »(٣) - وهوفرس لونه رمادى فضى ، سريع السير إلى درجة أن العين تعجز عن متابعة طيرانه - سلمه إلىّ جبريل ، وأمرنى أن أركبه فأطعته وانطلقنا ، وفى لحظة كنا على مشارف أورشليم ، فتوقف البراق ونزلت وربطته فى الحلقات التى اعتاد الأنبياء أن يربطوا فيها دوابهم . ولما دخلت المعبد قابلت إبراهيم وموسى وعيسى . فصليت معهم ، ولما قضيت الصلاة ركبت البراق ثانية وواصلنا طريقنا ، وقطعنا - فى سرعة البرق - الفضاء الجوى الشاسع . ولما وصلنا إلى السماء الأولى طرق جبريل الباب فقيل : من الطارق ؟ قال جبريل . قيل : من صاحبك . ؟ قال محمد قيل : أوقد بعث ؟ قال نعم. قيل مرحباً به . عندئذ فتح الباب . ودخلنا فقال لى جبريل : هذا أبوك آدم . اذهب واقرئه السلام . فأقرأته السلام ، فرد على ، وقال : فلتحقق السماء آمالك يابنى الكريم يا أكبر الأنبياء. وانطلقنا وكنت اتبع دليلى فى الفضاء الفسيح حتى وصلنا إلى السماء الثانية . فطرق جبريل الباب فقيل : من هنا ؟ قال : جبريل ؟ قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل أوقد بعث ؟ قال : نعم قيل : مرحباً به . وفتح الباب . ودخلنا وقابلت عيسى ويحيى فأقرأتهما السلام فردا علىّ وقالا : حالفك التوفيق يا أخانا الكريم ، يا أعظم الأنبياء .

---

(١) أبو الفداء[١٢٢/١] الفصل التاسع .

(٢) أحمد بن يوسف التاريخ الفصل الاربعون .

(٣) معناه المتألق .

[الرد على منكرى الاسراء بالجسد]

[هكذا يحاول المستشرقون والنصاري تصوير حادث الإسراء بأنه رؤيا كرؤيا يوحنا، ودسّوا في هذا نصوصاً خدع بها بعض المسلمين القدامي ، وقد تناولت الرد علي هذا في دراسة لي عن الاسراء والمعراج ، وأحب أن أضيف إلى هذا ان « سفارى » كذاب أو محرف أو جاهل بمدلول اللغة .]

[فما رواه البخاري إنما هو عن جابربن عبد الله وعن مالك بن صعصعة ، وكل من النصوص تدل على أن الأمر لم يكن رؤيا . فرواية جابر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :« لما كذبتني قريش قمت في الحجر فجّلا الله لي بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن اياته (علامات البيت) وأنا أنظر اليه » . ورواية البزارعن ابن عباس للحديث « فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه ، فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كرباً ما كربت مثله قط ، فرفعه الله إلى أنظر إليه . ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به »(١) ، ولا يمكن أن يكون التكذيب لرؤيا رآها في منامه فرؤيا المصرى نفسه بأمريكا مناماً لا يستغرب .]

[وحديث البخاري الذى انفرد بذكر المعراج رواه عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ... (الحديث)(٢) وهو صريح في أن الأمر ليس حلماً]

[وحديث البخاري عن مالك بن صعصعة أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة اسري به قال : « بينما أنا في الحطيم - وربما قال : في الحجر مضطجعا إذ أتاني آت .. إلي أن قال « ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض . قال الراوي : وهو البراق ، يضع خطوه عند أقصي طرفه ، فحملت عليه فانطلق بي جبريل حتي أتي السماء الدنيا فاستفتح . فقيل من هذا ؟ قال : جبريل . قيل ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم قيل مرحباً به . فنعم المجيء جاء . ففتح .(الحديث) ...]

---

(١)[الطبقات ١/١٤٤]

(٢) [البخارى جـ ١ ص ٩٧ فى أول كتاب الصلاة ط الشعب .]

[والتعبير بقوله « بينما أنا في الحطيم مضطجعاً إذ أتاني آت » لا يفيدنا النص على أن الإتيان كان مناماً . والدليل علي عدم احتمال أن يكون المراد بالإتيان له بالدابة هو الإتيان بها مناما هو الضجيج الذى أقامته قريش حول الحادث . ووقوفها ضده طالبة الدليل على قوله ، وحديث جابر « أن الله جلاً له البيت ليصفه لقومه يؤكد أن المراد بحديث مالك هو إتيان جبريل له ليوقظه من أجل الإسراء]

[وحديث أبي هريرة الذي ادعي سفاري أنه يحكي الإسراء «رؤيا » لا وجود له. وانما نص المروي عن أبي هريرة (١) « لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي فسألوني عن أشياء من بيت المقدس ...(الحديث كما رويناه من قبل)]

[ولا شك أن قوله سبحانه ﴿ اسري بعبده ﴾ تعني ان الإسراء بالجسد والروح معاً . لأن العبد لا يسمي عبداً وهو روح مجرد ، وإنما يكون عبداً بروحه وجسده معاً . كقوله سبحانه ﴿ لما قام عبد الله ﴾ وكما في قوله ﴿ ينهي عبداً إذا صلي ﴾ .]

[كما أن افتتاح السورة ﴿ سبحان الذى أسري بعبده ﴾ بأسلوب التعجب ﴿سبحان﴾ يدل على أن الاسراء الذى تناوله الحديث يدخل فيما يثير العجب . وليس في الحلم عجب]

[ثم إن سفاري « يعرف العبارة « أرسل إليه » وقد شرحها شراح البخاري فقالوا «أرسل إليه » للعروج به . بدليل أن كل الأنبياء في كل السماوات كانوا يسلمون على النبى بالأخوة والنبوة ، كما سلم آدم عليه بالبنوة والنّبوة ، إذ كانت السماء تعلم بنبوته من قبل ، فالأمر له بالرسالة صادر عنها] .

[كما أن رواية البخاري لم تصف البراق بأنه رمادي فضي كما صوره خيال سفاري . وإنما قالت إنه أبيض . وهذه كلها صور تدل على ما ذكرناه من جهل أو كذب أو تحريف المستشرق سفاري . أما المستشرق كزيمرسكي فقال : أنكر معاوية وعائشة حدوث الاسراء بالجسد . فوقف ضدهما الجمهور والشيعة ، وقالوا : الإسراء

(١) [التجريد الصريح لاحاديث الصحيح للزبيدى جـ ٣ ص ٩٩ و ١٠٤ .]

بالجسد [1] ومعني هذا أنه إجماع ومخالفته شذوذ] .

[صفة المعراج]

وطاف محمد وهو طائر على البراق [هذا رأي سفاري وحده] وهو يقوده جبريل بسائرأقطار السماء ، واستقبل بنفس الحفاوة ، وفى السماء الثالثة حياه يوسف ، وفى الرابعة حياه [، ادريس ، كما في صحيح البخاري وفي الاصل الفرنسي Henoe] وفى الخامسة حياه هارون وفى السادسة موسى ، وفى السابعة إبراهيم وتقبل منه تهانيه .

[عند سدرة المنتهى]

ثم اجتاز [النبي] مساحة شاسعة من السماوات ودخل إلى السدرة ، Lotos ، حيث توجد جنة النعيم ، ولا تستطيع الملائكة أن تجتاز هذه المنطقة ، وبلغت ضخامة هذه الشجرة أن ثمرة واحدة منها تكفى غذاء لجميع مخلوقات الأرض يوماً كاملاً ، وينبع من أسفل هذه الشجرة أربعة أنهار عمل خيال الشرقيين على تجميلها .

[تعقيب]

[لم يصف البخاري ثمر السدرة بماقاله سفاري ونص البخاري ، ثم رفعتُ إلي سدرة المنتهي ، فاذا نبقها مثل قلال هجر . وإذا أوراقها مثل آذان الفيل .قال : هذه سدرة المنتهي ، وإذا أربعة أنهار . نهران ظاهران ، ونهران باطنان ، فقلت : ما هذا ياجبريل ؟ . قال : أما الباطنان فنهران في الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات . ثم رفع إلى البيت المعمور ، . فأي خيال شرقي أوغربي في هذا ؟ اننا لا نكذب من علي سطح القمر فيما يرويه عنه ، لأنه أعلم به ، ولأننا لا نملك الدليل على تكذيبه . فكيف نجيز تكذيب محمد ﷺ عندما يحدثنا عما رآه في عالم لانملك الصعود إليه لنعرف كذبه فنكذبه ؟ وإذا كانت الأقمار الصناعية تصور كل نهر في الأرض من ارتفاع شاهق ، فأي غضاضة في أن يري النبي من مكان عال كذلك نهري النيل والفرات ؟] .

---

(١) [خاتم النبيين ص ١٠٠] .

[إلي البيت المعمور]

وبعد أن جاب محمد مباهج دار النعيم ، ذهب لزيارة [البيت المعمور] بيت العبادة الذى تحج إليه الملائكة .. إذ يدخله كل يوم ستون ألف ملك يسبحون الله ، ولا تتكرر هذه الزيارة لأى فريق من الملائكة .. وهذا البيت مبنى من حجر كريم أحمر اللون ، يحيط به عدد هائل من القناديل التى تضيء بلا توقف [طبعاً هذا خيال سفاري ، ولم يذكر البخاري أحجاراً ولا قناديل]

وبعد أن صلى « محمد » بالقرب منه قدم إليه ثلاثة أقداح : أحدهما مملوء بالنبيذ ، والثانى باللبن ، والثالث بالعسل . فاختار محمد قدح اللبن ، فهنأه جبريل على حسن اختياره وقال له. إنه لذو فأل حسن لأمته .

[فرض الصلاة]

وبعد أن اجتاز سماوات ذات مساحات رحيبة ، ومحيطات من النور، اقترب من عرش الرحمن الذى أمره بأداء خمسين صلاة فى اليوم ، فنزل محمد إلى سماء موسى ، وأخبره بالأمر السماوى الذى تلقاه . فقال له موسى « ارجع إلى ربك واسأله أن يخفف الفريضة ، فإن أمتك لا تستطيع الوفاء بها » ، فصعد « محمد » إلى الله تعالى [هكذا قال سفاري والنصوص تقرر أنه صعد إلي العرش لأن الله ليس له مكان يصعد إليه فيه ، وإنما له اماكن ، الدعاء فيها أرجي] . وسأل محمد ربه أن يخفف عدد الصلوات فخففها إلى أربعين صلاة ، ولقد دفعه موسى إلى أن يكرر الحاحة ، فخففها الله بمقدار عشر صلوات . وأخيراً ـ بعد أن تكرر تردده بناء على توصية موسى خففت إلى خمس صلوات ، وبعد أن رضى « محمد » ، ودّع موسى وانطلق طائراً [؟!] نحو الأرض ، وأنزله البراق فى المكان الذى كان قد أخذه منه قبل ذلك بعدة ساعات .

[تعليق]

[الكاتب لايحب ان يكون أميناً في العبارة ، فقد جعل البراق طائراً بعد أن قال من قبل إنه فرس . وربماكان جاهلاً ان البراق كانت مهمته نقل النبي من مكة إلي المسجد الأقصي . ثم صعد النبي على المعراج إلي السماوات العلي . ولماهبط من السماء نزل

على بيت المقدس حيث ركب البراق فعاد به من حيث أتي .]

[نتائج الخبر]

كتب علماء المسلمين مجلدات عن الاسراء ، وتركوا لخيالهم العنان ، فرسموا له صوراً خارقة ، وخلال بعض الملامح السامية - التى كانت تصلح لريشة الرسام « ميلتون » - أضافوا عديداً من الصور العملاقة ، والقصص الصبيانية ، ولقد التزمنا برواية محمد التى قصها بنفسه على قومه اذا صدق بعض المؤرخين ، ولكنه لم يتحقق له النجاح الذى كان ينتظره فلم تكن قريش سهلة الاقتناع. فسخرت من الحالم [؟!] الذى كان يريد أن يصدقه الناس بغير دليل . (١) .

ولقد همس اتباعه لأول مرة ،بل إن بعضاً منهم لم يستطع أن يقاوم السخرية التى انتشرت فى كل مكان . فساورهم الشك فى نبيهم وعادوا إلى الوثنية ، أما الباقون فقد تزعزعوا إلا أن محمداً وجد الطريقة التى يثبّت بها إيمانهم .

صدّق أبو بكر الإسراء ، وأكد إيمانه به وصدق حقيقته . وكان لشهادته وزن كبير ، فهدأت الضوضاء ، وأتاحت لمحمد الفرصة من جديد .. لكى يمارس سيطرته [؟!] على العقول بعد أن كادت هذه السيطرة أن تنهدم نتيجة عدم الحيطة ، ولقد استحق أبو بكر ذلك اللقب المجيد ألا وهو « الصديق » أى الشاهد الوفى .

[تعقيب]

[كما استحق سفاري وأمثاله السخرية ، لأنهم يزنون النبوات والروحانيات بغيرميزانها . ولقد كان حادث الإسراء اختباراً حتمياً لإيمان أصحاب النبي بالصلة التي بين السماء والأرض ، فعلي أساسها سيخوضون - بعد عامين أوثلاثة - أضري معارك سوف يكون زادهم الأول فيها إيمانهم بالسماء .]

---

(١) أبو الفدا [بالرجوع الى أبو الفدا لم نجد هذه الجملة طلاقاً . جـ١ ص ١٢٢ .]

[رد الرازي]

[قال الرازي : كما نقر بنزول الملك وهو « لطيف روحانى » من أعلي السماوات الي الارض رغم لطفه . فإننا لا نستبعد انتقال النبي - وهو جسم كثيف - من الأرض الي أعلي السماوات لتساوي الموقفين ، ولو طعنا في نزول جبريل علي الأنبياء لطعنا في نبوة المرسلين جميعاً . ومادمنا نسلم بها وجب التسليم بنبوة محمد ﷺ .]

[بيعة العقبة]

[البيعة الأولي]

وبينما كانت مكة تجادل فى «رؤيا محمد» ،كانت المدينة تدوى بالتمجيد له . فقد نتج عن نشاط المسلمين الجدد هناك زيادة الأتباع ، ورحل منهم اثنا عشر مسلماً [الي مكة في موسم الحج] ليقابلوا محمداً فى قصر العقبة [؟!] .

[ما أكذب المستشرقين ؟؟ فإن العقبة مكان لبني عكرمة بن وائل ، يقع علي يسار الطريق القاصد من مكة - بعد واقصة - وقبل « القاع » لمن يريد مكة (١) . ولم يكن به أي بناء . ولكن الكاتب يلون الماضي بالحاضر لغرض خبيث] .

وفى العقبة آمنوا بمحمد رئيساً لهم وعاهدوه علي الطاعة والإخلاص ، وأقسموا على ألا يجعلوا لله شركاء ، ولا يسرقوا ، ولا يزنوا ، ولا يقتلوا أولادهم (٢) .

ولقد سمى هذا القسم ببيعة النساء [؟] لأنهن عقدن بيعه مماثلة ،وتنص هذه البيعة على عدم الالتزام بحمل السلاح فى الحرب المقدسة (٣) .

[تعقيبان]

[١ - الكاتب يخطيء في بيان سبب التسمية . والحق أن السبب هو أن الله أنزل

---

(١) كان العرب يقتلون أولادهم خشية الفقر . وكانوا أيضاً يقدمونهم قرابين لأوثانهم جلباً لعطف الآلهة ، ولقد ألغى « محمد » هذه العادات الوحشية .

[(٢) تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى للدكتور حسن إبراهيم حسن ص٩٨ ط ٣ لسنة ١٩٥٣]

(٣) أبو الفداء ص ٤١.

بيعة النساء في سورة الممتحنة الآية ١٢ فيما بعد ذلك . وكان نص الآية هوالذى بايع عليه هؤلاء . فالتسمية ببيعة النساء تسمية متأخرة ونص الآية هو ﴿ياأيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك علي ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف ، فبايعهن واستغفر لهن الله . أن الله غفور رحيم ﴾ .]

[٢ - أراد الكاتب بقوله(أن البيعة تنص علي عدم الالتزام بحمل السلاح) الالتواء بالعبارة . فان البيعة لم تنص علي الالتزام ولا عدم الالتزام . بل سكتت عن موضوع الجهاد نهائياً . والسكوت عن أمر ليس نصاً فى شيء عنه . ولا نفياً ولا إثباتاً . وإنما يفهم حكم السكوت عنه من نصوص أخري ، وقد نزل حكم الجهاد بعد بيعة العقبة وقبل بيعة النساء في آيات كثيرة معروفة .]

[بيعة العقبة الثانية :]

[ويسميها أبو الفدا الأولى]

وبعد أن اعترف الانصار « بمحمد » رئيساً أعلى للدين(١) أعادهم إلى المدينة (٢) . وكلف « مصعباً » التابع المخلص بمصاحبتهم وتعليمهم . وكان عليه أن يعلمهم العبادات الخاصة بالدين الجديد . وأن يقرأ عليهم القرآن . ولقد قام بهذه المهمة خير قيام وعند وصوله إلى المدينة ذهب « أسعد » لاستقباله » وهو أحد الستة الأول - من الخزرج - الذين آمنوا برسالة « محمد » (٣) وجعله يقبل شقة فى

---

(١) [هذه لغة النصارى ، بينما الاسلام دين ودولة فهو لا يعرف نظام الكهنوت المسيحى]

(٢) سمى سكان المدينة الذين دخلوا الاسلام وبايعوا محمداً على السمع والطاعة وانضموا تحت لوائه بالأنصار .

(٣) فى الطبقات (١/١٤٦ - ١٤٧) أن هؤلاء ثمانية هم : من بنى النجار أسعد بن زرارة ومعاذ بن عفراء ، ومن بنى زريق - وهم أول قبيلة قرىء القرآن فى مسجدهم لأول مرة يقرأ القرآن فيها بمسجد - بايع معهم رافع بن مالك وزكوان بن عبد قيس ، ومن بنى سالم بايع عبادة بن الصامت ، وأبو عبد الرحمن بن زيد بن ثعلبة، ومن بنى عبد الأشهل من الأوس أبو الهيثم بن التيهان - حليف لهم من « بلى » ، من بنى عمرو بن عوف عويم بن ساعدة . وقيل إنهم ستة : هم أبو الهيثم ، وقطبة بن عامر بن حديد ، من بنى سلمة ، وعقبة بن عامر بن نابى من بنى حرام بن كعب ، وجابر بن عبد الله بن رئاب ، وأسعد بن زرارة ، ==

منـزله(١) .

أما أسيد [بن حصين ـ كما في أبي الفداء ، وأسيد بن حضير ـ كما في الأنوار المحمدية وابن هشام صحفت في أبي الفداء إلي «حصين»] وهو الأمير العربي . فقد خشي أن تحاك مؤامرة ضد الوطن ، ولهذا ذهب للقاء [مصعب وأسعد] وخاطبهما وهوممسك بالرمح فى يده قائلاً : ماجاء بكما إلى هنا ؟ هل جئتما تستطلعان أحوال قوتنا ؟ أخرجا من أسوار المدينة . واعتزلا إن كان لكما بأنفسكما حاجة . فقال له مصعب ـ فى سكينة : « إجلس وإستمع » ، وتناول جزءا من المصحف ، وقرأ له بعض الآيات ، وعرض عليه المبادىء الأساسية للإسلام ، فأعجب أسيد بالدين الجديد ، ودخل فى الإسلام . ولما كانت صلته وثيقة بسعد [ابن معاذ] سيد الأوس . فقد ذهب للقائه ، وحبذ إليه الدين الجديد وسعى به إلى قريبه [أسعد بن زرارة] فقال سعد بن معاذ :[أيها الأمير لولا قرابتك مني ما صبرت علي أن تغشانا في دارنا بما نكره] .

فقال مصعب : [أوما تسمع ؟ فإن رضيت أمراً قبلته ، وإلا عزلنا عنك ما تكره . فقال : أنصفت] .

عندئذ قام الرئيس الدينى الماهر [؟؟] فأخذ القرآن ، وقرأ أنسب الآيات التي ، يمكن أن يكون لها أكبر الأثر علي عقل « سعد » ولقد حالفه التوفيق فى مسعاه . فآمن سيد الأوس.

[دعوة سعد بن معاذ قومه]

وذهب سعد [بن معاذ] وهومفعم بالحماسة إلى حيث يجتمع زعماء قبيلته (٢) ، وأعرب لهم عن أعجابه بدين التوحيد ، وفخم لهم السعادة فى أن يصبحوا اتباعاً له . وألقى فى جميع القلوب بكل مهارته وإيمانه ، ونظراً لعجز الشعب عن مقاومة قدوةرؤسائه ، فقد استسلم له ،

== وعوف بن الحارث بن عفراء من بنى النجار (الطبقات ١ ص ١٤٧) وفى الدرر، قال ابن عبد البرهم ستة : أسعد وعوف بن الحارث ، ورافع بن مالك بن الفجلان وقطبة بن عامر بن حديدة ، وعقبة بن عامر بن نابى وجابر بن عبد الله . (الدرر ص ٧٠ : ٧١).]

[(١) الذي جاء فى الطبقات ١٤٨/١ وفى أبى الفداء ١٢٤/١ وفى الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ليوسف بن اسماعيل النبهانى ص ٥٢ هو أن مصعباً عول على أسعد بن زرارة . وقد حرفها سفارى الى كلمة « أسد » فذكرنا الصواب .]

(٢) أبو الفداء حياة محمد ص ٤٢ [١٢٤/١] .

وما أن أحنى أوائل الناس فى المدينة رؤوسهم لسلطان الإسلام ،بما يشبه الحريق الشاسع الذى يغذى أواره هبوب الرياح ، حتى اشتعلت المدينة بأسرها ، فيما عدا عائلة أمية بن زيد [صحفها سفاري إلى « سعيد »] فهى وحدها التى قاومت تسلط التجديد، واحتفظت بآلهتها . [وفي ابن هشام هم بنو واقف وبنو وائل وبنو أمية بن زيد . وفي الدرر هم حطمة وواقد وبنو أمية بن زيد (١) .]

[بيعة العقبة الثالثة (الأخيرة)]

عام ٦٢١٦ من هبوط آدم ـ حسب تقدير أبى الفداء ـ ٦٣١ م ـ صفر ق هـ ـ ٥٣ م محمد ـ ١٣ من البعثة .

أما مصعب ، فلم يترك عمله ناقصاً ـ فلكي يثبّت ايمان المسلمين الجدد ، سعى بهم إلى رسولهم [ﷺ] وذهب إلي مكة فى موسم الحج وفى صحبته ثلاثة وستون من أجلهم شأنا . وأخبر محمداً بأنه سوف يقابله فى « قصر العقبة » الذي يأوى اليه . [وقد عرفنا أنه لم يكن هناك قصر كمايفتري سفاري] وكان الموعد الذي ضربه لهذا هوالليلة التالية لذبح الذبائح . واستقبلهم « محمد » بحفاوه بالغة . وكان العباس عم «محمد » لازال كافراً (٢) . ولكن حماسته لدينه لم تجمد فى قلبه نداء الطبيعة ، ولعلمه بالهدف الذى من أجله حضر هؤلاء الأتباع الجدد إلي مكة وجه إليهم حديثاً فى العبارات التالية :

« يا أهل المدينة . أنكم لتعرفون من هو محمد . وما هو نسبه . ولقد فصلناه عن الشعب بسبب أفكاره ، وليس هناك أمثل من استقبالكم اللطيف ، ولا أنسب من المأوى الذى جئتم تعرضونه عليه ، فإذا كانت دعوتكم له مخلصة فكونواأوفياء لتعهداتكم ، ودافعوا عن دينكم وأسلحتكم فى أيديكم ، واحموا نبيكم من حقد أعدائه . أما إذا كنتم تخشون فأبعدوه عنكم ، ولا تستقبلوه لتخذلوه . »

[(١) [الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البرص ٧٣ ـ وأنظر أبو الفدا ص ١٢٤/١]

(٢) أبو الفدا ص ٨٥ [١٢٩] .

[تعقيب]

[هكذا أضاف الكاتب من خياله قوله « فصلناه عن الشعب بسبب أفكاره » والجملة التي بعدها . ولعل السبب هو جهل المستشرق باللغة . فان نص العبارة في أبي الفداء الذي يعول عليه (جـ ١ ص ١٢٩) وقد منعناه من قومنا (أي حفظناه وجعلناه كالوكان في حصن منيع) ففهم المستشرق أن المراد بمنعه فصله وهجره .](١).

[والدليل على صحة المعنى الذي نريده نحن هو قوله بعدها « وهوفي عز ومنعة في بلده ، والحق أن الأحقاد وليست الأفكار التي ذكرها سفاري ،هي سبب الخصومة والعداء ﴿ فإنهم لا يكذبونك . ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ ولكن الكاتب - وفي مقدمته للقرآن يضيف هذه العبارة ليشكك في هذه الآية « فإنهم لا يكذبونك]

[ولبيان كذب سفاري يراجع الطبقات (١٤٩/١) . وفي سيرة ابن هشام في هذا المقام مانصه : « أن محمداً حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو علي مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده) فأين هذا من قول سفاري « فصلناه عن الشعب بسبب أفكاره » ؟!] .

[رد الأنصار على حديث العباس]

رد عليه الأنصار بقولهم : لقد سمعناه وسنكون أوفياء لمواثيقنا ، وساد الصمت الاجتماع.

ولكى يهيىء « محمد » الأذهان للحفل الذي سيتبع هذا الحديث ، تليت سورة من القرآن تناسب الظرف . وحين انتهت القراءة نهض وقال : « أبايعكم وأعدكم ألا أترككم أبداً .(٢)

[(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص ١٢٤ - الطبقات : ١٤٩/١ - أبو الفداء ١٢٩/١ .]

(٢) ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله علي نصرهم لقدير ﴾ (الحج ٣٩) - يقول المفسرون إن هذه الآية هي الأولى التي أباح الله فيها لمحمد حمل السلاح للدفاع ، ولقد تكررت هذه الإباحة في آيات أخرى كثيرة ﴿ يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾ (التوبة ٧٣) - ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ (الأنفال ٤٠)

بشرط أن تدافعوا عني ضد أعدائي بالحماسة التي تدافعون بها عن نسائكم وأولادكم ، وسأله أتباعه : « واذا متنا في الحرب من أجلك ، فما جزاؤنا ؟ قال : الجنة . قالوا : « أمدد يدك » فمد يده وعندئذ يابعوه على السمع والطاعة ، وتعهدوا بأن يموتوا قبل أن يخونوا الله ورسوله ، ولقد أيدت السماء هذه الوعود ﴿والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم ، سيهديهم ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ (محمد : ٥:٦) وفي موضع آخر : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ... فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ (التوبة ١١١).

[تعقيب]

[وهكذا ـ في خبث ـ أراد الكاتب أن يصور وظيفة القرآن بالطريقة البدعية المعاصرة . فيجعل منه ترانيم لافتتاح الأحفال والاجتماعات . إذ يقول تليت سورة .. وحين انتهت القراءة نهض ﷺ وقال (حديثه)] .

[بينما الواقع : أن النبى نفسه هو الذي تلا القرآن بياناً لدعوته [1]. لأن القرآن نفسه هو الرسالة ومضمونه هو الدستور الذى عليه البيعة . وهو « الأيديولوجية » التى تحشد لدعمها القوي] .

[انتخاب النقباء للأنصار]

بعد هذا الافتتاح ، أراد محمد أن يوطد السلام بين أتباعه ، وكانت المدينة منقسمة بين الأوس والخزرج الذين ينتهون في نسبهم إلي أب واحد ، ولكن هذا الأصل المشترك لم يمنع من فرقتهم ، ولم يحل دون نشوب الحروب الأهلية بينهم [2] . وسمح النبى للمسلمين الجدد بالحديث وعرض شكواهم المتبادلة ، فأطفأ العداوات القديمة ، ودعا الي الوحدة والوفاق ، وأمرهم أن يختاروا اثنى عشر أميراً من بينهم . ليسهروا علي مصالح الشعب[3] فاختير تسعة

---

(١) [تهذيب سيرة ابن هشام ص ١٤٤ ـ الطبقات : ١٤٩/١ ـ أبو الفداء ١٢٩/١].

(٢) يرجع أصل الأوس والخزرج إلى « الازد » (بن زيد) بن كهلان بن سبأ بن يشجب (بن يعرب) ابن قحطان (المسمى قحطان فى سفر التكوين) ، بن عابر (أبو الفداء التاريخ العالمى) . [جـ ١ ص ١٠٥ و ١٠٧] .

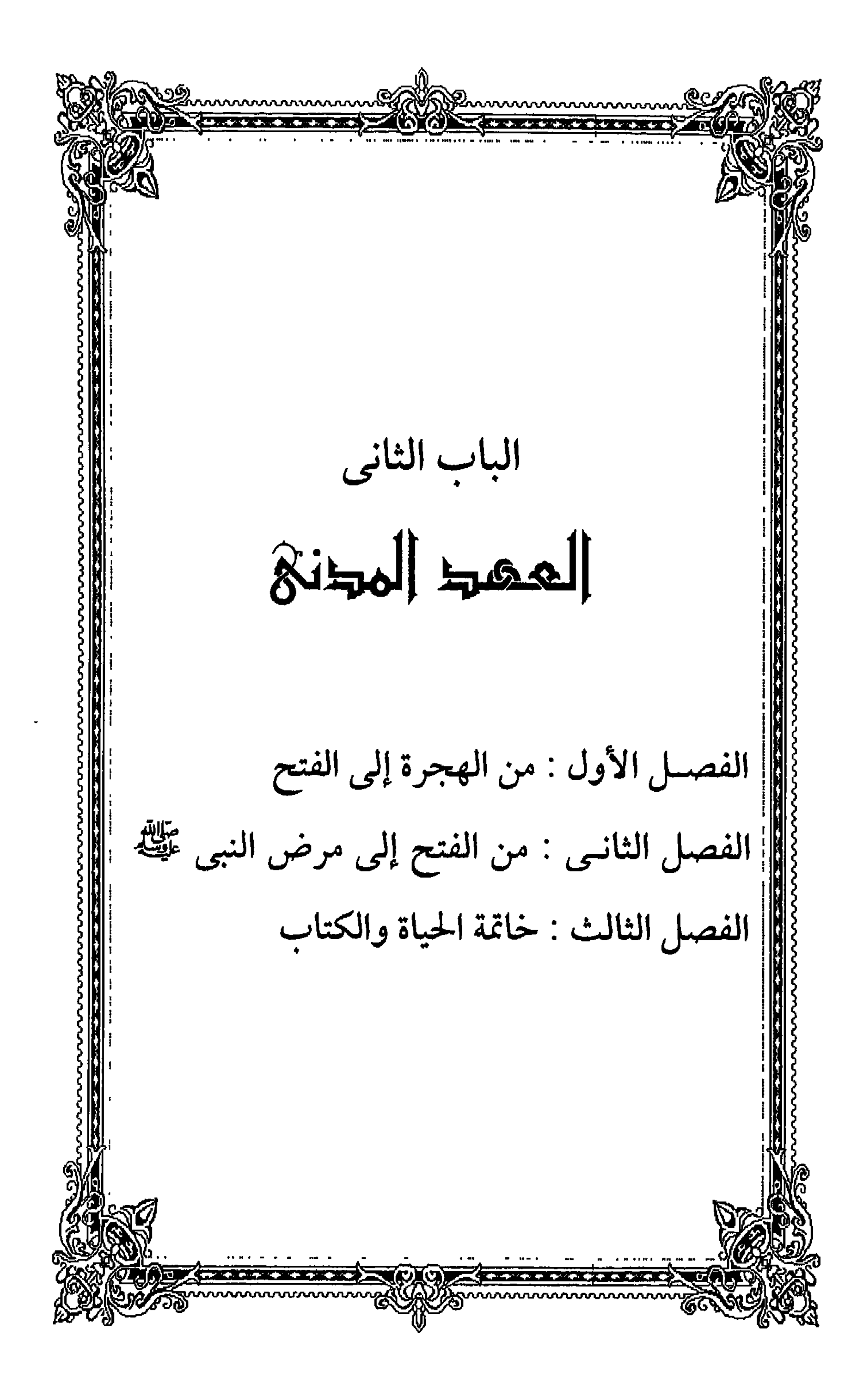
(٣) ابن اسحق : كتاب الأنوار [المحمدية من المواهب اللدنية ص ٥٤] .

من الخـرزج وثلاثة من الأوس (١) . فقال لهـم : إنى أجعلكم المسئولين عن الشـعب بنفس القوة التى كان بها اتباع عيسى ، وأنا المسئول ، ورئيس كل المؤمنين الحقيقيين .

وبعد أن نظم على هذا الـنحو شئون الدين أرجـع الأنصار الي المدينة ، وأمر جـميع المسلمين بالهجرة اليـها ، وبعث بأسرته الى هناك . وبعد أن أصبح لا يخشى أى خطـر الا ما كان يهدد حياته الشخصية دخل أسوار مكة وفى صحبته أبوبكر وعليّ وحدهما .

* * *

(١) احتـفظ لنا ابن اسحق بـأسماء الاثنى عـشر رسـولاً إسلامـياً . [تسمـيتهم رسلا خطأ من الـكاتب فهو يشبـههم بيولس وأمثاله ممن تـسميهم المسيحيـة المتأخرة رسلاً] وهؤلاء هم : من الخـزرج [أسـعـد بن زرارة] وسعد بن الربيع وعبـد الله بن رواجه ، و[رافع بن مالك] والبراء [بن مـعرور] وعبد اللـه بن عمر [بن حـرام] ، وعبادة [بن الصامت] ، والمنذر [بن عمروا] [وسعـد بن عباده] : أما الأوس فـهم : أسيد ، وسعـد بن ختيـمة [في الأصل الفرنسي ابن كتامة] ورفاعة [بن عبد المنذر . وقد اسقطه ابن هشام وعـد مكانه أبا الهيثم بن التيهان [أنظر الدرر لابن عبد البرص ٧٥ وسيرة بن هشام ص ٨٧٨].



الباب الثانى

العهد المدنى

الفصل الأول : من الهجرة إلى الفتح

الفصل الثانى : من الفتح إلى مرض النبى ﷺ

الفصل الثالث : خاتمة الحياة والكتاب

[الفصل الأول]

[من الهجرة إلى الفتح]

[في دار الندوة]

لقد رأينا محمداً - حتى الآن - وهويكافح ضد البغضاء ، ويواجه سبّ أعدائه بالصمت ، ويقابل قراراتهم القاسية بالثبات ، ومؤامرتهم بالحيطة ، ويستمر - رغم صخبهم - فى كسب أتباع جدد . لقد رأيناه يخضع للإسلام أمراء القبائل ، ويكسب بمبعوثيه تأييد ملك الحبشة ، ويعد بمهارته مأوى بالمدينة . وحتى الآن .. لم يظهر الا خلف الستار[؟!] إذ كان منفياً فى مكة ، وطريداً فى الطائف ، ومحاطاً بأعداء أقوياء .

[وهل الذى يطارد ياسفاري ، وينفي ويحاط بالأعداء ، يكون خلف ستار ؟! ولكن المستشرقين مختلو الميزان الفكري عندما يتصورون سيرة النبي محمد ﷺ فى ظلال العمل الصليبي العدواني] .

[ثم قال سفاري :] كل هذا [النفي والطرد والحصار] اضطره إلى أن يغطى سيره بالظلام ، لكى يظهر نفسه بعد ذلك علي مسرح أكبر . ففى الحقبة التي اعتقد أنه فيها أضعف من أن يظهر بدعوته فى وضح النهار لم يفرض على أتباعه قانون حمل السلاح ، وإنما بمجرد أن استطاع أن يتوقع بعض النجاح ، أنزل [؟!] من السماء الأمر بقتال الوثنيين ، والالتزام بالدفاع عن شخصه حتى الموت .

[ما أكذب سفاري في قوله (أنزل) ؟؟!! ﴿ إن هو الا وحي يوحي ﴾ ثم قال :]

ولم يتمكن [النبى] الا بعد آلاف العقبات - من أن يحول ضد أعدائه حقدهم ومؤامرتهم.. ولقد استفاد من الظروف . فقد كان الخطر يحدق به داخل مكة ، ولكنه إذا استطاع الهرب من سلاح أعدائه، فإنه سيستقبل - في المدينة - استقبال الفاتحين وسيصبح سيد الإنتقام . [؟!] .

[هذا هو التصور الصليبي الحاقد الذي ينكره القرآن في وصف النبي « محمد » وينكره الواقع التاريخي ، إذ أنه عندما دخل مكة فاتحاً ، واحتشد آلاف القرشيين بين يديه وكان قادراً علي ذبحهم ، أو علي الأقل ضرب الرق عليهم ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » فهو كما قال القرآن فيه صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ عزيز عليه ماعنتم

حريص عليكم ﴾].

[قرار الهجرة]

لم يتردد « محمد » فى اتخاذ قراره رغم ماكان يكتنفه من أخطار . وحدث ما كان يتوقعه. فقد كان المشركون على علم بارتباطاته مع أهل المدينة ، كما كان هروب أتباعه وأقاربه قد كشف لهم عن نواياه . ورأى المشركون أنه إذا استقبل فى المدينة بما يرتضيه فإنه يستطيع أن يسلح ضدهم قبيلتين قويتين .

هذا الخوف جعلهم يتخذون قراراً قاسياً ، هو القضاء علي عدو آلهتهم وعدو قوتهم. واجتمعت القبائل وبدأت المداولة (١) واتفقوا ـ فى صوت واحد ـ علي الموت . ولكيلا يثيروا عليهم عائلة بنى هاشم ذوى البأس الشديد ، قرروا اختيار فتى من كل قبيلة ليضربوا المذنب ضربة رجل واحد (٢) [حتي يتفرق دمه في القبائل فيضطر بنو هاشم لقبول ديته بدلاً من طلب ثأره في القبائل جميعاً] وتأجل تنفيذ القرار الدامى الى الليلة التالية . [حتي يتم اختيار هؤلاء الفتيان] .

[فشل المؤامرة]

ولما علم محمد بالمصير الذى كان يتهدده ، أخبربه علياً الشجاع ، وعهد إليه بوديعة ثمينة أمره أن يعيدها إلى صاحبها . كما أصدر إليه الأمر بأن ينام فى فراشه ، ويتغطى ببردته الخضراء ثم خرج . وبعد أن ضلل يقظة قاتليه ذهب إلي بيت أبى بكر وقال له : لقد آن الأوان .علينا بالهرب . إن السماء تأمرنا به . قال : هل سأتبعك ؟ قال إتبعنى وانطلقا ومعهما دليل هوالشاب المشرك عبد الله [بن أريقط] ولقد يسر الظلام إخفاء هروبهما (٣) .

---

(١) ابو الفداء حياة محمد ص ٥٠ ـ [١ ـ/ ١٣٢ والانوار المحمدية ص ٥٤] .

(٢) يقول الكتاب المحبون للعجائب : إن الشيطان دخل الاجتماع على شكل رجل عجوز. وقاوم كل الآراء التى لم تكن ترمى إلى الموت ، ويضيفون أنه عندما نطق أبو جهل بقرار الإعدام صفق العجوز فنال القرار التأييد الجماعى [أصل هذه الروايات ترجع إلى أسلوب المجاز . وتعنى أن شيخاً نجدياً تحدث بفكر شيطاني ، ولفظ الواقدى « إبليس في صورة شيخ كبير من أهل نجد » الطبقات ١٥٣/١ فحملها الجاهلون علي سبيل الحقيقة لا المجاز . ولم يذكر هذه الرواية ثقات المحدثين . فلم يردها الامام البخارى فى صحيحه جـ ٥ باب هجرة النبى ﷺ ص ٨٣:٧١] .

(٣) هذه الحقبة مشهورة عند المسلمين بالهجرة : ويبدأ منهاتاريخ الشرقيين ، وذلك فى العام الثانى عشر من = =

[المطاردة وقصة سراقة]

عام ٦٢١٦ من هبوط آدم - حسب تقدير أبى الفدا - ٦٣١م - صفر ق هـ - ٥٣م محمد.

ومع ذلك فقد أحاط القتلة ببيت محمد ،وفى يد كل منهم خنجر ينتظرون لحظة استسلامه للنوم لكى يضربوا ضربتهم ، وعندما لم يشاهدوا سوى علي مغطى ببردة محمد ، انتظروا حتي الصباح كيلا يأخذوا البرىء بجرم المذنب ، فلقد كانوا على ثقة من أنهم قادرون على ضحيتهم ، وأنه لن يفلت من حصارهم ، ولكن النهار كشف لهم خطأهم (١) ، وأدركوا أن محمداً قد هرب ، ولما لم يكن لديهم الأمربسفك دم على فإنهم تركوه لكى يسرعوا فى ملاحقه فريستهم . وانتشروا على الطريق الموصل إلي المدينة . ولكن « محمداً » كان يتوقع ملاحقة الاعداء فسلك طريقاً ملتوياً (٢) واختبأ فى غار بحبل « ثور » جنوب مكة ، ومكث فيه ثلاثة أيام ريثما تخمد حماسة المتآمرين وهى لا تزال في أول اندفاعها (٣) . [هكذا تنتصر الجاهلية

== امبراطورية هرقل (« أبو الفدا » فصل الاباطرة الرومان . أبو الفراج فى كتاب الاستدلال ، وتيوفان فى كتاب CHRONOLOGIE أى تاريخ الاحداث ص ٢٥٦.)

[وبرجوعى إلي أبى الفدا جـ ١ ص ٦٩ نجده يقول عن هرقل « وكانت الهجرة النبوية في السنة الثانية عشر من ملكه » فتكون الهجرة لمضى ٩٣٣ سنة لغلبة الاسكندر علي « دارا»]

(١) يقول المسلمون المتعبدون الذين لا يريدون أن يتركوا أى عمل من أعمال الرسول من غير أن يصبغوه بالمعجزات : إن محمداً أرسل النوم على القتلة بأن ألقى علي رؤوسهم حفنة من التراب وهو يقرأ بعض الآيات.

(٢) أبو الفدا ص ٥١ - [(١٣٣/١)وصحيح البخارى٧٦/٥]

(٣) وقد لاحظ بعضهم-وهم يتأهبون لدخول الغار ، أن المدخل قد غطى بنسيج العنكبوت ، وأن يمامة قد باضت على عتبته . عندئذ عادوا أدراجهم ، وهذه المعجزة المزعومة موثوق بها عند المسلمين مما جعلهم يوقرون اليمام.

[تعقيب] : [هذه القصة لم يذكرها الشيخان فى صحيحيهما ، ولا القرآن الكريم ، فهى ليست من العقيدة الاسلامية فى شيء . ودعوى سفارى « توقير اليمام » ليس لها من النصوص شيء ، وإن كان بعض العامة يحبون اليمام لهذا الذي قاله سفارى . ولكنه عمل أو عاطفة مظهرها نادر . والقصة إنما تحكى لتصور حقيقة إيمانية صورها البوصيرى بقوله : [وقاية الله أغنت عن مضاعفة : من الدروع وعن عال من الأطم]

المعاصرة للجاهلية الأولي ، فتظهر الكفار فى صورة منصفين عدول . كما تبرز الرسول فى صورة الهارب من يد العدالة] .

وغادر الغار فى اليوم الرابع موازياً ساحل البحر الأحمر ميمما وجهه يثرب فى خطوات سريعة ، لا يصحبه سوى أبى بكر وعبد الله [ابن أريقط] . ولقد أدرك الهاربين سراقة بن مالك ، وكان من أشجع فرسان العرب ، ومن خلفه فرقة مختارة من الفرسان(١) وكان قد سبق أصحابه وأنطلق فى اتجاه محمد . والرمح في يده ـ فصاح أبو بكر يارسول الله « هذا هو طالب الأذي » فرد عليه النبي قائلاً « لا تخف إن الله معنا» واستدار النبى نحو عدوه فجأة وصاح فيه « ياسراقة » ! فذعر الفرس من هذا النداء ، وانقلب علي الارض ، فذهل الفارس من سقطته ، وخيل اليه أن هذه السقطة الطبيعية ليست سوى معجزة من المعجزات . فطلب العفو من النبي ، وتضرع إليه أن يدعو له ، فدعا له محمد ، ونجا سراقة ، وتفوقت السماحة على الانتقام ، وأوقف سراقة اندفاع الأجناد وأمرهم بالرجوع .

[تعقيب :]

[هكذا يفسر المستشرقون الأحداث الغريبة بردها إلي السنن الطبيعية ، ونحن لا ننكر ان ترد الأحداث الي هذه السنن ولكننا نسأل : أليس سوق الله الأحداث الغريبة والسنن الطبيعية في خدمة عبد من عباده مكرمة يكرمه الله بها (٢) ؟ وقد رواه البخاري في صحيحه بإسناد صحيح عن سراقة نفسه ، وهو من الثقات الصالحين] .

[تبشير سراقة]

واذا صدق التاريخ فقد بشره النبي بهذه النبوءة إذ قال : [كيف بك يا سراقة إذا سورت بسوار كسري برويز؟!] (٣) .

---

(١) أبو الفدا ص ٥١،٥٣ ـ[١٣٣/١ والأنوار المحمدية ص ٥٨ وبالرجوع إلى أبى الفداء الذي أشار الكاتب إلى أنه مستنده فيما يقول ، لم نجد ذكر « فرقة ممتازة من الفرسان) كمازعم سفارى ، ولكن جاء فى الأنوار أن فتيان قريش كانوا يبحثون عن النبي مع غير سراقة ، وفى ابن هشام وغيره مما يثبت أنه خرج وحده.] .

[(٢)البخارى٥/٧٥:٧٧]

(٣) فى العام الخامس عشر من الهجرة أحضر أجناد عمر ـ بعد أن حققوا انتصارا عظيماً على « يزدجرد » = =

[في قباء]

وبعد أن أفلت « محمد » من الخطر استأنف السير حتى وصل إلى قباء - إحدى ضواحي المدينة ..وذلك يوم الاثنين الموافق ١٢ من شهر ربيع أول (١) فآواه كلثوم بن العدم [وقيل سعد بن خيثمة] في داره حيث مكث ثلاثة أيام ، وقبل أن يغادر هذه الضاحية وضع أساس مسجد سمي فيما بعد بمسجد التقوى (٢) .

[بلوغ المدينة]

ودخل المدينة يوم جمعة ، وتجمع الناس أمامه ، وتقدم رسول المسلمين [؟!] تحت ظُلّة من ورق الشجر يحملها أتباعه ، وتنازع الناس فى كسب شرف ضيافة الرسول ، وألح عليه الأنصار فى أن يقبل السكنى فى إحدى دورهم ، وأخذ بعضهم عناق ناقته لاقتيادها نحو بيته ، فقال لهم النبي [خلّوا سبيلها فإنها مأمورة] (٣) .

وأخيراً توقفت الناقة أمام مربد [سهل وسهيل] ابنى عمرو [بن عوف] (٤) فنزل الرسول وشق الجموع ذاهباً إلى بيت أبى أيوب الأنصارى .

[أول بناء للاسلام]

كان أول ما عنى به محمد هوأن يقدس بقداسة الدين المكان الذى نزل به عند دخوله المدينة، فاستدعى معاذ [بن عفراء] الذى كان وصياً على سهل وسهيل صاحبى هذه

== ملك الفرس - تاج وأساور هذا الملك المنكوب ، ونادى عمر سراقة الذى كان قد أسلم ، ولكى يعبر له عن تقديره - لشجاعته - ألبسه هذه الكنوز . لقد كان المشهد يدعو إلي السخرية إذ كان شعر سراقة المشيب وذراعاه الكثيفا الشعر ، مما لا يتسق فى هيئته ولونه مع الذهب واللؤلؤ والماس (جناب) .

(١) أبو الفدا ص ٥٢ - [١٣٣/١].

(٢) جناب [وأبو الفدا ١ /١٣٣].

([٣) عبارة سفارى « اركوها فإنها دابة عجيبة » والتصويب من الدرر ص ٩٣ وتهذيب سيرة ابن هشام ص١٦٨ .]

(٤) أبو الفدا ٥٣- (١٣٣/١]) [والمربد الموضع الذي يجفف فيه التمر وكان عند بيت أبى أيوب خالد بن زيد الانصارى] .

الأرض، وعرض عليه ثمنها ، ونظرا لغناهم فقد أرادوا أن يهدوها للرسول (١) فرفض وقام أبو بكر بدفع الثمن المتفق عليه .(٢)

[ولم يذكر أبوالفدا ماقاله سفارى . أن محمداً أمر أبا بكر بدفع الثمن . وإنما جاء هذا في الأنوار المحمدية ص ٦٠]

وبعد شراء هذه الأرض بنى عليها مسجداً ودارا لإقامته ، واشترك في إقامة البناء بنفسه مما شجع المسلمين على الاقتداء به لرغبتهم جميعاً فى أن يشاركوا فى البناء المقدس، وتمت أعمال البناء فى أحد عشر شهراً (٣) .

[زواج عائشة]

كان « محمد » يريد أن يرتبط بأبى بكر بجميع « أنواع الروابط » . وكان قد عقد على ابنته عائشة ، وهى مازالت طفلة مما جعله يؤجل الدخول بها ، ثم تزوجها بعد ثمانية أشهر من الهجرة ، وهى لم تتجاوز التاسعة من عمرها (٤) وبنى لزوجته الشابة منزلاً بجوار منزله ، وأولى هذه العناية لكل زوجة من زوجاته اللآتى عقد عليهن فيما بعد.

[هذا المنزل الذى ذكره سفاري ليس الا حجرة بسيطة تفتح علي المسجد]

---

(١) جنـاب ص ٧٤ والبخارى [**هكذا قال سفارى والحق غير ماقاله فقد روى البخارى فى صحيحه ٨٦/٥ وابن عبد البر فى الدرر ص ٩٣ وابن هشام فى تهذيب سيرة ابن هشام ص ١٧٠ أن معاذا هو الذي عرض الأرض هدية يسدد ثمنها لليتيمين سهيل وسهل**] .

(٢) أندفع « الدكتور بريدو» Prideaux وقال : إن هذه الأرض كانت ملكاً ليتيمين . وأن محمداً استولى عليها عنوة و طردهما منها بدون رحمة (حياة محمد ص ١١٦) ولم يشر الدكتور « بريدو» إلى أى كاتب ذكر هذه الواقعة التي تحتاج إلى دليل قوى ، ويقرر أبو الفداء وجناب والبخارى عكس ذلك ، ويؤكدون أن محمداً رفض الهبة التي عرضت عليه. فلقد كان « محمد» على درجة كبيرة من الكياسة والدهاء حتى لا يقع فى مثل هذا الظلم الصارخ وقت دخوله المدينة ..إن الإنسان الطموح لا يرتكب مثل هذا الظلم عندما تكون له مصلحة فى أن يظهر بمظهر العدل .

(٣) أبو الفداء « حياة محمد » ص ٥٨ [**١٣٣/١٦ . وبالرجوع الي أبو الفدا لم نجده ذكر تحديداً لمدة البناء ، كما زعم سفارى ، وروى غير ذلك : فقيل سبعة أشهر ، هامش الدرر ص ٩٤ والطبقات جـ ١ ص ١٦١ والأنوار المحمدية ص ٦٠**].

(٤) إن حرارة الطقس فى الجزيرة تعجل ببلوغ الانثى فى هذه السن ، ولقد كان القبط سكان مصر القدماء- يتزوجون الفتيات فى سن السادسة والسابعة ويعنون بتربيتهن فى بيوتهم حتى البلوغ ، وعندئذ يتمون مراسم الزواج .

[المؤاخاة]

وان حبه [ﷺ] للمتعة التى أنفق حياته فى سبيلها [؟؟] لم يكن ليعوق تنفيذ خطته. فقد كان عليه أن يوحد بين مصالح أتباعه المختلفة ، وأن يطفىء أحقادهم القبلية القديمة . وأن يوجهها كلها الى نفس الهدف . وكان المسلمون منقسمين إلى طائفتين هما المهاجرون والانصار (١) وكان المهاجرون يتفاخرون بأنهم كانوا أول من اعتنق الإسلام ، وبأنهم هجروا وطنهم لكي يتبعوا رسولهم ، ويطالبون بأن يكون لهم الصف الأول .

أما الانصار فقد كانوا يتفاخرون بأنهم أول من قدموا المأوى للرسول ، وبأنه يعيش فى وسطهم ، وبالتالى فهم أجدر بالامتياز والتفضيل (٢) . ولقد نشأ عن هذه المزاعم والدعاوى مناقشات كادت تؤدى إلى نتائج سيئة . إلا أن محمداً عرف كيف يوفق بينهم ، فسن بين أتباعه قانون « الأخوة » الذي كان مبدؤه الجوهرى هو النص على أن يتعامل المسلمون مهاجرين وأنصاراً ويتحابوا فيما بينهم كإخوان ، وأن يجمعوا أسلحتهم للدفاع عن الدين ، واتخذ لنفسه أخاً فى السلاح ، وهو على بن أبي طالب ، ثم آخى بين الزعماء الرئيسيين . [لاحظ التشيّع المغرض في قول سفاري] .

ولكى يوثق هذه الوحدة أنزل من السماء هذه الآية ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً (٣)
[وكبرت كلمة تخرج من فم سفاري « أنزل من السماء هذه الآية ..» وبالرجوع إلي مراجع سفاري وغيرها لم نجد مازعمه من انقسام المسلمين عقب الهجرة ، وإنما كان الإخاء يظلهم ، والآية لم تنزل في المهاجرين والأنصار وإنمانزلت في العرب قبل الإسلام ، فلما جاء الإسلام أزال الشحناء من بينهم وآخي بين المجتمعين علي عقيدته]
[ثم قال سفاري :]

وقد وطد قانون الأخوة الوفاق بين المسلمين . فكلمة « مهاجرون » أو « أنصار » لم تكن

---

(١) المهاجرون هم المسلمون الذين هجروا مكة واتبعوا محمداً . والأنصار هم سكان المدينة الذين اعتنقوا الإسلام.

(٢) أبو الفدا ص ٥٣ - [٣٤/١] وجناب ص ٧٥.

(٣) آل عمران : ١٠٣ .

سوى ألقاب مجيدة مجردة من أية دلالة للتفضيل أو الامتياز . وأصبحت المساواة هي الرابطة الوثيقة التي وحدت بينهم .

[القبلة الأولى]

وبعد ذلك أخذ محمد يوجه كل عنايته إلى الدين . فالصلاة - التي هي أساس الشعائر الظاهرة - شرع يثبتها بصورة نهائية ، وكان قد قررها في بداية بعثته ، ولكنه لم يكن قد حدد الجهة التي تؤدى في اتجاهها (1) ولقد اعتمد على هذه الآية الرائعة ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله . إن الله واسع عليم (2) ﴾

وأراد أن يكسب تأييد اليهود والنصارى وقرر أن تكون قبلةالصلاة هي معبد «أورشليم»

[تعقيب]

[أي استرضاء هذا ؟ . ولم يكن للنصاري شأن يذكر في المدينة ، كما أن النبي لم يعبأ باليهود إذ أن تغيير القبلة وقع قبل أن يمضي عامان علي لقائه باليهود . بعد ستة عشر وقيل سبعة عشر شهراً من مقدم النبي المدينة] (3) .

[تغيير القبلة]

عام ٦٢١٧ من هبوط آدم حسب تقدير أبي الفداء - ٦٣٢م - ٥٤ م محمد - العام الأول من الهجرة .

ولم تأت هذه المجاملة بالنتيجة التي كان يرجوها ، إذ كانت الظروف هي التي أملتها ، ولما أصبح رئيس التشريع الديني والتشريع المدني ، أخذ يتبع سياسته وسعى إلى كسب قلوب العرب جميعاً . فجاءه جبريل بهذه الآية التي يتحدث فيها الله عن قبلة الصلاة : ﴿قد نرى

---

(1) يتوجه اليهود في صلاتهم إلى أورشليم ، والعرب في اتجاه مكة ، والصابئون نحو نجمة الشمال . وقدماء الفرس عباد النار نحو الشرق .

(2) سورة البقرة : [115] .

(3) [الدرر ص 109] .

تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام (١) ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم﴾ (٢) فاستقبل هذا الوحى بالتهليل ومازال هذا القانون سارياً حتى اليوم .

[تعقيب]

[هكذا يحاول الكاتب تجريد الرسول من صفة النبوة ، وتجريد التشريع الإسلامي من كونه « إلهي المصدر ووحيا من الله ، فيقول أصبح « ﷺ » رئيس التشريع الديني والتشريع المدني - ليسلخ من الأذهان قدسية الأحكام القانونية ، ويمحو منها الإيمان بقدسيتها ، والحق أن النبى ليس صاحب الشرع وأنما هو مبلغ الشرع ﴿ شرع لكم من الدين ما وصي به نوحاً والذى أوحينا إليك ﴾ الشوري ١٣ ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ الحاقة ٤٤-٤٦]

[مشروعية الأذان]

وكان متردداً فى اختيار الطريقة التي ستتبع فى نداء الناس الى المسجد (٣). فلم يعجبه البوق الذى يستخدمه اليهود ، ولا الناقوس الذى يستعمله النصارى ، ووجد أن صوت الإنسان أصلح للتأثير على الناس من الرنين الزائف . ولم يكن يحتاج إلا إلى تحديد الصيغة المطلوبة فجاءت بها رؤيا مزعومة رآها عبد الله بن يزيد ، فأمر بلالا ، مؤذنه بأن ينطق فى المواعيد المقررة بالكلمات التالية : الله أكبر [أربع مرات] أشهد أن لا إله إلا الله [مرتين] أشهد أن محمداً رسول الله [مرتين] حى على الصلاة [مرتين] حى على الفلاح [مرتين] [النص الفرنسي « على العبادة »] الله أكبر [مرتين] لا إله إلا الله .

---

(١) كلمة « حرام» معناها « الممنوع » . ولقد سميت الكعبة كذلك نظراً للاحترام العميق الذي ينبغى لكل إنسان أن يحمله فى نفسه وهو داخل إليها ، ويقول البعض إن سبب التسمية هو أن امرأة دخلت الكعبة وهي غير طاهرة فحّرم على النساء دخولها .

(٢) القرآن سورة البقرة [١٤٤] .

(٣) ابن اسحق [أبو الفداء ص ١٣٤ والبخارى جـ ١٥٧/١ والطبقات جـ ١ القسم الثاني ص٧].

[تعقيب]

[ولماذا التشكيك في المروي من رؤيا الأذان . وهو أمر جائز عقلاً ولا دليل علي تكذيبها؟ حقاً ان البخاري لم يذكر حديث الرؤيا ولكنه يقول - بصيغة المبني للمجهول - فأُمر بلال أن يشفع الأذان ، وأن يوتر الإقامة . وترك البخاري لها لا ينفي صحتها ، وليس معني ترك البخاري للحديث عدم صحته ، وتعمده إيراد الفعل ، فأُمر بلال ، بصيغة الفعل المبني للمجهول تجعلنا نشك في أن الأمر النبوي لم يكن قبل ترو ومشورة وروية] .

ومنذ تلك اللحظة عنى المسلمون بتعيين مؤذنين فى مساجدهم يرددون هذه الكلمات خمس مرات كل يوم (١) .

[الصوم]

وبعد الانتهاء من هذه الفريضة الدينية ، قدس [؟!] عن طريق القرآن الزمن الذي نزل فيه القرآن . فتقرر (٢) الصوم فى شهر(٣) رمضان وجعلت منه الآيات التالية ركناً أساسياً من أركان الإسلام . ﴿ يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب علي الذين من قبلكم لعلكم تتقون .. شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ...(٤) ﴾.

---

(١) هذه هى الكلمات التى يرددها المؤذنون من فوق المآذن فى الفجر وفى الظهر والساعة الثالثة [العصر] وفي غروب الشمس وبعد الغروب بحوالى ساعتين [العشاء عندما يغيب الشفق الأحمر بعد نحو ساعة وثلث] .

(٢) أبو الفداء ص ٥٥ - [١٣٤] .

(٣) رمضان مشتق من الرمد أى الملتهب . ولقد سمى هذا الشهر كذلك لأنه كان فى السنة الشمسيه عند قدماء العرب يأتى فى أشد الاوقات حرارة .

(٤) البقرة: ١٨٥].

[الغزوات]

[سرية عبد الله بن جحش]

ولم تكن الحماسة التي كان يباشر بها شعائر الدين والطقوس الدينية لتحول بينه وبين أن يراقب خطوات أعدائه . وكان قد أرسل من قبل عدة حملات للغزو ولكنه لم يكن قد وقع أى اشتباك بعد . ولكى يتابع عن كثب تحركات قريش بعث بعبد الله بن جحش على رأس تسعة جنود وأمرهم بالتوجه إلى « نخله» وهوواد يقع بين مكة والطائف(1). والكمون هناك . وبينما هم يضطلعون بمهامهم إذ بقافلة لقريش تمر بالقرب منهم . فنهبوها وعادوا إلى المدينة محملين بالغنائم . ولقد جدد هذا النجاح الطفيف الأمل فى نفوس أصحابهم ، واستفاد منه محمد لكى يؤهلهم لتحقيق نجاح أكبر .

[تعقيب :]

[يفتري « سفاري » على رسول الله وعلي التاريخ الكذب . فالمعلوم أن النبي لم يأمر بالنهب ، وقد ثار النبي وأصحابه لماحدث وقال رسول الله : (ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام) وأبي هو وأصحابه أخذ أي شيء من الغنيمة حتي نزلت الآية ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله ، وكفر به ، والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل . ولا يزالون يقاتلونكم حتي يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾ (البقرة ٢١٧)(2)]

[بــــدر]

ونقلت إليه عيونه بأن قافلة قريش عائدة من سوريا وبها ألف بعير محملة بكل نفيس ، وكان أبو سفيان على رأس ثلاثين رجلاً يحرسون القافلة . وعلم أبو سفيان عن طريق عيونه أن الأعداء يعدون كميناً له ، فأرسل رسولاً إلى مكة ليبلغهم بالخطر الذى يحيط به . فانطلقت طلائع مكة لنجدته . وكان عددهم تسعمائة وخمسون ، وفى مقدمتهم مائة فارس . أما محمد

---

(١) أبو الفدا [١٣٤] وصف الجزيرة العربية ص ٥٥.

[(٢) تهذيب سيرة ابن هشام ١/ ١٩٠ - ٢٩١ والدرر ص ١٠٨]

فقد ترك مقاليد حكم المدينة لعمرو[1] [عبد الله] بن أم مكتوم ، وخرج فى شهر رمضان[2] ولم يكن معه سوى ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً هم جميعاً من المهاجرين والأنصار ، وكلهم مصممون على النصر أو الموت . وكانت قوة الفرسان تتألف من فرسين وستين بعيراً . ولما وصل النبي « الصفراء » [3] ـ وهى ميناء على البحر الأحمر ـ علم محمد أن القافلة تقترب من بدر ، وأن المشركين يتقدمون للدفاع عنها . فانطلق على الفور وسار مسرعاً حتى سبق أعداءه وعسكر فى طريقهم . وتحصن بالقرب من آبار بدر ، وسيطر علي الماء ، وانتظر قدوم قريش ، وهو فى هذا الموقع الممتاز . وما لبث أن ظهرت قريش ، وهو جالس مع أبى بكر فى عريش من ورق الشجر أقامه له الجنود فصاح متضرعاً [« اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذّب رسولك . اللهم فنصرك الذي وعدتني . اللهم أحنهم (أهلكهم) الغداة »]

وماكاد الجيشان يتقاربان حتى برز في ميدان القتال من جانب قريش عتبة وشيبة [ابن ربيعة] والوليد [ابن عتبة]. فأرسل محمد للقائهم عبيدة [بن الحارث] وعلياً وحمزة. واشتبك المتحاربون وحاربوا بشجاعة دفاعاً عن شرف معسكرهم . وأسرع كل من حمزة وعلى بعد أن هزما خصميهما الى نجدة عبيدة [بن الحارث بن المطلب] ـ الذي كان يدافع بشجاعة برغم أن ساقه قطعت [4] ـ وقضوا على خصمه [عتبة ابن ربيعة] وتركوه الى جوار زميليه ممدداً علي الرمال . كان هذا النجاح بشيراً بالخير فى نظر المؤمنين [5] وتضرعوا إلى رسولهم بألا يعرض حياته للخطر ، وأن يبتهل إلى السماء وهم يقاتلون .

وتظاهر [؟!] بأنه يستسلم لإلحاحهم . وبدافع من الحقد والتعصب اشتبك الجيشان بضراوة وعنف . كان المشركون يفوقون المؤمنين فهم ثلاثة أمثالهم ، ولكن محمدا كان يقود المؤمنين ، وبينما هم يصدون جهود أعدائهم بتفوق كان محمد يوجه هذا الدعاء الي السماء : [(اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لاتعبد)]

[(1) التصويب من سيرة ابن هشام ١/١٩٧ والدرر ص ١١٠ ويسمى عبد الله بن أم مكتوم]

(2) أبو الفدا [ص ١٣٤، ١٣٥] ص ٥١ وابن اسحق .

(3) [الصفراء : واد فوق ينبع مما يلي المدينة ، بينه وبين بدر مرحلة] جغرافيا الإدريسى .

(4) أبو الفداء ص ٥٨ [١٣٥] [وليس فى أبى الفداء ذكر لشجاعة عبيدة وقطع ساقه ، ولكنه فى الأنوار المحمدية ص ٦٥،٦٦ ولعله من مراجع سفارى] .

(5) جناب .

وبدا كأنه يرى الملائكة تطير فى نجدته [بل كان يراهم] كان وجهه مشرقاً وأسرع إلى المحاربين وأخبرهم بالمدد الإلهى وحمل إلى قلوبهم الفرح فالتهبت بالحماسة .

ولقد هيأت هذه الآيات المؤمنين لتصديق أى شىء ببدر ... ﴿ إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسةآلاف من الملائكة مسومين ﴾(١) ولقد تخيل المسلمون [بل أيقنوا] أن جنود السماء يحاربون إلى جوارهم فاعتقدوا أنهم لن يقهروا فقاتلوا ببسالة منقطعة النظير . ولقد لاحظ قائدهم وهو رابط الجأش وسط الملحمة أن المشركين بدأوا يتراجعون [وهذا مالم يقله أحد إلا خيال المستشرق الخبيث] ففكر فى حيلة جديدة فأخذ حفنة من التراب وألقى بها فى وجه قريش وقال : [شاهدت الوجوه] [والنص الفرنسى] « لتغشى الظلمات الوجوه ، تشجعوا واحملوا على الأعداء أيها الرفاق النصر لكم » [هكذا قال مالم يقله النبى] . عندئذ بذل المسلمون جهداً أخيراً وحطموا ما بقى من مقاومة وانطلق الأعداء مولين الأدبار . وكان النصر مدوياً وحصل المنتصرون على غنائم عظيمة (٢).

[حصاد المعركة]

ولقد تركت قريش فى ساحة القتال سبعين قتيلا وأسر منهم عدد مماثل ، وكان بين القتلى أربعة وعشرون من أشرافهم من بينهم أبو جهل (٣) وقد ألقى بهم محمد فى حفرة ، أما محمد فلم يفقد سوى أربعة عشر جندياً منحوا لقب

---

(١) القرآن سورة آل عمران [١٢٤-١٢٥)].

(٢) ينسب كثير من المؤرخين العرب هذا النصر إلى الإعجاز . إذ حارب فى صف المسلمين ملائكة يلبسون جلابيب طويلة وعمامات صفراء ويركبون أفراساً بها نقاط بيضاء وسوداء (حلال الدين) ولقد لاحظ مشركان كانا يرقبان المعركة من فوق تل ، سحابة فيها سرية من الملائكة ، وسمعاً صهيل خيولهم وصوت جبريل يقول اقترب ياحيزون (وهو اسم فرسه) وقتل أحد هذين المشركين بسهم اخترقه ، وكاد الآخر أن يموت من الرعب (ابن اسحق) . هكذا كان تأثير محمد على عقول العرب الذين نسبوا الى الاعجاز انتصارات ترجع إلى التعصب [؟!] الذى عرف كيف يلهمهم به .

(٣) أبو الفداء ص ٥٩ [١/١٣٥].

الشـهداء . ولـقد نسب الفضل فى نصـر ذلك اليوم إلى الله القـوى القدير .﴿ ولقـد نصركم الله ببـدر وأنتم أذلة ﴾ (١) ﴿ إذ تسـتغيثـون ربكـم فاسـتجاب لـكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين(٢) ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم﴾(٣) .

لقد تمكن محمد بيث فكرة أن هناك إله يحمى جيشـه أن يجعل المسلمين لا يغلبـون وقدم على ـ تلميذه وهو فى سن الثانية والعشرين ـ أدلة فى هذه المعركة على بطولته مما جـعل محمداً ينظر اليه على أنه اله الحرب فى الشرق . [معاذ الله أن يكون محمد رسول التوحيد كذلك] .

ولقد قتل على « سبعة من المشركين بيده . ومكث محمد ثلاثة أيام فى ساحة القتال ودفع به الخلاف على تقسيم الغنائم إلى سن هـذا القـانون ﴿ واعلمـوا أنما غنمـتم من شىء فـأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ...﴾ (٤) .

[هكذا قال المستشرق بناء على اعتقاده الفاسد أن القرآن كتاب نسج النبى آياته وأحكامه بنفسه وسبق الرد عليه] .

وكان من بين الأسرى النضـر وعقبة عدواه اللدودان فـأمر بقتلهمـا . وعاد إلى المدينة حيث استقبل استقبال الفاتحين . وانتشر نبأ انتصاره فى كل الجزيرة وعبر البحار . ولما علم به ملك الحبشه (٥) دعا جعفر واخوانه وحمل اليهم خبر هزيمة قريش (٦) .

---

(١) القرآن سورة آل عمران

(٢) القرآن سورة الأنفال .

(٣) القرآن سورة الأنفال . (٤) القرآن سورة الأنفال .

(٥) لما علم ملك الحبشـة بهزيمـة قريش ببـدر ، نزل عن عرشـه وارتدى ثوبين وجلس على الأرض واحـضر جـعفـر وإخـوانه وسألهم : من منكم يعرف بدراً قـالوا : إننا نعرف هذا الوادى معرفـة تامة قـال وأنا أيضـاً أعرفـه . فعندمـا كنت راعياً فى الماضى كنت أرعى الغنم على ساحل البحر الأحـمر (لما طرد النجاشى من مملكتـه لجأ إلى الجزيرة العربيـة وتنكر فى زى راع وأضـاف أن الله أيد رسوله ببـدر ونصـره على أعدائه ، فـاشكروا الله على نعمته (أبو سعيد فى كتاب الأنوار) .

(٦) يحدد أبو الفدا ـ [١٣٦] [ويوسف النبهانى فى الأنوار المحمدية ٦٩] وقت هذه الحادثة بأنه فى العام الثانى للهجرة ، بينما جنّاب و El coda و Elmacin يقررون أنها كانت فى السنة الثالثة .

[إجلاء بنى قينقاع السبت ١٥ شوال سنة ٢ هـ .]

وكان اليهود المقيمون حول المدينة أقوياء ، وكان محمد قد عقد معهم حلفاً . غير أن إحدى قبائلهم وتدعى بنى قينقاع نقضت العهد (١) . ولم يكن النبى يتمنى شيئا مثل إخضاعها بمهاجمتها على انفراد . فأنتهز الفرصة وقام بفرض الحصار حول قلعتها . فاعتصموا بها ودافعوا بشجاعة مدة خمسةعشر يوماً . وشن المسلمون هجمات جديدة . فلم يجد اليهود بداً من الخضوع للقوة واستسلموا حسب طلب النبى . ولكى يلقى الرعب فى قلوب قبائل اليهود الأخرى ، قيد أيديهم خلف ظهورهم وقرر قطع رؤوسهم جميعاً .

ولما كانوا فى الماضى حلفاء الخزرج فقد سعى عبد الله بن أبى بن سلول المنافق (٢) وأحد أشراف الخزرج للتوسط لهم ولم ييأس من العمل على التخفيف من قسوة القرار وقال : «يارسول الله أعف عنهم قال له : اتركنى قال : لن أتركك قبل أن تحسن إلى موالى .ثم وضع يده على قلب محمد وقال « إرحمهم » فلم يستطع محمد أن يقاوم وقال له : « أنهم لك » . نجا اليهود من الموت ولكن أموالهم وزعت على الجنود المنتصرين .

[غزوة السويق فى ٥-١٢- ٢ هـ]

بعد هزيمة بدر ، أقسم أبو سفيان ألا يتطيب ولا يقرب نساءه إلا بعد أن يقاتل محمداً فى معركة ثانية (٣) . فخرج من مكة على رأس مائتى فارس حتى عسكر على بعد ثلاثة أميال من

---

(١) وقام صائغ من قبيلة بنى قينقاع بعمل أساء به إلى عرض امرأة عربية كانت تبيع اللبن فى السوق . فغسل مسلم العار بدم اليهودى السافل . فقتله اليهود . فشب الخلاف بين الطرفين وذهب محمد الى حيهم وطلب منهم الدخول فى الإسلام [؟!] حتى يظفروا بالعفو عن جريمتهم فرفضوا بعناد فحمل السلاح ضدهم . هذا هو سبب الحرب كما أورده جنّاب .

(٢) عبد الله بن أبى بن سلول أمير من قبيلة الخزرج كان أحياناً صديقاً لمحمد وأحياناً أخرى عدواً له . فقد كان يعارض مشروعاته أو يخدمها حسب الظروف . وكان السبب فى تسميته بالمنافق هورفضه الاسلام فى صلابة [**بل كان يخفى الكفر ويظهرالاسلام**] ولقد اقترح كثير من ضباط محمد الاطاحة برأس هذا الكافر ولكنه كان دائماً يرفض أجابتهم لطلبهم .

(٣) أبو الفداء[**١٣٦**] حياة محمد ص ٦١ [والأنوار المحمدية ص **٦٩**] .

المدينة . ولما علم النبى بالخبر امتطى جواده وانطلق فى طلب العدو غير أن أبا سفيان لم يوف بوعده . ورعب لما رأى المنتصرين فى بدر يقتربون منه ، وأسرع إلى الهرب . ولكى يخفف فرسانه من حملهم ، ألقوا بأكياس مملوءة بالدقيق كانت معهم . ولما لم يتمكن المسلمون من اللحاق بهم عادوا إلى المدينة . وسميت هذه الغزوة بغزوة الدقيق (السويق).

[غزوة سليم بالكدر]

[فى أواخر رمضان سنة ٢ هـ وقيل فى منتصف المحرم سنة ٣ هـ]

وما كاد المسلمون يضعون السلاح حتى حملوه من جديد . فقداحتشدت قبيلتا بنى سليم وغطفان من قرقرة الكدر (وهو اسم بئر على الطريق الذى يمر به سكان الأقاليم المجاورة للأراك وهم فى طريقهم إلى مكة) (١) كان يهم محمدا ألا يترك للأعداء الوقت لكى يتحصنوا . فسلم زمام حكم المدينة لابن أم مكتوم وذهب يهاجمهم . أما بنو سليم فلم ينتظروه وأنما تفرقوا وتركوا لأعدائهم رعاتهم وقطعانهم التى أخذت الى المدينة .

[زواج على بفاطمة]

وأراد محمد أن يكافىء علياً الشجاع على ارتباطه الوثيق بشخصه فزوجه بفاطمة ابنته الغالية (٢) وكان عمرها خمسة عشر عاماً (٣) واذا صدق الكتّاب الشرقيون فإنها كانت تتوفر فيهاكل صفات الكمال وأنها جديرة بأن تكون إحدى النساء الصالحات الأربعة المتصفات

---

(١) أبوالفداء : ص ٦١ - [ط ص : ١٣٧] وجنّاب [ويقال له أيضاً : قرارة الكدر وهو ناحية معدن بن سليم بن منصور وهومعدن ذهب قريب من الارحضية وراء سد معونة وبين المعدن والمدينة ثمانيةبرد - ٩٦ ميلاً . وهم غير بني سليم عمرو بن حلوان من قضاعة ملوك الشام وغير سليم بن فهم الدوسى . وقال أبو الفداء قرقرة الكدر ماء مما يلى جادة العراق الي مكة (أبو الفداء جـ ١ ص ١٣٧) والأراك : جبل لهذيل كما فى القاموس المحيط وذورارك واد باليمامة وأرك أيضاً طريق فى فقاحضن .وحضن جبل بنجد .]

(٢) فى ليلة الزواج صحب محمد ابنته الى الشاب علي بن أبى طالب وكان يسيرا أمامهما جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ومن خلفه ستون ألفا من الملائكة يكونون موكب العروس وكانوا ينشدون التراتيل والتسابيح لله تعالى حتى مطلع الفجر (أحمد بن يوسف : التاريخ العام : الجزء الخامس والتسعون) [لم يصح ما ذكره الكاتب ولم يروه أبو الفداء ولا صاحب الانوار المحمدية عند ذكره قصة زواج علي بفاطمة ص ٧٠].

(٣) أحمد بن يوسف : نفس المرجع .

بالكمال (١) واللاتى زينت الأرض بوجودهن .

[رثاء أمية ابن أبى الصلت]

كان موت أمية المفجع ـ الامير المشرك ـ قد جعل نهاية هذا العام مشهوراً . إذ كان قد تعلم الكتب السماوية وأنكر علانية رسالة محمد . ولكنه فكر بعد ذلك فى نجاح هذا المبتدع وامتلأت نفسه بالغرور لمقدار ما حصل عليه من المعرفة وقرر أن يدعى النبوة .

وكان رأسه مفعما بأفكار العظمة التى تهتف به وهوعائد من سوريا فى طريقه الى مكة لتنفيذ خطته . ولما مر بالقرب من بدر دله الناس على البئر التى دفن فيها أشراف قريش ومن بينهم عتبة وشيبة [أبناء ربيعة وهما] إبنا أخيه (٢) . فلما رآها نزل من فوق دابته وقطع أذنيها وأنشد قصيدة رثاء احتفظ لنا منها أبو الفداء بالأبيات التالية :

[ألا بكيت على الكرا م بنى الكرام أولى الممادح]

[كبكا الحمام على فرو ع الأيك فى الغصن الحوانح]

[يبكين حزنى مستكينا ت يرحن مع الروايح]

[أمثالهن الباكيا ت المعولات من النوايح]

[ماذا ببدر والعقنـ قل من مرازبة جحاجح(٣)]

[شمط وشبان بها ليل . مغاوير وحاوح (٤)]

[ان قد تغير بطن مـ كة فهى موحشة الأباطح]

وبعد أن نطق أمية بهذه الكلمات ، استسلم الى الحزن واليأس وسقط ميتاً فوق الأجداث

---

(١) فى رأى العرب أن هؤلاء النسوة الأربعة هن امرأة فرعون ومريم وخديجة وفاطمة

(٢) أبو الفداء حياة محمد ص٦٣ [١٦/١٣٧] [وفيها انهما ابنا خال أمية المذكور وليسا ابني أخيه]

(٣) [الجحاجح : جمع : جحجح : السيد الكريم السمح ولا يقال ذلك للمرأة .]

(٤) [الوحاوح : جمع وحوح : وهو الرجل الشديد القوة النشيط فى عمله ، والخفيف البدن «لسان العرب»]

التى رآها (١) .

[مقتل كعب بن الأشرف] :[١٤ ربيع الأول سنة ٣ هـ]

عام ٦٢١٨ من هبوط آدم حسب تقدير أبى الفداء - عام ٦٣٣ من ميلاد المسيح عام ٣ من الهجرة - عام ٥٥ من ميلاد محمد .

وفى العام الثالث الهجرى أنجبت فاطمة ابناً لعلى سمى الحسن . وفى نفس العام أهدر محمد دم كعب بن الأشرف أحد رؤوس اليهود فى المدينة وكان قد أعلن عداءه لمحمد وقرض الشعر الذى ينفس به عن حقده (٢) . وما أن علم بهزيمة قريش حتى ذهب إلى مكة يحرضها . وأصبحت قصائده فى هجاء المسلمين وفى رثاء قتلى بدر على كل لسان فأشعلت فى القلوب الرغبة فى الانتقام .

وبعد أن نفث فى مكة نار الخلاف عاد الى المدينة واجتهد فى إثارة الشعب . فأمر محمد بقتله فقتل (٣) .

[غزوة أحد] :[السبت ٧ شوال سنة ٣]

[وقال ابن هشام السبت ١٥ شوال سنة ٣]

[خروج جيش الكفار]

كان شعر كعب قد أثار قريشاً وأصبح الناس يطالبون بحمل السلاح فأغتنم أبو سفيان الفرصة لكى ينتقم لشرف وطنه ، وجهز ثلاثة آلاف من المقاتلين منهم

(١) ان العرب متطرفون فى كل شيء نظراً لحياتهم تحت شمس محرقة . إنهم يحبون أو يكرهون باندفاع ففى عام ١٧٧٨ عندما كنت بمصر علمت امرأة بمرض ابنها الذى كان فى مدينة دمياط فقطعت ثلاثين فرسخاً لكي تراه . ولما نزلت من المركب سألت عن أخبار ابنها ، قيل لها أنه مات فألقت المسكينة بنفسها فى النيل [**لم يذكر أبو الفدا خبر وفاة أمية وانما ذكر موت أبى لهب عندما سمع بالهزيمة النكراء ١٣٥/١**] .

(٢) [**أبو الفدا ص ١٣٧ والأنوار المحمدية ص ٧١**] جناب.

(٣) يؤكد الدكتور بريدو (ص٨٦) أن كعباً لم يقتل وأنه أفلت من جميع الكمائن التي نصبها له محمد ، غير أن هذا الرأى يتعارض مع حقائق التاريخ : ويخلط الدكتور بريدو بين كعب هذا الذى نتحدث عنه وشاعر آخر يحمل نفس الاسم وأهدر دمه أيضاً لأنه كتب هجاء ضد محمد . وفى العام التاسع الهجرى حضر وارتمى تحت أقدام محمد وقدم إليه قصيدة امتدحه فيها فأعجب بها الرسول وعفى عنه وأكرمه . ولو أن الدكتور بريدو قد رجع إلي اسم أبويهما لماوقع فى هذا الخطأ فالأول هو كعب بن الأشرف والثاني هو كعب بن زهير.

سبعمائة دارع ومائتا فارس وانطلق على رأسهم . واصطحب معه زوجته هند وخمس عشرة امرأة أخرى يحملن الدفوف كن ينشدن شعر كعب ويكين عار « بدر» ويحمسن المقاتلين على القتال ببسالة . سار جيش قريش بقيادة أبى سفيان فى اتجاه المدينة من غير أن يقابل أية مقاومة وعسكر بالقرب من ذى الحليفة على بعد ستة أميال من المدينة .

[النبى يشاور أصحابه]

وكان محمد يريد أن يبقى داخل أسوار المدينة لأنه لم يكن يستطيع أن يجهز قوة بهذا العدد. وكان عبد الله المنافق والرئيس المحنك يؤيد هذا الرأى ، بينما كان للقواد الآخرين رأى مخالف . فالكل كانوا يطالبون بالقتال . فأدى إلحاحهم الى أن اتخذ محمد موقفاً محفوفاً بالأخطار(١).

[موقف المنافقين]

وخرج محمد على رأس ألف مقاتل وعسكر على مسافة قريبة من الأعداء ، وتركه عبد الله وثلاثمائة(٢) من أصحابه وهو يقول « هل تجب علينا الطاعة والسيف على رقابنا والموت محقق ؟» غير أن هذا الانشقاق لم يخف محمداً بل أخذ ينظم جيشه الصغير على جبل أحد (٣) بأحسن طريقة ممكنة (٤) ووضع فى قلب الجيش مائة دارع ، ونظراً لأنه لم يكن معه فرسان فقد كان يخشى أن يحيط به جيش الأعداء الذى يفوقه بثلاثة أضعاف . أقام خلف الجيش خمسين من رماة السهام وأصدر اليهم هذا الأمر الصريح :

[« إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل اليكم ، وإن رأيتمونا قد هزمنا القوم وظهرنا عليهم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم (٥) »] .

---

(١) أبو الفدا ص ٦٤ - [ص ١٣٧ والأنوار المحمدية والأغانى جـ ١٥ ص ١٤٠ - ١٤١.]

(٢) [فى الأصل الفرنسى ثلاثة وهذا خطأ]

(٣) أحد معناه : « واحد » ولقد سمى هذا الجبل بهذا الاسم لأنه قائم وحده فى الوادى.

(٤) جنّاب [وأبو الفداء ١٣٨/١ والأنوار المحمدية ص ٧٣]

(٥) [الطبقات الكبرى ٣٣/٢ والأنوار المحمدية ص ٧٣] .

وسنرى أهمية هذا الأمر .وبعد أن اتخذ القائد الماهر كل ترتيباته انتظر المشركين بقدم ثابتة فتقدموا إليه بنظام وكان أبو سفيان على قلب الجيش ، وخالد بن الوليد على الميمنة وعكرمة بن أبى جهل على الميسرة ، وتحت إمرة كل منهم مائة فارس . وكانت هند وصاحباتها فى مؤخرة الصفوف يثرن حماسة المقاتلين ويقلن :

[« ويها بنى عبد الدار : ويا حماة الأديار (١) : ضرباً بكل بتار »]

[الاشتباك]

واشتبك الجمعان وكان حمزة عم الرسول يقاتل فى مقدمة المؤمنين ويلهب حماستهم ويضرب لهم المثل بإقدامه . وكان قد طرح أرطأة حامل لواء المشركين تحت أقدامه .

[وجاء فى الطبقات أن الذى قتل أرطأة بن شرحبيل هو على ابن أبى طالب . وأن حمزة ضرب بسيفه كاهل عثمان بن أبى طلحة - أول حامل للواء المشركين . فقطع حمزة بضرباته يد عثمان وكتفه حتى انتهى إلى مؤتزره وبدا سحره . ثم رجع وهو يقول أنا ابن ساقى الحجيج]

وأطاح [حمزة] برأس سباع [بن عبد العزى الغيشانى من خزاعة ويكنى أبا انهار وهو ابن أم أنمار ختانة مكة] وكان الرعب يتقدم خطواته وكان كل شىء يتراجع أمامه . وبينماهو يندفع بشجاعة إذ بوحشىّ عبد جبير [ابن مطعم] يطعنه من الخلف فيقتله بضربة رمح (٢) . وفى نفس اللحظة سقط مصعب بن عمير حامل لواء الإسلام ،فحمل محمد اللواء من غير أن يضطرب ، وعهد به إلى على الباسل . واستمر القتال بعنف وبدأ النصر يظهر فى جانب المسلمين وأخذت قريش تتراجع (٣) . عندئذ لم يستطع رماة السهام أن يقاوموا إغراء الغنائم فتركوا مراكزهم.لقد كان خطأ لايغتفر شكى منه محمد [؟!] فى القرآن بمرارة ﴿ ولقد صدقكم الله وعده اذ

---

(١) [الذين يحمون أعقابهم] .

(٢) أبو الفداء حياة محمد ص ٦٥ - [١٣٨/١]

(٣) أبو الفداء ص ٦٦ - [١٣٨/١] .

تحثونهم بأذنه .حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعدما أراكم ما تحبون ﴾ (الغنيمة) لاحظ خالد الحركة وأغتنم الفرصة وانطلق على رأس الفرسان وهاجم أعداءه من الخلف وفى لحظة طوق المسلمين . ولكى يلقى الرعب فى قلوب المؤمنين صاح بأعلى صوته أن محمداً قتل . فخارت شجاعة المسلمين وهرب كثير منهم . ونفذ المشركون إلي قلب جيش المسلمين حيث كان النبي لا يزال ينازعهم النصر ومن حوله أشجع المقاتلين . وأصيب النبى بعدد من السهام والرماح وشج وجهه وكسرت أسنانه[1] وغطته الدماء وأحاطت به صورة الموت من كل مكان . غير أنه احتفظ برباطة جأشه وبشجاعته [2]. وكان يصيح فى أصحابه البواسل قائلاً [(كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعو إلى ربهم ؟)] .

ولقد عرض طلحة نفسه للخطر فداء لحياة الرسول عندما خلع درعه وألبسه محمداً فى قلب المعمعة فكسر ذراعه .

[بل جعل طلحة بن عبد الله نفسه درعاً للرسول ﷺ ولم يكن معه درع . وقد اتقي ضربة من ابن قمينة كانت مصوبة إلي النبي فشلت أصبع طلحة] [3]

وأخيراً لم تتمكن جهود قريش من أن تحول بين المسلمين وبين أن ينسحبوا إنسحاباً منتصراً. ودون أن ينقذوا حياة محمد . وكان لا يزال سهمان ناشبين بشفتى الرسول ، ولما خلعا عنه سقطت سنتان . وكان [مالك بن سنان أبو] أبى سعيد [الخدري] يمسح الدم الذى كان يتساقط بغزارة من جراحه فقال له الرسول :[« من مس دمى دمه لم تصبه النار»] [وكان قد مص الدم عن وجهه ﷺ ثم أزدرده] .

---

(١) [الذى كسر هو الرباعية اليمنى السفلى أى السن المجاورة للناب . وإنما سقطت ثنيتا أبي عبيدة بن الجراح حين نزع حلقى المغفر من وجهه عليه السلام (سيرة بن هشام ١/٢٣٧ الأنوار المحمدية ص ٧٥ وأبو الفداء : ١/١٣٩] .

(٢) أبو الفداء ص ٦٧ [١٣٨-١٣٩]

(٣) [الطبقات الكبرى ٢: ٣٢].

وأصبح المشركون يسيطرون على ساحة القتال فمثلوا بالقتلى . وأسرف نساؤهم إسرافا منقطع النظير ، فقطعن أنوف وآذان قتلى المسلمين وصنعن منها عقوداً وأسواراً ، وجاوزت هند هذه الحدود فى فظاعة الانتقام ، إذ شقت صدر حمزة ولاكت جزءا من قلبه بأسنانها (١) .
[المراجع العربية تقرر أن الذى لاكته هو الكبد لا القلب] .

ولقد علق أبو سفيان فلك هذا المقاتل الباسل فى رمحه وصعد إلى التل وصاح قائلاً : (الحرب سجال ، لقد انتصرت يا هبل (٢) . هذه هى معركة احد بعد يوم بدر ثم أذاع هذا التحدى (أيها المسلمون إلى اللقاء ببدر فى العام القادم) فأرسل محمد من يرد عليه بقوله [(هو بيننا وبينكم موعد)] .

[إنسحاب المشركين]

لم يجرؤ المشركون على مهاجمة أعدائهم فى القرية التى انسحبو إليها ، فاتخذوا سبيلهم إلى مكة (٣) وبعد رحيلهم ، عنى محمد بدفن الموتى وأمر بإحضار جثة حمزة(٤) فوجدها مشوهة . وبكى الجنود قائداً من أعظم القواد . ولكى يواسيهم الرسول قال لهم : [«جاءنى جبريل فأخبرنى أن حمزة مكتوب فى أهل السموات السبع . حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله » (٥)] ثم غطى جسده ببردة سوداء وصلى عليه بسبع [تكبيرات] كما صلى على كل من سقط فى المعركة ودفنهم فى الأماكن التى سقطوا فيها. وبعد القيام بهذه الواجبات الجنائزية عاد إلى المدينة حيث أخبر أن الأعداء يقتربون (٦).

---

(١) إذا كان هناك شيء يمكن أن يخفف من وحشية هذه الجريمة ، فهو أنها كانت قد فقدت ابنها البكر حنظلة يوم بدر . وأن نساء العرب لا يغفرن ابداً قتل أولادهن .

(٢) هبل هو الوثن الرئيسى عند قريش .

[وابن هشام يروى أن أبا سفيان فقط ضرب برمحه شدق حمزة وعيب عليه هذا فاعتذر التهذيب ٢٤٤/١].

(٣) جناب [أبو الفداء ١٣٥/١]

(٤) أبو الفدا ص ٦٨ .

(٥) أبو الفدا ص ١٣٩ .

(٦) جناب ص ١١ و [أبو الفدا ص ١٣٩] .

[غزوة حمراء الأسد : ١٦ شوال سنة ٣ هـ]

والواقع أن أبا سفيان غمره الحزن بأنه لم يحقق أكبر فائدة من الانتصار، فاقنع المنتصرين بالعودة ثانياً واستئصال المسلمين الذين أضعفتهم الهزيمة . فوفر عليهم محمد جزءاً من الطريق وظهر لهم فى وقت لم يكونوا يتوقعونه فيه . فأدهشتهم هذه الجرأة وبدلاً من أن يجددوا القتال أسرعوا بالانسحاب [الأغانى] .

[يوم الرجيع : (١) صفر سنة ٤ هـ .]

عام ٦٢١٩ من هبوط آدم حسب تقدير أبى الفدا - عام ٦٣٤ من ميلاد المسيح - عام ٤ من الهجرة - عام ٥٦ من ميلاد محمد .

لم تضعف الهزيمة من مركز محمد . فقد أرجع المسلمون سببها إلى عصيانهم لأمره. وظلوا يكنون له نفس الوقار ، وظلوا يعتبرون رغباته قوانين تنفذ . فقد كان ملكاً وزعيماً دينيا فى المدينة ينظم شئون الحكومة وأمور الدين معاً . وجاءه مندوبون من عضل والقارة [وهما قبيلتان من الهون بن خزيمة بن مدركة] يطلبون عدداً من المتفقهين المسلمين ليعلموهم الإسلام ، فأرسل معهم ستة (٢) .غير أن الكفار الخبثاء قتلوا منهم أربعة(٣) ، وباعوا اثنين منهم إلى قريش فقتلتهما . وكان أحدهماهو خبيب قد قتل الحارث يوم بدر (٤) فاشتراه أبناء الحارث ، وفرحوا بأنهم ظفروا بضحية يقدمونها قرباناً لروح أبيهم ، ودعوا كل العائلة لكى يشهدوا قتله . وكان خبيب مكبلاً بالسلاسل فى أحد أركان الدار ينتظر ساعته الأخيرة . وكان قد حصل على موس من احدى بنات الحارث لكى يحلق رأسه ، وفى نفس اللحظة أفلت طفل صغير من بين ذراعى أمه الغافلة [وفى ابن هشام أن (ماوية) هى التى أرسلت الغلام بالموس لسذاجتها] واقترب من الأسير فأمسك به بين رجليه وفى يده السلاح الحاد

---

(١) [الرجيع (ماء لهذيل بصدور الهدة بين مكة وعسفان . والهدة على بعد سبعة أميال من عسفان . وقال أبو الفدا : على أربعة عشر ميلاً من عسفان (أبو الفدا جـ ٢ ص ١٣٩]

(٢) أبو الفدا [١٣٩] الفصل الثالث والثلاثون ص ٦٩ .

(٣) [هم مرثد بن أبى مرثد وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت وعبد الله بن طارق . والاخران هما خبيب وزيد بن الدثنة (أبو الفداء . ص ١٣٩]

(٤) البخارى فى رواية لأبى هريرة .[جـ ٥ ص ١٣٢ - ١٣٣ دار الشعب].

وعندئذ تجمدت الأم من الرعب ولم تنطق بكلمة . فقال لها « الأسير الا تخافى أن أذبح ابنك ؟ اطمئنى فإنى لا أقبل أن أنتقم من طفل برىء » ثم ترك الطفل .

غير أن هذه السماحة لم تنقذ حياته (١) . وكان جميع الأقارب قد تجمعوا فاقتيد خارج أرض الحرم لقتله . ولما وصل إلى مكان الإعدام طلب أن يمهلوه لحظة لكى يصلى . فأجيب لطلبه . فصلى ركعتين خفيفتين وقال (لولا أننى أخشى أن تقولوا إنما أخاف الموت لأكثرت من الصلاة أضربوا..) وهكذا كانت نهاية مبعوثى الإسلام الذين أرسلوا تحت إلحاح أهل «القارة» .

[بئر معونة (٢) : فى صفرسنة ٤ : هـ]

ولقد جعلت هذه الخيانة محمدا أكثر حذراً (٣) . فعندما عرض عليه عامر بن مالك [ابن جعفر ملاعب الأسنة] أن يرسل عدداً من أتباعه إلى أهل نجد رفض . ولولا توسط أبى بكر لما رجع عن عزمه . فقد خدع عامر أبا بكر وجعله يتقدم ويضمن إخلاص عامر . فلم يستطع محمد أن يرفض رجاء أبى بكر وأرسل معه المنذر بن عمر الأنصارى ومعه سبعون من المسلمين(٤) . ولما وصلوا الى بئر معونة [لبنى سليم] أرسل المنذر [بن عمرو الساعدى] رسائل النبى إلى عامر [بن الطفيل] أمير الإقليم . ولكن عدو الإسلام قتل الرسول [حرام بن ملحان] وجمع فرقة من الأجناد وفاجأ المؤمنين وأبادهم ، ولم ينج منهم سوى كعب بن زيد الذى تركوه بين الموتى [مثخناً بجراحه] فحمل إلى المدينة نبأ هذه الخيانة . فحزن محمد

---

(١) العرب لا يغفرون قتل ذوى قرباهم : والأمهات يرضعن مع اللبن الحقد لأولادهن . وما أن يشتد عودهم حتى يلهمنهم الرغبة في الثأر . وبالقرب من الجيزة على بعد فرسخ من القاهرة، احتفظت امرأة برأس زوجها القتيل، وظلت كل يوم تبللها بدموع أحزانها وتعرضها على ابنتها الوحيدة وتقول « يابنيتى ألا تنظرى الى هذه الرأس إنها رأس أبيك المقتول بيد رجل مجرم . ولو كان لى ولد لأخذ بثأرى ولمحا بذلك حزننا وعارنا فأدى تكرار هذه الشكوى علي مسمع الفتاة الى حفر أثر عميق فى قلبها فكانت تبكى مع أمها وترتعد عند ذكر اسم القاتل ، وطغت عندها الرغبة فى الانتقام علي ضعفها وحيائها، فتنكرت فى زى رجل خادم ودخلت بيت قاتل أبيها فخنقته وهو نائم بين أهله .

(٢) [هو ماء من مياه بنى سليم يقع بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم كلا البلدين يعد منه. وهو بناحية المعدن وهو أقرب إلى حرة بنى سليم .]

(٣) أبو الفدا : الفصل الخامس والثلاثون ص ٧٠ [ص ١٤٠ ـ والطبرى ٢/٥٤٥] .

(٤) [البخارى ٥/١٣٤ وقال أبو الفداء : أربعون (أبو الفدا ص ١٤٠)].

حزنا شديداً وأجل الإنتقام إلى وقت آخر .

[تعقيب]

[وقال أبو الفداء: إنما حمل الخبر إلى النبى عمرو بن أمية الضمرى وقد أعتقه عامر بن الطفيل لكونه من مضر (أبو الفداء ص ٤٠ والطبقات ٣٧/٢) .]

[اجلاء بنى النضير (١) : ربيع أول سنة ٤/هـ]

وفى شهر ربيع الأول طلبت قبيلة بنى النضير - وهى من أقوى قبائل اليهود - إلى محمد أن يدفع إليهم فدية رجلين قتلهما عمرو (ابن أمية الضمرى) وهو يمر بأراضيها .

[وهومنصرف من الوجه الذى كان رسول الله ﷺ وجهه اليه مع أصحاب بئر معونة . وقد كان القتيلان من بنى عامر بن الطفيل حلفاء بنى النضير وقال الطبرى كان لهما جوار وعهد فطلب عامر بن الطفيل ديتهما : جـ ٢/ ٥٥١] .

فسمع محمد الشكوى واستجاب للقانون . ولتقوية الصلح دعت القبيلة محمداً إلى وليمة فى إحدى دور الريف . وذهب الى هناك وفى صحبته أبو بكر وعمر وعلى وبعض قواده (٢) .

ولقد كانت مكيدة بقصد القضاء على حياته . إذ كان اليهود قد جمعوا أحجارا كثيرة على سقف الدار لكى يلقوها عليه أثناء المأدبة (٣) فتقضى عليه هو وأصحابه فشم محمد رائحة الخيانة وخرج من الدار بحجة قضاء بعض حاجاته .

[والكاتب ينكر ما قاله كتّاب السيرة من أن النبى عرف من السماء خيانتهم (٤) ثم قال :] وعاد مسرعاً إلى المدينة ثم حضر ومعه قوة لمهاجمة الخونة . وبعد أن طاش سهم اليهود، أسرعوا يجتمعون فى أحد الحصون . فحاصرهم محمد وأحدث تلفاً حول الحصن. ولما

---

(١) أبو الفدا ص ٧١ - [ص ١٤٠ والأنوار المحمدية ص ٧٩]

(٢) أبو سعيد فى كتاب الأنوار [وقد أورد القصة يوسف النبهانى فى كتاب الأنوار المحمدية ص ٧٩ . وفى الكتاب أن النبى خرج يستعينهم فى دية الرجلين فقالوا نعينك على ما أحببت ، وهكذا قال الطبرى ٥٥١/٢.]

(٣) [لم يكن هناك مأدبة ولكنه ﷺ كان جالساً بجوار جدار لهم (الطبرى ٥٥١/٢)]

(٤) [تهذيب سيرة ابن هشام ص ٢٦٧ والأنوار المحمدية ليوسف النبهانى ص ٨٠.]

رأى اليهود نخيلهم يقطع خارت شجاعتهم . وخوفاً من أن لا يستطيعوا الصمود لإحدى هجمات المسلمين ، سلموا أنفسهم طواعية بعد حصار دام ستة أيام (١) . ولكى يعفو عنهم الرسول سمح لكل منهم أن يحمل من ثروته ومتاعه حمولة بعير .

[الفرق بين الغنيمة والفيء]

وخالف النبى قانون الغنيمة الذى كان ينص على أن يأخذ منها الخمس ، فاحتجز الغنائم كلها لنفسه [؟] ونصت سورة الحشر على هذا المبدأ . ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ، فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم . وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا . واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ .

[تعقيب]

[هكذا صور الكاتب عمل النبى فى الفيء وتجاهل الفرق ، فالنبى يأخذ الخمس من الغنيمة التى تغنم من الكفار فى معركة وقع فيهاقتال فعلى ، وفى هذا نزلت الآية ﴿واعلموا أنما غنمتم من شىء فان لله خُمُسه وللرسول ﴾ الأنفال . وأماهنا حيث لم يقع قتال فعلى ، وإنما استسلم الكفار للإنذار بمجرد الحصار فالأمر له حكم آخر : هو الذى نزل فى سورة الحشر . وهو دخول الفيء الذى يحصل عليه من الكفار بيت المال لينفق منه على كافة مصالح الدولة والأفراد بما فيهم الجنود ـ وهذا هو الذى قرر الكاتب فيما يلى]

وبعد أن أخمد الوحى الإلهى طموح جيشه اتجه إلى إنجاز أعمال إنسانية . فمنذ أربع سنوات ظل إخلاص المكيين وتفانيهم بلا جزاء ـ وهم الذين تركوا أموالهم وأهليهم ليتبعوه ـ فوزع على هؤلاء الأتباع الأوفياء وعلى رجلين فقيرين من الأنصار [**وهماسهل بن حنيفة وأبو دجانة**] كل الغنيمة التى استولى عليها من بنى النضير (٢) . وصفق باقى الجيش لهذا العمل الذى يتسم

---

(١) أبو الفدا : ص ٧١ [جـ ١٤٠] [والانوار المحمدية ص ٨٠ وفى الطبرانى حاصرهم ١٥ يوماً جـ ٢ ص٥٥٣)] .

(٢) أبوالفدا ص ٧٢ [ص ١٤٠] .

بالعدل .

[التصفيق تعبير كنائى عن الإعجاب . فهو صورة للإعجاب فى الغرب وفى الذين يأخذون بأسلوبه . بينما الواقع أن الصحابة لم يقع منهم تصفيق . ولكن وقع الإعجاب النفسى والسعادة القلبية والرضا العام بأمر الله وحكمته] .

[تحريم الخمر]

وفى نفس العام حُرِم تعاطى الخمر . إذ كانت صعوبة الحصول عليها فى الجزيرة العربية ، وآثار هذالمسكر على طبيعة العرب الثائرة ، والمشاهد المؤلمة التى وقعت تحت نظره نتيجة حالات السكر ، قد دفعته [؟!] إلى إصدار هذا القانون ﴿ يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون (١) ؟ ﴾

[وهكذا يجرى الكاتب على طبيعته فى تقديره أن القرآن قرارات الرسول أملتها الظروف وحدها وليس وحياً من الله منزلاً . وقد سبق الرد على ذلك فى آخر الفصل الأول من الباب الأول] .

[غزوة ذات الرقاع (٢): جمادى الأولى سنة ٤ هـ]

كان محمد (٣) قائداً للجيش ومشرعاً بالتناوب . وكان يعقب إجراءات الحكومة السلمية بصلصلةالسلاح ، وكانت خيانة أهل نجد لازالت تحز فى نفسه ، وحان وقت الانتقام (٤) فخرج من المدينة فجأة وهاجم فريقاً من غطفان على غرة . فولى

---

(١) القرآن .

(٢) [وقعت بأرض غطفان فى نجد بموضع يسمى نخلا ، وكان بها شجرة يتبرك بها ، وتعلق الرقاع عليها وتسمى ذات الرقاع ، وقيل سميت المعركة كذلك لأن المسلمين رقعوا فيها راياتهم وقيل : لأنهم لفوا أرجلهم بالخرق حين أدماها حصى الأودية] .

(٣) أبو الفدا ص ٧٢ - [١٤٠ - والطبرى ٢/٥٥٥] .

(٤) [لم يأت ذكر الانتقام فى المراجع . ولكن فى الأنوار المحمدية كان النبى يريد بنى محارب وبنى ثعلبة لأنه بلغه أنهم جمعوا الجموع لغزوه فخرج فى أربعمائة وقيل سبعمائة واستعمل على المدينة عثمان ==

العدو دبره واحتمى بالجبال . وسمى الوادى الذى تقابل فيه الفريقان « بذات الرقاع » (مكان الإعجاب بالنفس) الذى نقل إلى الأجيال التالية ذكرى هذا الذعر العنيف . وأثناء هذه الغزوة تقدم رجل شجاع من غطفان إلى قومه ، وعرض عليهم أن يأتيهم برأس عدوهم المشترك ، فصفق الناس وأيدوا هذا العزم وشجعوه . فانطلق الرجل وأخذ يتربص بمحمد حتى سنحت لحظة أخذ فيها التعب من محمد حظاً فجلس على مقربة من جيشه. فأقترب الرجل منه وهو أعزل وكان سيف محمد إلى جواره(1). وكانت قبضة السيف مصنوعة من الفضة المنحوتة (2) فاستأذن الغطفانى محمداً فى أن يريه السيف .

وما أن أمسكه بيديه حتى أخرجه من غمده وأسرع ليضرب به محمداً . فنظر إليه محمد بثبات دون أن يضطرب . فدهش القاتل من هذا الهدوء ، وأوقف ضربته . ثم تظاهر بأنه لم يكن يقصد إلا المزاح وسأله قائلاً « ألم تخف » فأجابه محمد « وما عسى أن أخاف منه ؟ » فخذل العدو وأعاد إليه سيفه وعاد أدراجه من غير أن ينفذ شيئاً (3) مما نوى .

[غزوة بدر الآخرة : فى شعبان سنة ٤ هـ]

وبعد أن فرغ من هذه الغزوة ، فكر محمد فى أن يفى بالوعد الذى أعلنه ببدر ، فذهب

== بن عفان (ص ٨٠) ولكن الكاتب يريد أن يصور النبي في صورة مغايرة للمثل القرآنية التي فى ثنايا الكتاب المترجم كقوله ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين] .

(1) أبوالفدا ص ٧٣ [١٤٠ والطبرى ٢/٥٥٧ و ٥٥٨ وابن هشام ٢/١٨٣] .

(2) جناب ص ١١٩ .

(3) ينسب الكتاب العرب ذلك إلى الإعجاز ويقولون : ان الله قلب عدو رسولهم أرضاً . هل كان هناك ما يدعو الي تدخل السماء ؟ ان ثبات محمد والموت المعلق فوق رأس القاتل إذا أخطأ ضربته وآلاف من الاعتبارات الأخرى ، ألم يكن فى ذلك كله ما يمنع القاتل ؟ ولكن المتحمسين لا يسمعون للعقل فكل شيء عندهم من الأعاجيب . [وأعجب مما قاله سفاري أنه يتجاهل عظمة الثبات الرائع من محمد في الوقت الذى ينخلع فيه قلب كل شجاع . إن هذا الثبات في ذاته آية من آيات الكمال للشخص المثالى ليس لها نظير . بل إنه عمل خارق للعادة أتي ثماره بأكثر مما يتوقعه أويتصوره إنسان . وتلك نعمة من نعم الله ومكرمة ساقها الله لنبيه] .

وعسكر هناك فى شهر شعبان (1) . وكان عدد جيشه ألفا وخمسمائة مقاتل . وكان على يحمل لواء الدين ، وانتظر محمد أبا سفيان ثمانية أيام . وكان قائد قريش قد خرج من مكة إلا أنه كان يخشى المغامرة فى معركة ثانية فلم يجرؤ على التقدم نحو بدر . ومل محمد الانتظار فعاد بجنوده إلى المدينة . واحتفل على بميلاد ابن ثان سمى « الحسين » .

[غزوة الخندق : [فى شوال وذى القعدة سنة ٥ هـ]

[تحريض اليهود للمشركين]

وكان بنو النضير الذين طردوا من قلعتهم قد لجأو إلى خيبر إحدى معاقل اليهود، وأنذروا حلفاءهم بالخطر ، فقد كانوا رمزاً للدمار الذى سيلحق بالأمة إذا لم تتحد ضد عدوها المشترك . وكان كثير من اللاجئين قد حملوا إلى مكة الآثار المحزنة لقوتهم الغابرة . وبدافع من ذكريات نكبتهم الأخيرة أخذوا يصورون محمداً بأنه طاغية يستخدم ستار الدين الوقور ليحقق أطماعه. وكانوا يصورون قبائل العرب حول مكة وقد خضعوا وذلوا ، و« بنى النضير » وقد طردوا من أراضيهم ، والمنتصر الذى لا ينال منه التعب وهو على استعداد لأن يكبل العرب جميعاً بالحديد ، هذا الشعب الكريم والوحيد من بين أمم الأرض الذى لم يعرف بعد معنى السخرة ، وذكروا لقريش الإسلام المنتصر وأوثانهم المغلوبة وسلطانهم المدفون تحت هياكلها إذا لم يبادروا بضم أسلحتهم إلى أسلحة حلفائهم للقضاء عل عدو الوطن والحرية والدين ، إن صدق [؟!] هذه المشاهد قد أخذ بالألباب . فوعد القرشيون بضم فرقهم إلى قوات اليهود وتجمعت شعوب أقاليم نجد وتهامة وقد حركهم الدافع المشترك بالاضافة الى رغبتهم فى الانتقام لاهانتهم الأخيرة . تجمعت كل هذه الأجناد واتحدت واستعدت للسير فى اتجاه المدينة.

عام ٦٢٢٠ من هبوط آدم حسب تقدير أبى الفدا ـ عام ٦٣٥ من ميلاد عيسى ـ العام الخامس من الهجرة ـ عام ٥٧ من ميلاد محمد .

(1) أبوالفدا ص ٧٣ ، [١٤١/١] ..

[حفر الخندق]

لم يكن محمد ليخلد إلى النوم وقد علم عن طريق عيونه بالتجهيزات الهائلة التى كانت تنظم ضده ، وكانت استحالة مقاتلة كل هذه القوى البالغة التفوق من حيث العدد قد جعلته يميل الى فكرة الاحتماء داخل أسوار المدينة . ولكن سلمان (١) الفارسى الذى كان محل ثقة كبيرة ـ نصحه بأن يحفر خندقاً حول التحصينات ليصد هجمة الاعداء الاولى . فأقر النصيحة . وفى لحظة كانت كل المدينة تباشر عملها . فكان لا يسمع فى ارجاء المدينة الا ضجيج المطارق وأصوات العاملين (٢) . كانت التربة مليئة بالأحجار ومستعصية على الحفر وكانت هناك صخرة بالغة الصلابة تقاوم ضربات العاملين المجدين وتخمد مثابرتهم .ولما لاحظ محمد يأس العمال أخذ قدرا من الماء فى فمه ورشه عليها فلانت وخضعت لضربات المطارق المتكررة . ونسب المسلمون ذلك إلى الإعجاز وإلى مفعول تلك القطرات المباركة ، بينما يرجع نجاحهم إلى مجهوداتهم المتجددة . ولقد كان هذا موقف « هانبال » عندما كان يشق لنفسه طريقاً عبر جبال الألب ولقد جدّد نشاط جنوده وشجاعتهم بأن سكب خلا على الصخرة التى كان يريد شقها ، فالرجل العظيم هو هو فى كل مكان يستطيع دائماً أن يذلل العقبات التى تعترضه وأن يخضع الطبيعة إلى جهوده . والإغراء الذى لا يقاوم والذى يعول عليه فى صنع

---

(١) سلمان هذا هو ابن حاكم لمدينة فارسية . وبعد أن سافر إلى بلاد كثيرة ذهب الى الجزيرة العربية واعتنق الإسلام بعد أن افتتن ببلاغة محمد [؟] وساعد محمداً بنصائحه وخدمه من أجل مجده العسكرى (ابن اسحق) ولقد التبس هذا الاسم على الدكتور بريدو Prideaux مع اسم عبد الله بن سلام أحد زعماء اليهود فقال : إنه يرجع إلى عبد الله بن سلام بعض الفضل فى نجاح محمد . إن الحدس والتخمين الذى يعتمد عليه هذا العالم فى كتابته يوقعه كثيراً فى مثل هذا الخطأ .

[وهذا مظهر للحقد الذى يعمى المستشرقين عن الحقيقة . فإذا كان سلمان فارسياً وابن أحد حكامها وطوف فى بلاد كثيرة قبل أن يصل إلى الجزيرة فأنى له إجادة العربية إجادة تمكنه من الإلمام ببلاغتها على النحو الذى يأسر الأديب ؟ وكيف لمحنك فى السياسة جواب للآفاق اعتاد أن يزن الفكرة بالمنطق الدقيق أن يدع منطق السياسة والتجربة إلى سحر البلاغة ومجرد جمال الأسلوب والخيال ؟ أليس الأولى بالصدق هو ما أجمع عليه المؤرخون من أن سلمان كان عظيماً يبحث عن الدين الحق فوجده عند محمد بعد طويل تطوافه فآمن به ايمان الخبير الباحث المنقب]

(٢) أبو الفدا ص ٧٤ [١٤١] .

المعجزات هو تأكيد النصر الذى يسكربه قلوب الناس.

[الأمل العريض]

وبينما سكان المدينة يعملون تحت شمس حارقة مقتدين برئيسهم (١) لإقامة سد منيع أمام أعدائهم ، استلفت انتباههم معجزة أخرى . فقد كان سلمان يجتهد فى تكسير صخرة ضخمة ، فاذا بمحمد يأخذ المطرقة منه بيده ويضرب الصخرة ثلاث ضربات فخرجت منها ومضات فسأله سلمان « ما تعنى هذه الومضات ؟ » قال النبى : الومضة االأولى تعرفنى أن الله سيخضع لسلاحه اليمن السعيد ، والثانية تنبىء بسقوط الشام والمغرب ، والثالثة بسقوط المشرق (٢) .»

إن هذا التفسيرلا يقل طرافة عن تفسيرهذا المقاتل الذى سقط على الأرض وهو ينزل من السفينة إلى شاطىء الأعداء وهويقول : « أيها الرفاق إن هذا البلد لنا لقد امتلكته تواً » .

[تعقيب]

[ونسى سفارى الفرق بين الأمرين وهوأن محمدا ﷺ تحققت نبوءته فى أقل من نصف قرن] .

[حقاً : ذكر البخارى قصة الصخرة وقال « فأخذ النبى ﷺ ـ المعول فضرب الكدية فعادت كثيباً أهيلا » ولم يذكر التنبآت بالفتوح .ولكن وقوع هذه الفتوح يدل على أحد أمرين:إما ان احداث هذه الفتوح جاء مصداقاً لقول النبى ﷺ وإما أن الحديث المروى عن الرسول مجرد تصوير صادق لواقع الفتوح . والنتيجة واحدة . وهى أن أمل المسلمين الصادقين فى أشد الضيق تحقق فى أعرض صورة بعد قليل . فغاية الحديث ـ صحت الرواية أم لا ـ هى بعث الأمل فى نفوس المجاهدين فى أظلم الأوقات وأقسى ما يجدون من صور الحياة . فهو أسلوب للتربية يمكن أن يذكر لمن يغلبون جانب

---

(١) اذا صدقنا الكتاب المسلمين فان نبيهم أطعم جميع العاملين بالخندق بسلة من البلح الذى تكاثرعدده بين يديه . وفى مرة أخرى أطعمهم بحمل مشوى ورغيف من الشعير فشبع منه ثلاثة آلاف رجل .

(٢) أبوالفداء ص ٧٥ [١٤٢] .

المادة ، ولمن يغلبون منطق الايمان بالغيب فى صورتين من التعبير] .

[وحدات جيش العدو]

وما أن انتهى حفر الخندق حتى ظهرت الأحزاب . قريش ـ وقد انضمت اليها كنانة ـ فتكون منهم جيش يتألف من عشرة آلاف مقاتل . وسار بالقرب منهم غطفان وأهل نجد . وتكونت المؤخرة من قريظة بقيادة كعب بن أسد [القـرظى] وغطت الخيام والاعلام ضواحى المدينة (١) . وعكست الخوذات والدروع أشعة الشمس من بعيد وكأن هناك غابة من الرماح قد خرجت فجأة من الأرض . فألقى هذا الجهاز الحربى الرعب بين المسلمين (٢) . فالتزم بعضهم الصمت والبعض الآخر أخذ يهمهم . وشرع المشركون الذين كانوا لايزالون فى المدينة ينطقون بعبارات التبكيت وصاح [معقّب بن قشير ـ أحد بنى عمرو بن عوف] ـ وهو من أشد المحرضين ـ قائلاً فى وجه ذوى النفوس المريضة [كان محمد يعدنا منذ لحظة بكنوز كسرى وهرقل وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط.]

[توزيع القوة الاسلامية]

كان قائد المؤمنين راسخا وسط صخب شعب مذعور يضرب لهم المثل الأعلى فى الصبر والجلد . وكانت السكينة تضىء جبينه وهويصدر أوامره فى هدوء مدهش . وبعد أن أسلم زمام حكم المدينة الى ابن أم مكتوم خرج من المدينة على رأس ثلاثة آلاف مقاتل وزعهم بين المتاريس والخندق . وقرر الانقضاض على الأعداء لحظة محاولتهم عبور الخندق . واتخذ موقفاً حصيناً للدفاع . وبذلت الأحزاب عدة محاولات لاقتحام الخندق ولكنهم ردوا خاسرين (٣) فحاولوا السيطرة على المدينة من الجانب الذى توقعوا أن تكون الحراسة فيه ضعيفة ، فقضى على محاولتهم بأرسال نجدة فى الوقت المناسب ، أخذ الحصار يبدو طويلاً ومملاً واقتصرت الحرب على التراشق بالنبال والسهام .

---

(١) أبو الفداء : ص ٧٦ ـ [ص ١٤٢] .

(٢) توضح سورة الأحزاب الآية ١٠ مشهداً رائعاً لهذا الذعر ﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً . وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ﴾ .

(٣) أبو الفدا [١٤٢] [والأنوار المحمدية ٨٤] .

[بين على وعمرو بن عبدود]

ولقد دفع الملل ببعض فرسان قريش إلى تجربة قوة خيولهم فانطلقوا بها بكل سرعة وعبروا الخندق . فسار علىّ للقائهم ، ولما تعرف عليه عمرو قال له « يا ابن العم كم يكون سرورى عندما أطرحك أرضاً ، فرد عليه على قائلاً كلا والله سيكون فرحى أكبر عندما ألقى بك تحت أقدامى »(1) ثار عمرو [بن عبدود] ونزل عن فرسه وقطع عراقيب أرجل حصانه واتجه إلى علىّ . وأخذ المتقاتلان يحدقان ببعضهما فى محاولة لمفاجأة أحدهما الآخر ، ثم ازداد قربهما وتبادلا الضربات بشدة ،وثارت سحابة من الغبار اخفتهما عن أنظار الجيشين ولم يعد يسمع سوى صليل سيفيهما وضجيج الدروع . وتحقق النصر لعلى ولما اختفى الغبار ظهر المنتصر وقدمه على عدوه وهو يغرس السيف فى عنقه. أما الفرسان الباقون فقد لاذوا بالفرار وسقط أحدهم فى أعماق الخندق وقتله على .

[إنسحاب الأحزاب]

وبعد حصار دام عشرين يومارأت الأحزاب أن جهودهم قد باءت بالفشل ، ودب اليأس فى نفوسهم من النيل من المسلمين وهم وراء تحصيناتهم . وانتشر النزاع فى معسكرهم فغذاه محمد عن طريق جواسيسه . وفكرت الأحزاب فى الإنسحاب . وهبت رياح من الجنوب الشرقى اقتلعت خيامهم وقدمت لهم المبرر للانسحاب . وتفرق اليهود أولاً . واحتذت بهم قريش وغطفان . وبعد أن تأكد محمد من انسحاب الاحزاب عاد مع جموعه إلى المدينة .

[غزوتى قريظة : فى ذى القعدة سنة ٥ هـ]

وتوقع المسلمون أن يصيبوا شيئاً من الراحة بعد نصبهم فوضعوا عدة الحرب وفكروا فى الاستمتاع بين أهليهم بعذوبة السلام [بل لم يفكرفى هذا إلا سفارى] . ولكن ذلك لم يكن فى نية نبيهم . فقد كان يريد أن يحقق انتصارا عاجلاً لكى ينسيهم ما تكبدوه من باهظ الأعمال وما تحملوه من الآلام . وكان بنو قريظة قد ألبوا عليه جزءا من سكان الجزيرة فكان ينبغى توقيع العقوبة الرادعة على مثل هذا التصرف الخطير . وكما جرت عادته جعل السماء تتكلم [هكذا عادة الكذاب سفارى] وكان قد وضع سلاحه عند شروق الشمس ، وفى

(1) أبوالفدا ص ١٤٢ وجناب .

الظهيرة أمره جبريل بأن يحملها من جديد ، وأمر نذير الحرب بأن ينادى بهذه الكلمات « من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة (١) » وبعد نشر الأمر واعلانه أخذ يخطط للحملة مع على . وانطلق على الفور يتبعه من كان مستعداً من المسلمين (٢) ، وضرب عسكره فى بئر « أنا » (أى إناء الماء الصافى) وهى عيون كانت تملكها اليهود ، وأخذ جنوده يتوافدون تباعاً إلى هناك وقبل غروب الشمس كان الجيش كله قد لحق بالقائد .

[ومن الصحابة من وصلوا بعد العشاء الآخرة بسبب انشغالهم ببعض أعمال حربية هامة ـ كما قال ابن هشام] (٣).

وبدأ السير فى اليوم التالى وذهب يضرب الحصار حول قلعة بنى قريظة . فدافعوا ببسالة وشنوا عدة معارك تحت أسوارهم ولكن علياً ـ المندفع ـ ومن خلفه فرقة من خيرة المسلمين كان يردهم بقوة . فألقت هذه البطولات الرعب فى قلوب اليهود ، ولم يجرؤوا على أن يخرجوا بعد ذلك من حصنهم . ومالبث الخوف من أن يروا أنفسهم مغلوبين ، أن أطار مابقى من شجاعتهم فى الدفاع عن أنفسهم ـ ولقد أوضح لهم كعب بن أسد ـ حليفهم ـ مغبة أمرهم واقترح عليهم أن يعترفوا بمحمد كنبى ، بشرت به الكتب السابقة وأن يسلموه قلعتهم على أن يستبقى حياتهم . فاتبع اليهود هذه النصيحة الفاسدة [؟] وبعد حصار دام خمساً وعشرين يوماً سلموا أنفسهم طواعية (٤) فاختار محمد ـ الذى كان يريد ابادتهم ـ سعد بن معاذ ـ أمير الأوس حكماً فى مصيرهم . وقبلوا العرض بسرور آملين فى معاملة أفضل من جانب أحد الحلفاء . ولكن المساكين كانوا يجهلون أن سعداً ـ وقد جرح جرحاً خطيراً فى حصار المدينة ـ كان يكره اليهود مدبرى هذه الحرب وكان يتمنى دمارهم التام (٥) .

وذهب البعض لاحضار سعد فحمل بصعوبة إلى مكان الاجتماع . فقال له بنو قريظة « يا سعد يا أباعمرو كن رحيماً وكريماً مع حلفائك » كانت العيون كلها متجهة إلى سعد وساد

---

(١) جناب ص ١٣٠ [وكذا روى ابن هشام « تهذيب السير ٢/ ٢٠١ » وروى ابن عبد البر فى الدرر/ ١٨٨ « لا يصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة »]

(٢) أبو الفدا ص ٧٧ [جـ٢ ١٤٢] .

(٣) [تهذيب سيرة ابن هشام ص ٢٠٢] .

(٤) أبو الفدا ص ٧٨ ـ [جـ ١/ ١٤٣]

(٥) أبو الفدا [جـ ١/ ١٤٣ والانوار المحمدية ٨٦-٨٧] .

الصمت انتظاراً لسماع القرار الذى سيصدره . عندئذ تصنع [؟!] أمير الأوس الجد ، وكان لايزال يتألم من جرحه وقال « يقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذرية والنساء » فصاح محمد قائلاً [لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة (والرقيع هى السماء)] ووضع القرار موضع التنفيذ فى الحال (١) فقتل الرجال وعددهم سبعمائة أما النساء والذرية وكل أموال بنى قريظة فقد صارت غنيمة للمنتصرين .

[زواج ريحانة]

وكانت ريحانة أجمل نساء اليهود [هى بنت عمرو بن خفاقة] - من نصيب محمد . وكان الحزن لما أصاب قومها قد ملأ قلبها فكانت تحقد على المدبر . ولكن هذا الحقد لم يصمد طويلاً أمام فكرة أن تصبح زوجة للنبى (٢) فقد أكل الزهو عقلها وأفسد الطموح قلبها فأسلمت لكى تتزوجه .

[تعقيب]

[هكذا يفسرذوو النيات الخبيثة تصرفات غيرهم طبقاً لما فى نفوسهم هم . فليس هناك دليل يثبت أن ريحانة قد أسلمت غير مخلصة وباقتناع بعد مخالطتها للنبى وبعد التعرف على الإسلام من قرب . فقد كان النبى ذا زوجات غيرها ، وما كان له فيها حاجة، ولا لديها من أسباب الطمع فى الزواج بها أية شية . إن المستشرقين يصدرون فى فكرهم من نافذة الكفر بإنسانية الانسان ، والايمان بحيوانية الجسد . ولذلك فإن رد التصرفات إلى المثل العليا والتسامى بالنفس والروح موضع ريبة وشك عندهم] .

[زواج زينب بنت جحش : سنة ٦٢٦م]

كان محمد كلما رجع من أحدى الغروات ، يخطط لغروة أخرى . فقد كان دائم الاهتمام بتثبيت دينه وبسط سلطانه . ولما كانت مشاغل الحكم تحتجزه فى المدينة ، فإنه كان يرسل فرقاً من قواته لتلقى الذعر بين أعدائه وتعود محملة بالغنائم . أما الوقت الذى كان يتبقى له بعد

---

(١) أورد القرآن ذكر هذه الغزوة في سورة الأحزاب الآية ٢٦ ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً ﴾ .

(٢) وجناب [وأبو الفدا ص ١٤٣] .

هذه المشاغل الدائمة ، فقد كان ينفقه فى زيارة رفاقه فى السلاح [؟] وأصدقائه . وذات يوم ذهب الى بيت زيد - ابنه بالتبنى - فى وقت كان زيد غائباً ورأى زوجته زينب [1] والتى كانت أجمل نساء قريش وكانت تضم إلى الجمال نعمة الحكمة والذكاء . كل هذه المفاتن كانت منذ وقت طويل قد تركت أثراً عميقاً فى قلب محمد [؟!] ، ولكن فى تلك اللحظة بدت له زينب رائعة الجمال ، وهى ترتدى ملابس خفيفة تكاد لا تخفى بياض جسمها وشكله - بحيث خانه سره وصاح قائلاً « سبحان مقلب القلوب » . وانسحب بعد أن نطق بهذه الكلمات ، ولكن زينب لم تنس تعجب محمد ونقلت عبارته إلى زوجها . ولما كان زيد رجل سياسة فقد طلقها ، وبعد انقضاء العدة انتقلت الى فراش محمد ، لقد أثار هذا الزواج كثيراً من الهمس فقال المسلمون [بل المشركون] إن محمدا تزوج امرأة ابنه . وعلى الرغم من الوليمة الفاخرة التى دعى اليها كبار المواطنين فى المدينة وقدمت فيها اندر المأكولات وأذكى العطور، فإن هذه الشائعات لم تتوقف . مما اضطر محمداً الى الالتجاء الى السماء وأنزل [؟!] سورة الأحزاب حيث نقرأ الآية التالية ﴿ واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه ، أمسك عليك زوجك واتق الله . وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه - فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمرالله مفعولاً﴾ .

[التعقيب]

[لم يكن سفارى فى هذا الاتهام للنبى بدعاً من المستشرقين والمبشرين . ومن أشهرهم الراهب فيدرو ريو الذى سمى زيداً (سيدروس) وردد ما قاله سفارى وما قاله «ر.ف بودلى» فى كتابه عن الرسول (حياة محمد) ص ٢٤٠] .

[وقد رد العقاد على اتهامات المستشرقين بأن زينب ما كان جمالها خفياً على محمد ﷺ قبل أن يزوجها مولاه زيداً لأنها ابنة عمته يراها من طفولتها وتراه ، فدعوى أنها فاجأته برائع جمالها أسطورة مخرفين . . وقالت أنى « بيزانت » : [إن الرجل الذى تزوج وهو فى عنفوان الشبيبه (٢٤ سنة) بأمرأة تكبره فى السن إلى مدى بعيد

---

(١) جناب [والطبرى ٢/٥٦٢-٥٦٣] .

ويبقى وفياً لها ستاً وعشرين سنة لا ينقلب شهوانياً بعد الخمسين .[1] .)]

[ثم إن زواج النبى بزينب مثل عال للشهامة . وضرورة تشريعية ، فالعرب يحرمون زواج الرجل بزوجة من تبناه يوماً من الأيام ، فكان لابد للنبى أن يكون القدوة لهم فى كسر ذلك القانون العرفى السائد .]

[كما أن تبرم زينب بالحياة مع زوجها ، وخجل زيد من أن يطلق امرأة لها صلة القربى الشديدة بحبيبه، وضع النبى فى موقف حرج لا خلاص منه إلا بأن يأذن لزيد فى طلاقها ، ولا يجبر خاطرها بعد أن أصبحت مطلقة إلا زوج كفء ، والكفء للمرأة يكثر وهى بكر ، ويندر وهى مطلقة فلم يكن لرأب صدع كرامتها وسيلة إلا زواج النبى بها ، لأنه هو الذى كان قد أمرها بالزواج من قبل بزيد . فنزلت على ارادته دون ارادتها . تلك هى ملابسات القصة تنضح بالشرف والأريحية ، لابالغرام والنزعات الشهوانية] .

[وقد كان الرسول شابا قوى البدن جميل الصورة ، وقد ولد ونشأ فى بيئة إباحية فى النساء ، فكان المثل الأعلى فى العفة وتجنب كل الملاذ والشهوات إلى حد أنه هجر مجالسها التى تشتمل على اللهو والخلاعة حتى أصبح قديساً يدعى الصادق الأمين .

فهل يصدق العقل أنه حينما انقضى شبابه ودخل فى سن الشيخوخة تنقلب طبيعته ليصبح شهوانياً كلفاً بالنساء وبخاصة بعد أن ينصبه الله لإرشاد الناس ويسن لهم قواعد العفة والبعد عن الشهوات الضارة ؟ وكيف يفسر لبثه مع خديجة وحدها فى سن الشباب والمال حتى تصرم عنه الشاب والمال إذا قلنا : إنه بعد ذلك أصبح أسير الجنس ؟ ولماذا يعزف عن الزواج بها وهى بكر فيزوجها باختياره أحد جنوده ثم يشتهيها ثانياً ؟ كل هذه أمور تجعل إتهام المستشرقين ساقطاً شر سقطة] .

[ثم قال سفارى]

قضى هذا القانون على كل الشائعات ، ورأى زيد ـ المجامل ـ أن اسمه قد كتب فى القرآن . وهو الوحيد من بين صحابة محمد الذى نال هذا الشرف .

---

(١) [مجلة الأزهر س ٧ ص ٦٧٦] .

[سرية (١) محمد بن مسلمة إلى القرطاء ١٠ المحرم سنة ٦ هـ]

[القرطاء : بطن من بنى بكر من كلاب كانوا ينزلون التكرات بناحية ضرية وبين ضرية والمدينة سبع ليالٍ .] .

عام ٦٢٢١ من هبوط آدم حسب تقدير أبى الفدا - عام ٦٣٦ من ميلاد المسيح عام ٦ من الهجرة - عام ٥٨ من حياة محمد .

فى بداية هذا العام ، أرسل محمد فرقة من الفرسان على رأسها محمد بن مسلمة [فى الأصل الفرنسى بن سلامه] للقاء بنى بكر الذين تجمعوا فى « ضربه » إحدى الضواحى الواقعة على طريق مكة إلى بصرى . كان هذا القائد ينام بالنهار ويسير ليلاً . وفاجأ العدو وهو منتشر فى الحقول (٢) . فقتل فريقاً منه، وولى الباقون الأدبار .

[أهمل الكاتب ماذكره كتاب السيرة من أن النبى ﷺ « لم يعرض للظعن(٣)(أى النساء) لأن ذلك يعطى ومضة رائعة من الفروسية الإسلامية .] .

. [ثم قال سفارى]

وأسر « محمد بن مسلمة « رئيسهم تمامة [تمامة بن أثال من بنى حنيفة (٤)] وعاد إلى المدينة يسوق خمسين بعيراً [فى الطبقات مائة وخمسين بعيراً .] (٥) وثلاثة آلاف من الغنم وزعت على المقاتلين . وقدم إلى محمد امير بنى بكر فعامله محمد معاملة كريمة . وتأثر تمامة بهذا الاستقبال واعتنق الاسلام فنال حريته . ولما عاد إلى بلاده أصبح من ألد أعداء أهل مكة. وأخذ يهاجم ويسلب وينهب قوافلهم فى كل أراضيه . واستولى على العديد من حمولات القمح فشارفت قريش الموت جوعاً وأجبرها القحط إلى الإلتجاء إلى محمد ترجوه أن يوقف هجمات تمامة . فكتب إليه

[(١) الطبقات : ٢ /٥٦ والأنوار المحمدية ص ٨٧ .(وهى غير سريته إلى بنى ثعلبة كما فى الانوار المحمدية ص ٨٩) .]

(٢) جناب ص ١٣٩ جولة ضد بنى بكر

[(٣)،(٤)،(٥)الطبقات الكبرى ٢/٥٦ .]

محمد يقول له « حافظ على قومى واترك حمولاتهم تمر » فأطاع تمامة الأمر . وجدير بهذا الموقف الكريم من جانب محمد نحو أعدائه أن يحتل مكانه اللائق فى التاريخ .

[غزوة بنى لحيان : [1]]

[(جمادى الأولى سنة ٦ هـ وفى الطبقات والدرر غرة ربيع الأول سنة : ٦ هـ.)]

وبعد القضاء على قريظة [2] بستة شهور - وكان محمد قد قصد إتاحة الفرصة لقواته كى تستريح [3] خرج من المدينة فى شهر جمادى [الأولى] لتوقيع العقوبة على بنى لحيان لقتلهم بعض أصحابه [شهداء الرجيع] ورغبة منه فى مفاجأتهم، سلك الطريق إلى سوريا ثم قفل راجعاً بسرعة وظهر فجأة فى قلب بلادهم . ولكن هذا الدهاء ذهب سدى . فمع أول خبر لتحركه انسحب الأعداء واعتصموا بالجبال وأصبح من المستحيل مهاجمتهم .

[غزوة ذى قرد[4]]

[ذو قرد : (بفتح القاف والراء ، وقيل بضمهما) ماء على نحو بريد من المدينة مما يلى غطفان وقيل على مسافة يوم منها ، وفى الطبقات : هى ناحية خيبر مما يلى المستناخ] .

ولما لم يكن أمام محمد ما يفعله ضدهم ، ذهب إلى غطفان يعاقبهم لأنهم استولوا على جزء من إبله وعاد الى المدينة محملاً بالأسلاب [وأغفل سفارى ذكر قتل الغطفانين بقيادة عيينة بن حصن الفزارى راعى إبله وأسر زوجته] .

---

(١) [يسكنون وادى غران بين أمج وعسفان]

(٢) أبو الفداء [ص ١٤٣ والانوار المحمدية : ص ٨٨ والطبري : ٢/٥٩٥] .

(٣) جنّاب ص ١٤٠ [وأبو الفدا ص ١٤٣ والأنوار المحمدية ص ٨٨] .

(٤) أبو الفداء ص ١٤٠ [لم يتناول أبو الفداء الموضوع ص ١٤٣) ولا ذكر الطبرى الغزوة بهذا الأسلوب والطبري ٢٧ / ٥٩٦، ٦٠٤]

[غزوة بنى المصطلق فى شعبان سنة ٦ هـ]

[وقال ابن سعد فى٢شعبان سنة ٥ هـ وبعدها الخندق:وهم بطن من خزاعة]

نما إلى علم محمد عن طريق عيونه ، أن قبيلة بنى المصطلق القوية تجمع له مقاتليها فهاجمها دون أن يترك لها الوقت لتتقوى . واشتبك معها بالقرب من بئر يطلق عليها (المريسيع) (١) وتقدم رئيس القبيلة وهو الحارث [ابن ضرار ، وفى أبى الفداء ابن أبى ضرار] لكى يتعرف عليه فأصابه سهم أرداه قتيلاً . ولكن موته لم يفت فى عضد بنى المصطلق . وانتظروا لقاء المسلمين فى ثبات ، وقاتلوهم ببسالة مدة ساعة من الزمان . فسخط محمد من طول هذه المقاومة ، فأمر جنوده بأن يلقوا بأنفسهم على الأعداء والسيوف فى أيديهم . فلم يطق الأعداء هذه الصدمة الرهيبة وانطلقوا هاربين ، وظل بعضهم فى ساحة القتال بينما أسر البعض الآخر . فوقع فى أيدى المنتصرين (٢) ألف بعير وخمسة آلاف من الغنم .

[زواج جويرية](٣)

وكانت جويرية بنت الحارث قد وقعت فى سهم ثابت فكاتبته على أن تفتدى نفسها.فدفع محمد الفدية وتزوج هذه الأسيرة الشابة ، ولم يرد المسلمون أن يمر هذا اليوم العظيم مصحوباً بدموع المهزومين فقالوا : إن رسول الله قد عقد حلفا مع بنى المصطلق بزواجه من أميرتم . فلنجبرهم على أن يباركوا هذا الزواج . وعندئذ وبدافع من أنفسهم ـ أطلقوا سراح مائة رب أسرة .

[والصواب أن المائة هم مائة أهل بيت من بنى المصطلق كما قال ابن هشام ، وهم

---

(١) تقع هذه البئر فى أراضى قريظة على بعد خمسة أميال من البحر ، و٢٤ ميلاً من عسفان .

(٢) جناب .

(٣) الحسن [والطبرى ٢/ ٦١٠ فقد قالت جويرية تستعطف النبى ﷺ أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك فوقعت فى السهم لثابت فكاتبته على نفسى . فجئت أستعين بك على كتابى ، فرق لها النبى وقال لها (فهل لك فى خير من ذلك ، أقضى كتابتك وأتزوجك) فشكرت إليه موافقته وأسلمت فتزوجها] .

يمثلون جميع السبى . وقد أسلموا جميعاً لما عرفوا من كرم أخلاق النبى وأصحابه ، وهذه هى حكمة زواج النبى بجويرية . ولغرض خبيث فى نفس الكاتب أهمل هذا الموضوع](١) .

[تحمل الدولة للدية]

وكان أحد جنود محمد قد قتل زميلاً له خطأ وهو فى حمأة الوغى . فعلم بالخبر مقيس [بن صبابة الليثي أخو القتيل] ـ وكان لا يزال مشركاً . فقصد المدينة (٢) وتصنع كفره بالوثنية واعتناق الإسلام ثم طالب بدية أخيه طبقاً لهذا القانون : ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ . ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية (مائة بعير) مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا . فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن . فتحرير رقبة مؤمنة ... وكان الله عليماً حكيماً ﴾ .

وكان الجندى الذى قتل أخا مقيس فقيراً . فقضى محمد عنه الدية ، واحترم القانون وبعد أن تسلم المشرك الماكر قيمة الدية ، مكث فى المدينة حتى اللحظة التى استطاع أن يباغت فيها قاتل أخيه فقتله ، ثم فر إلى مكة حيث ارتد عن الاسلام .

[مزاحمة]

[جهجاه بن مسعود الغفارى وسنان بن وبر الجهنى ـ حليف الخزرج]

وأثناء هذه الغزوة نشب خلاف بين المسلمين بينما كانوا يتدافعون حول الماء ليشربوا ، (٣) وأوشك المهاجرون والأنصار أن يتشابكوا وكان عبد الله ـ كبير المنافقين ـ يضرم نار هذا النزاع . وبلغت به الوقاحة أن نطق بألفاظ سب فيها النبى وهدد بطرده من المدينة . وأبلغ النبى بالخبر فأشار عليه عمر بأن يضرب عنق هذا الأمير المفسد . فرد عليه محمد بقوله : « وما يظن الناس بى لوأنى قتلت أصحابى فى

---

(١) [الطبرى ٢ / ٦١٠].

(٢) أبو الفدا ص ٨١: [١٤٤] .

(٣) أبو الفدا ص ٨١: [أو ص ١٤٤] جناب [والدرور ص ٢٠١ والطبرى ٢/٦٠٥]

السلاح) [؟!] .

[هكذا دائما يضيف إلى أقوال النبى عند ذكر كلمة أصحابى هذه الكلمة (فى السلاح) ليربط الحرب والقتال بالرسالة والرسول بينما لم ترد أبداً على لسان الرسول] .

[أصدق الوفاء للعقيدة]

وقال ابنه عبد الله - وهو مسلم مخلص فى اسلامه [يا رسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه . فإن كنت ولابد فاعلاً ، فمرنى به أنا أحمل إليك رأسه . فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده ، منى وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله ابن أبى يمشى فى الناس ، فأقتله ، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار . فقال رسول الله ﷺ . (بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا) (1).] .

أدى هذا التسامح الذى أملته الحيطة إلى تهدئة النفوس . واعترف عبد الله باندفاعه وتنصل من عمله .

[حديث الإفك]

ولما رجع الجيش الى المدينة ، أتهمت عائشة - زوجة محمد المقربة إلى قلبه - بالزنا مع صفوان . وهو ضابط شاب كان يتولى قيادة المؤخرة . وهى تروى قصتها فى هذا الكلمات «كان النبى كلما أراد أن يخرج فى غزوة اقترع بين نسائه فأيهن خرج سهمها كانت تصحبه فى سفره . ولهذا كلما أخبرنا بحرب جديدة كانت قلوبنا ترتعد خوفاً وأملاً . وكان سهمى قد خرج هذه المرة . فغطانى رسول الله بوشاح وخرجت معه . وكان الهودج المحمول على ظهر الجمل يقوم مقام السيارة ، وبعد انتهاء الغزوة أعطيت إشارة الرحيل وبدأ الجيش يتحرك . ولكنى اضطررت للخروج لبعض حاجاتى وانتظرت مرور القوات لكى أعود وأركب الهودج

---

(1) [تهذيب سيرة ابن هشام ص ٣٢٣ وأبو الفدا ص ١٤٥] .

فلاحظت أنى فقدت عقدى فعدت أدراجى . وبينما كنت أبحث عن العقد بقلق شديد مر بعض الجنود بالقرب من الهودج وحملوه على البعير ولم يندهشوا من خفة وزنه وعللوا لهذا بأمرين :

أ - حرص النساء ألا يأكلن كثيراً من الأطعمة فى مثل هذه الرحلات .

ب - سنى الصغيرة (فلم تكن عائشة قد بلغت الخامسة عشرة) .

لم يشكّوا إذن فى غيابى فارتحلوا . كان بحثى موفقاً إذ عثرت على عقدى فرجعت مسرورة إلى حيث كنت قد تكرت مركبتى . فلم أجد أثراً لأحد . فأخذت أنادى فلم أجد مجيباً . فملأت الدنيا صراخاً فلم يسمعنى أحد . فكنت آمل أن يعودوا لحملى فخاب أملى . وتعبت من الصراخ ومن الانتظار ، وجلست فغشينى النعاس . وكان صفوان - الذى يقاسمنى همومى - قد بقى فى مؤخرة الجيش . ومر فى الصباح المبكر بالمكان الذى كنت أرقد فيه فأبصرنى وأنا بدون حجاب ، فعرفنى ، واستيقظت على صوته وهويقول « إنا لله وإنا إليه راجعون » (١).

[تعقيب]

[ونص حديث عائشة « انطلق الناس فتلففت بجلبابى ثم اضطجعت فى مكانى . فوالله إنى لمضطجعة إذ مّربى صفوان بن المعطل السلمى - وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته فلم يبت مع الناس . فرأى سوادى فأقبل حتى وقف على - وقد كان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب . فلما رآنى قال (إنا لله وإنا إليه راجعون) والفرق بين النصين واضح يكشف لنا عن خبث كتابة الخصوم] [ثم قال سفارى على لسان عائشة:] .

وإنى أقسم بالله أنه لم ينطق بغير هذه الكلمات . وتغطيت بحجابى . وقرب إلىّ البعير وساعدنى على الركوب وقاده من الخطام حتى لحقنا بالجيش . »

---

(١) البخارى أى الجامع الصحيح [إرشاد السارى بشرح صحيح البخارى للقسطلانى فى ٤/٠ ١٩ ط سادسة بالمطبعة الكبري الاميرية سنة ١٣٠٤ هـ والطبرى ٢/ ٦١٠-٦١٩ .]

كانت عائشة تدافع عن نفسها أمام زوجها وأمام أبيها أبى بكر وأمها أم رومان . وكانت شابة وجميلة وبليغة فرجحت حجتها . وسُرّ محمد بأن وجدها بريئة . فقد كان يحبها . ورغبة منه فى ألا يترك أى شك فى سلوكها أو أية شبهة على سمعتها ، أنزل [؟] سورة النور التى تعلن براءتها فى وضوح [بل أنزلها الله] وفيها : ﴿ لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا : هذا إفك مبين .. ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم . إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم..﴾(1) .

[مصير مشيعى الأفك]

وبما أن الوحى الإلهى قد أكد نقاء شرف عائشة ، عوقب أصحاب الافك بثمانين جلدة لكل منهم .

[هذا افتراء على رسول الله ﷺ والتاريخ : بل قوبلت الإساءة بالإحسان . وحين أراد أبو بكر أن يقطع إحسانه عن قريبه مسطح أحد الذين روجوا الفتنة . نزلت الآية الكريمة ﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله . وليعفوا وليصفحوا . ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ (النور:٢٢) فعفا عنه ، وواصل بره . وقد ذكر أبو الفدا أن النبى جلد القائلين (٨٠) جلدة لكل واحد ما عدا عبد الله بن أبى (ص ١٤٥) وهو خطأ وعلى كل حال فإنه لم يذكر غير ذلك]

وكان محمد قد استشار علياً فى هذا الموضوع الدقيق . فأشار عليه بأن يسأل خادمتها . ولم تنس عائشة لعلى هذه المشورة . وفيما بعد كان لدسائسها دور كبير فى إبعاده عن الخلافة.

[تعقيب]

[وبلغة مجالس الدخان المسموم يفكر المستشرقون ، ويفسرون خروج عائشة الطاهرة، المؤمنة أم المؤمنين (على وطلحة ومعاوية جميعاً) بغير مقتضى الأمومة . لقد قالت لها احدى زوجات النبى ﴿ وقرن فى بيوتكن ﴾ فقالت عائشة : حقا ولكن

---

(1) القرآن سورة النور ١٢ – ١٥ .

﴿وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾ وأرجو أن يصلح الله بي . فلما جرت الرياح بما لا تشتهي السفن ، وكانت الأحداث أكبر منها ، عرف لها أصحاب النبي ذلك ، فردت إلى بيتها مكرمة من الجميع .]

[ولكن سوّد السفهاء ثم السذج من المؤرخين ، الصحف بمثل ما قاله سفاري وأمثاله . وفي « كتاب العواصم من القواصم » لمحيي الدين بن عمر بن المالكي في هذا الموضوع ما يشفي صدور المؤمنين وطلاب الحقيقة والإنصاف] .

[صلح الحديبية (١): في ذي القعدة سنة ٦ هـ]

[رؤيا النبي]

كانت الحروب الدائمة قد حجزت المسلمين بعيداً عن الكعبة (٢) . فكانوا يتوقون لزيارة الأماكن المقدسة ، وكان الهدوء مستتباً حول المدينة . فرأى محمد وجوب إشباع هذا الورع . إلا أن هذه الخطوة البارعة كانت تتطلب تفويضاً من السماء ، فأعلن عن هذا الوحي [؟] ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾(٣) . وملأ هذا الوعد القلوب بالفرح واعتقد الجميع أنهم يطيرون الى نصر جديد ، وبعد أن أُذّن في الناس بالحج ، سار محمد قاصداً مكة ومعه ألف وأربعمائة رجل (٤) [يزور الكاتب على التاريخ فالمؤرخون يذكرون أنه لم يكن مع النبي إلا الحجاج - دون الجيش] اختارهم من بين المهاجرين والأنصار . وخلف الجيش سبعون بعيراً مزينة بالزهور وأوراق الشجر ، كانت تمثل الهَدى ولكن هذا المظهر الديني لم ينطل على المشركين فقد كانوا يخافون من زعيم طموح يتخفى تحت رداء الدين المتواضع . وقرروا أن يصدوه وأصحابه ويقفوا لهم بالمرصاد . ولما علم

(١) الحديبية مدينة يقع جزء من أراضيها في الأرض الحرام وجزء في الأرض غير المحرمة وتبعد عن مكة بمسيرة يوم (أبو الفدا - وصف الجزيرة العربية ص ١٢) ويقول بعض المؤلفين : إنها استمدت اسمها من شجرة تنمو في ضواحيها يطلق عليها حُدْبَة . ومعنى هذه الكلمة أحدب ومنحنى ، وهذا يرجع إلى إلتواء جزع الشجرة وامتداد فروعها أفقياً .

(٢) أبو الفدا ص ٨٤ - [١/١٤٥] [والانوار المحمدية ٩٢:٩٣]

(٣) سورة الفتح ٢٤ .

(٤) جناب [أبو الفدا ص ١٤٥]

النبى أنهم ينتظرونه فى أرض مكشوفة ترك الوادى ولجأ إلى المرتفعات وعسكر بالحديبية وكان الموقف يتطلب إما التوقف عن السير [للمفاوضات] وإما الاشتباك بالسلاح . وكانت قريش قد جمعت قواتها مع قوات حلفائها واستعدت لتنازعه الطريق بقوة السلاح (١) وأوفدوا إليه عروة [بن مسعود] أمير ثقيف ـ الذى قال له : إن قريشاً قد لبست جلود النمور وعاهدت الله الا تدخلها عليهم عنوة أبداً . وكان الأمير المشرك وهو يتحدث وديا يتناول لحيةمحمد (٢) إظهاراً لصداقته . ولكن المغيرة الذى كان واقفاً إلى جواره عنفه قائلاً [أكفف يدك عن وجه رسول الله قبل ألا تصل إليك] فرد عليه عروة بهدوء يقول : أنى لا أسيء إليك .

وبعد أن مكث عروة بعض الوقت فى خيمة القائد لاحظ بدهشة مدى الوقار العميق الذى كان يبديه المسلمون لشخص نبيهم . فاذا توضأ جمعوا بعناية الماء الذى استخدمه ، وإذا بصق أسرعوا يتمسحون بريقه (٣) وإذا سقطت شعرة من رأسه ضموها باحترام [ثم افترى الكاتب على التاريخ هذه العبارة المسمومة] « لقد كان كالإله فى وسط الارباب » [تبادر الشعرلم يكن فى هذا المقام ، ولكنها إضافة كاتب غافل غير محقق كباقى المؤرخين الذين يدعى أنهم اهل للتحقيق فالحلق لم يقع إلا بعد الصلح (انظر أبا الفدا والجاحظ والأنوار المحمدية ٩٦) ثم قال سفارى :]

وبعد أن نقل السفير إلى قريش ماشاهده ، اختتم تقريره بقوله : لقد جئت الأباطرة فى حاشيتها ، وجئت كسرى فى أوج مجده ، ورأيت هرقل فى أبهة القياصرة . فوالله مارأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه (٤) . وبعد رحيل عروة أراد محمد أن

---

(١) أبو الفدا : ص ٨٥ [١٤٥/١] [وانظر البخارى ١٥٣/٦ - ١٥٨ باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وهو خال من الغرض الخبيث الذي يرمى إليه الكاتب] .

(٢) إذا عقد اثنان من الأتراك اتفاقا فإنهما يتبادلان تناول لحيتيهما ويقسمان بهذا الجزء النبيل من الوجه بالوفاء بالتزاماتهما . هذا القسم مقدس ومن ينقضه يكن سافلاً [ولكن هذا التفسير المغرض لجذب اللحية ان كان عند الترك قسما فهو عند العرب وغيرهم ليس كذلك ، إلا أن تصحب بالقسم « وحق هذا » أو « وأفدى هذا » .]

(٣) أبو الفدا ص ٨٥ - [١٤٥ - والأنوار المحمدية ص ٩٥ .] .

(٤) بينما كان الجيش معسكراً بالحديبية ، جفف القحط كل الموارد ، وذهب الجنود إلى النبى يعربون عن شكواهم . فأمرهم بأن يغرزوا سهماً فى قاع البئر . فانطلق السهم وانغرز فى الطين . وفى الحال جاش الماء بغزارة وأشبع كل الحاجات (جناب ص ١٥٤) [وأبو الفداء ١٤٩/١ والانوار المحمدية ٩٤ .] .

يرسل عمر بن الخطاب كى يبلغ عنه قريشا عبارات السلام .

[سفير النبى إلى قريش]

فاعتذر عمر بأن الأعداء يذكرون له إساءاته إليهم وغلظته عليهم وأنه يخشى على نفسه منهم . فأوفد إليهم عثمان بن عفان ليؤكد لهم أنه لم يأت لحرب وأنه إنما جاء ليزور البيت العتيق . وقد أدى عثمان مهمته على أكمل وجه . ولكن مقترحاته رفضت ، وقيل له « أما أنت إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . فرد عليهم بقوله « ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله » ثارت حفيظتم على عثمان لهذا الرد فكبلوه بالحديد . وكان هذا العدوان من جانب قريش على حقوق الناس يخدم أغراض محمد . فقد كان حريصاً على أن يكون الحق فى صفه، وأن يظهر بمظهر طالب العدل حتى وهو يقضى على أعدائه ، وغمره الفرح عندما قدم اليه المبرر الذى يساعده على الانتقام انتقاما مشروعاً . وكان هذا الباعث هو الذى جعله يختار عمر بادىء الأمر . لم يستطع أن يتمالك نفسه من السرور فصاح يقول « لا نبرح حتى نناجز القوم»(١).

[بيعة الرضوان]

جمع النبى جنوده وكشف لهم عن ظلم المشركين الذين صدوهم عن مقام إبراهيم وعن سوء معاملتهم لشخص رسوله ، وضعف الثقة فى عهود قوم يعتدون على أقدس الحقوق . بهذا الخطاب اشتعلت حماسة المسلمين وصاحوا لحمل السلاح ورغبة فى ابداء اخلاصهم وتفانيهم فى خدمة نبيهم بايعوه طواعية على السمع والطاعة ، وأقسموا أن لا يفروا حتى الموت . فوعدهم بأن يظل وفياً من جانبه ما لبثوا متحدين . وباركت السماء هذا العمل المجيد ﴿لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً (الاستيلاء على خيبر) ومغانم كثيرة يأخذونها (٢) ﴾ ، لقد أدى تطرف قريش إلى تماسك قوى محمد . فعمل على الاستفادة من حدث غير موات فى ظاهره . وأخذ يعد عدته كى ينتقم لإساءتها معاملة سفيره . ولكن قريشاً تراجعت عن اندفاعها

---

(١) أبو الفدا : ص ٨٦ = [١٤٦/١] .

(٢) القرآن سورة الفتح آية ١٨ .

الأول ، وفكرت فى سوء تصرفها وفى آثاره السيئة ... فأطلقوا صراح عثمان وأرسلوا سهيلاً [بن عمرو] يطلب الصلح . لم يجد النبىّ بدا من قبول هذا الصلح حتى لا يخل بمبادئه وحتى لا يظهر أمام العرب فى صورة الطاغية . فقال له عمر : [يا رسول الله أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى : قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ فرد عليه « محمد » بقوله : أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى .] (١).

[شروط المعاهدة]

ولما تم الاتفاق على بنود الصلح نادى محمد عليا وقال له (اكتب بسم الله الرحمن الرحيم) فقال سهيل :أمسك لا أعرف هذا الأسلوب بل أكتب باسمك اللهم « ثم قال محمد اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله » فقال سهيل : اسمح لى أن أنازعك هذا اللقب . لو شهدت أنك رسول الله لما قاتلتك . ولكن أكتب اسمك واسم أبيك . فاستجاب له محمد وبعد هذه المعارضة قال لعلى: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو(٢):

١ – تعقد هدنة لمدة عشر سنوات تراعى بدقة بين المسلمين وقريش .

٢ – للقبائل العربية الحرية فى الانضمام إلى صف محمد أو صف قريش (٣) .

---

(١) أبو الفداء ٧٨ .

(٢) لما قال محمد لعلى امح كلمة «رسول الله» اقسم ألا يأتى مثل هذا الكفر (أبوالفداء ٨٧) [١٤٦] وجنّاب. فتناول محمد القلم وشطب هذه الكلمات وكتب مكانها « محمد بن عبد الله » ولقد نسى فى هذه اللحظة أنه لا يقرأ ولا يكتب . وكان هذا النسيان معجزة وكان الجهل الذي يتصنعه [؟!] ستاراً يبغى من ورائه إضفاء الطابع الإلهى علي كتابه . ومن المحتمل أنه خلال السنوات الخمس عشرة التي قضاها فى العزلة قد اكتسب المعارف التي تلزمه لتحقيق أغراضه .

[ليس فى السيرة المعتمدة أن محمدا كتب شيئا . وإنما هو افتراء المبشرين والمستشرقين (تهذيب ٣٤٧ والدرر ص ٣٠٦) بل كل الذي فيها أنه سأل عن الكلمة المطلوب محوها فأشار اليها علىّ فمحاها النبى ثم كتب علي « من محمد بن عبد الله» ولفظ البخاري : «فأخذ رسول الله الكتاب وليس يحسن يكتب » . ٥/١٨٠ البخارى] .

(٣) أبو الفراج ـ تاريخ الأمم ص ١٢ ، [أبو الفراج ابن العبرى تاريخ مختصر الدول لشره ترجمة ومتناً المستشرق الإنجليزى القسيس ادوارد بوكوك سنة ١٦٧٢] .

٣ – يغادر محمد وأتباعه الأرض الحرام هذا العام .

٤ – يزور المسلمون الأرض الحرام فى العام القادم فى شهر ذى القعدة .

٥ – يدخل المسلمون مكة وليس معهم أى سلاح سوى السيوف فى غمدها .

٦ – ولا يقيموا فيها سوى ثلاثة أيام ولا يجبروا أى مواطن على الخروج منها .

[وقع المعاهدة فى نفوس المسلمين]

ولقد صدق المسلمون والمشركون على هذه المعاهدة بعد أن أعلنها المفوضون على الملأ.(1) وكان جنود محمد يعتقدون - بناء على الوحى المنزل - أنهم يسيرون الى نصر أكيد . ولكن خبر هذا الصلح قد أدخل الحزن على قلوبهم . وظهر استياؤهم فى سلوكهم العام . وأصبحوا لا يطيعون أوامر قائدهم . فقد أمرهم بنحر الهدْى استعداداً للرحيل فلم ينحروا وظلوا صامتين جامدين . وكرر الأمر ثلاثاً فظلوا بلا حراك . عندئذ ومن غير أن ينطق بكلمة ، اخترق الجيش وذهب الى أقصى المعسكر وتناول السكين المقدس [؟] وذبح بيديه الجمال التى ساقها للهدْى وحلق رأسه وأتم مناسك الحج التى فرضها الدين [على من فى مثل موقفه من المحصورين] بذبح الهدْى وتغلب تأثير القدوة على العناد . وما أن رأوا رسولهم يفعل ذلك حتى بادروا باتباعه ، وفاضت الأرض بدماء الذبائح ، وحلق الجنود رؤوسهم ، وتطهوروا فى تراحم رائع ، وحلت الحماسة الجارفة محل الحزن . ولكى يزيل محمد ما بقى من آثاره لفت الأنظار أنه قد أسىء تفسير الآية القرآنية إذ أنها تنتهى بهذه الكلمات ﴿ فعلم ما لم تعلموا . فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ وقال : « ان هذا النصر يجب أن يسبق دخولكم مكة . تشجعوا اذن أيها الرفاق ، وسيروا حيث تناديكم السماء . » وأُذن بالرحيل فى الحال . وعاد محمد بقواته إلى المدينة . وما أن دخل المدينة حتى أخذ يعد العدة لغزو اليهود . وكان قد أباد قبيلتين من قبائلهم وغزا أراضيهم . ولم تكن هذه الانتصارات كافية لتحقيق أمنه وطموحه . فقد كان امتلاكهم لعدة حصون يثير القلق فى نفسه من ناحيتهم . إذ كانوا دائماً متأهبين

(1) أبو الفدا ص ٥٨٧ [١ / ١٤٦ والانوار ص : ٩٥] .

للثورة ، وعلى استعداد لتقديم كل عون إلى المشركين . وكانوا بمثابة حائل بينه وبين أغراضه[؟!] . ولقد دفعته استحالة إدخالهم فى الإسلام أو جعلهم حلفاء أوفياء ، إلى أن يوطد العزم على استعبادهم [؟!] .

[تعقيب]

[وهكذا تناسى الكاتب عفو النبى عن بنى قينقاع وسماحه لهم بالخروج من المدينة وهم المعتدون ، وتناسى كذلك الخيانة العظمى التى قام بها بنو النضير، وأن النبى سمح لهم أن يختاروا حكما فيهم ، وأن النبى قد نزل على حكم الحكم الذى اختاروه وفيه استبقاء الذرية والنساء .] .

[غزوة خيبر]

عام ٦٢٢٢ من هبوط آدم حسب تقدير أبى الفدا [ص ١٤٧] - ٦٣٧ من ميلاد المسيح عيسى [المحرم] عام ٧ من الهجرة [كما في الدرر ، في رمضان كما في الطبقات] عام ٥٩ من ميلاد محمد .

[فتح حصنى ناعم والصعب]

فى شهر محرم غادر محمد المدينة سراً ومعه ألف وأربعمائة من المشاة ومائتان من الفرسان. وهاجم بغتة حصن « ناعم » واستولى عليه عنوة . ثم ذهب وضرب الحصار حول حصن «الصعب» . وكان اليهود متأهبين للقائه بعد أن أحدثوا تلفا حول مدينتهم . وقطعوا نخيلهم (١) وقاوموا مقاومة مستميتة . ولما نال التعب من المسلمين واشتدت بهم الحاجة إلى المؤونة أحاطوا بخيمة قائدهم وأعربو له عن شكواهم (٢) . فأخذ يدعو ورفع يديه إلى السماء وهو يقول « يارب إنك مطلع على ما وصل إليه حالهم . فقد وهنت قوتهم واشتد عوزهم . فافتح لهم أبواب هذا الحصن العظيم المليء بالمؤن والخيرات . فأثمر الدعاء ثمرته(٣) وأيقظ شجاعة الجنود وانطلقوا وهاجموا الحصن فسقط فى أيديهم . ووجدوا فيه أكواما من

---

(١) أبوالفدا ص ٨٨ [رجعنا إلي أبي الفداء جـ ١ ص ١٤٧ فى النسخة السابق ذكرها وليس فيها قطع النخيل وكذا البخارى .]

(٢) ابن اسحق .

(٣) جابر ، شاهد عيان .

الشعير ومن البلح ، وكثيراً من الزيت والعسل ، وأكداسا من السلاح ، وقطعانا من البقر ومن الغنم ومن الحمير . وحملوا إلى محمد قطعة كبيرة من جلد الإبل مليئة بالأحزمة والأساور وأربطة السيقان والأقراط والحلقان الذهبية فضلا عن كمية كبيرة من الأحجار الكريمة ، ووزعت هذه الغنائم كلها على المقاتلين .

[فتح حصن القموصى]

وقبل أن تخمد حماستهم قادهم محمد إلى حصن « القموصى » الذى كان قلعة خيبر [1] وكان قيامه على صخرة زادها بالتحصينات « كنانة [بن الربيع بن أبى الحقيق] مما جعله بعيد المنال . ولقد اتخذ هذا الأمير ـ الذى كان أغنى زعيم لأقوى طائفة من اليهود ـ لقب ملك اليهود . وكان قد تحصن به مع كنوزه ، فكان ينبغى ضرب الحصار حوله حسب الأصول العسكرية . فقرب المسلمون المنجنيق وآلات الحرب الأخرى وأخذوا يحطمون الأسوار على الرغم من جهود المحاصرين ، وكان المسلمون يجاهدون جهاداً عظيماً اقتداء برئيسهم الذى كان يعرض نفسه لأخطار بالغة ، وهاجموا الحصن بعنف شديد ، ووقعت مواقع كثيرة ولكن المسلمين برغم بطولتهم لم يتمكنوا من تحقيق النصر خلال الانقضاضات الأخيرة . فلما رأى محمد أن كل جهود المسلمين قد ذهبت سدى نادى بالانسحاب . وظل يومين داخل خيمته يتدبر الوسائل التى تحقق السيطرة على القلعة (٢) . وفيما هو يعد خطته أخذ أبو بكر لواء الاسلام ومن خلفه نخبة من المحاربين ، وانطلق وثبت اللواء فى أحد الثغور وقاتل ببسالة ولكن عناد اليهود أجبرهم على الارتداد . فظن عمر انه سيكون أكثر منه توفيقاً فتناول اللواء ونادى أصحابه الشجعان وقادهم ضد العدو ، و بالرغم مما أمطرهم به العدو من السهام فقد صعدوا فوق أنقاض الأسوار وحققوا بطولات عظيمة ، ولكنهم اضطروا بعد قتال شديد ـ إلى أن يولوا الأدبار وأبلغ الضابطان قائدهم بما عجزوا عن تحقيقه من نصر

---

(١) وتعنى خيبر الحصن بالعبرية . وتقع على بعد مسيرة ستة أيام شمال شرق المدينة وضواحيها خصيبة تزخر بالنخيل والزرع (أبو الفدا [ص ١٤٧] وصف الجزيرة العربية ص٤٣) [والطبرى ٣/ ١٠] وهذه المدينة موغلة فى القدم إذ طبقا لما يقرره هذا المؤلف فإن موسى بعد أن عبر البحر الأحمر ، أرسل جيشاً ضد سكان يثرب وخيبر .

(٢) أبو الفدا ص ٨٩ [١/ ١٤٧]

فقال لهم : [فوالله لأعطين الرايه غداً رجلا يحب الله ورسوله ويفتح الله على يديه ، ليس بفرار .]

[تعيين على قائداً]

وفى اليوم التالى أحاط المهاجرون و الأنصار بخيمة القائدمنذ الصباح الباكر . واشرأبت أعناقهم وامتدت أبصارهم وتزاحمت صفوفهم لكى يعرفوا من هذا الذى سيقع عليه هذا الاختيار المجيد . وكان كل شجاع يحرص على أن يكون هو هذا البطل . وكان علىّ ـ الذى لايقهر ـ متحسراً أن يرى شجاعته بلا فائدة إذ أجبره رمد أصاب عينيه على أن يظل عاطلاً . فظهر و هو يربط جبهته بعصابة . (١) فقربه إليه محمد ومسح عينيه بلعابه فبرىء من المرض . وبعد هذا الشفاء العجيب (٢) عهد إليه براية الدين وبعثه يقاتل المحاصرين . وتناولها على بسرور بالغ ، وانطلق بكل ثقة وصعد إلى رضمة(٣) وغرز فيها الراية فخرج إليه اليهود فى أعداد كبيرة وأخذوا يقاومونه ، وثبت على كالطود راسخا فى مكانه ، يقضى على كل من يجرؤ على أن يناهضه. وكان قد قتل الحارث وألقى به تحت قدميه . فنزل مرحب ـ نائب قائد الحصن ـ لكى يثأر لموت أخيه . وكان هذا الضابط مشهوراً بشجاعته وجرأته (٤) ، وكان مسلحاً بدرعين وسيفين ويلبس فوق خوذته عمامتين ، وقد تألقت فى خوذته جوهرة فى حجم البيضة . وكان يمسك فى يده رمحاً ثلاثى الأسنان . فلم يجرؤ المسلمون على مباراته ، واتجه مرحب صوب على الذى كان ينتظره بقدم راسخة و أنشد :

[قد علمت خيبر أنى مرحب : شاكى السلاح بطل مجرب] : [إذا الحروب أقبلت تلهب.]

فرد عليه على : [أنا الذى سمتنى أمى حيدره : كليث غابات كريه المنظرة]

[أوفيهم بالصاع كيل السندرة]

---

(١) أبو الفدا ص ٧٩ [١٤٧/١] [و الأنوار المحمديه ص ٩٧ و الطبري ١٣/٣ و البخاري ١٧١/٥ .]

(٢) من المحتمل أن يكون هذا الشفاء المدهش ـ المشهور عند المؤلفين المسلمين ـ مدبراً بين الحمو والصهر[؟!] .

(٣) [كومه مجتمعة من الحجارة تحت الحصن وفي الأصل المترجم : صعد إلى فجوة و الصواب ما ذكرناه].

(٤) معالم التنزيل .

[(وفى روايه أبى الفدا : أكيلكم بالسيف كيل السندرة)]

[بهذه الروح الحاقدة تكون تفسيرات المستشرقين الدالة على غباء . لقد كان من مع رسول الله مؤمنين به وحريصين عليه أكثر من حرصهم على أنفسهم لما عرفوا من صدقه، ولما سمعوا من كتاب يعرفون إعجازه وهم أهل الفصاحة فما كان أغناه ﷺ عن الخداع والتضليل . والخداع ينكشف حتماً . ولكن مضت القرون ولم يزدد تاريخ النبوه إلا تأكيداً وبرهنة على صدقها . وحسبنا فى الرد على الكاتب قول ليونارد وهو مستشرق من بنى جلدته « إن كان رجل على هذه الأرض قد عرف الله . وإن كان رجل على هذه الأرض قد أخلص له وفنى فى خدمته بقصد شريف ودافع عظيم، فإن هذا الرجل بلا ريب هو محمد نبى العرب [1] »]

ثم اشتبك المتبارزان وتبادلا ضربات قوية . وكان على أبرع منه فأخذ يداور عدوه العنيد وانتهز لحظة أخطأ فيها مرحب ضربته ، فضربه بسيفه ضربة فلق بها رأسه ولم تغن عنه خوذته ولا عمامتاه شيئاً فأخذ يتدحرج فى التراب . ولم يتوقف على عند هذه المغامرة . وإنما اقتفا أثر اليهود وهم فى ذهول من مقتل رئيسهم ، واقتحم عليهم الحصن حتى انتصر عليهم [2] ووقع الحصن فى يد محمد وأمسى سكانه كلهم عبيداً [3] . وكان من بين الأسرى صفية الجميلة

---

(١) [بطل الأبطال لعبد الرحمن عزام جـ١ ص ١٠]

(٢) ويروى أبو رافع رواية لا يقرها أبو الفدا ذاته يقول « كنا نسير بقيادة علي ضد أهل خيبر إذ خرج فريق من جند الحراسة لصدنا . وبينما كان قائدنا يقاتل بيسالة خارقة ضربه يهودى ضربة شديدة فطرح ترسه من يده : فهاج على وانتزع أحد أبواب الحصن واستخدمه كدرع حتى استولى علي الحصن » ويضيف الراوى أنه شاهد الباب ذاته وأن ثمانية رجال قد وجدوا مشقة فى تحريكه من مكانه [بل الصواب أن سفارى يكذب علي أبى الفداء ، فقد ذكر القصة ولم يستنكرها ـ (١ ص ١٤٧) وأبو رافع هو مولى رسول الله وقد رواه ابن اسحق قال حدثنى بريده بن سفيان بن فروة عن أبيه سفيان عن سلمة بن الأكوع عن أبى رافع . الدرر ص ٢١١ وابن هشام ٣/٢٤٩ وأبو الفدا ص ١٤٧]

(٣) أبو الفدا [ص ١٤٧ ـ ١٤٨ والطبرى ٣/٢٣] [وعبارة الكاتب (أمسى سكانه جميعاً عبيدا) التي ينسبها لأبى الفدا فيها كذب والنص بلفظه « فأول ما فتح حصن ناعم ثم افتتح حصن القموص وأصاب رسول الله ﷺ منهما سبايا منهن صفية » ثم قال أبو الفدا : « كان فتح خيبر فى صفر سنة ٧ هـ وسأل أهل خيبر رسول الله ﷺ الصلح علي أن يساقيهم (يزرعوا له أرضهم ونخيلهم) علي النصف من ثمارهم ويخرجهم متى شاء ففعل ذلك » ولكن سفاري يقلب الحقائق تحريضا لليهود علي المسلمين] .

وهي إبنة احد أشراف اليهود ، فقرر محمد أن تصبح له زوجة ومنحها حريتها مهراً لزواجه منها .

[دس السم للنبى]

وفيما هو يتنسم بعض الراحة بعد كل هذه الأعمال ويحتفل مع قواد جيشه بهذا النصر العظيم ، كانت زينب ـ أخت مرحب الذى قتله على ـ تدبر له الموت ، إذ دست له السم فى [ذراع] حمل مشوى وقدمته إليه . وما أن وضع قطعة منه فى فمه حتى لفظها وهو يقول [أن هذا العظم يخبرني أنه مسموم] وكان بشر [بن البراء بن معرور] صاحب محمد قد بلع قطعة من الشاة فمات من فوره . وعلى الرغم من السرعة التى ألقى بها محمد القطعة المسمومة من فمه ورغم الإسعافات التى أجريت له على أكتافه (١) فإن السم الخبيث كان قد دخل فى دمه وقرب من أجله وجعله يعانى آلاما مبرحة حتى مماته (٢) . وكان من طبيعة هذا الحادث ألا يخفف من كراهيته لليهود . ولهذا فقد استمر فى تجريدهم من أموالهم وفى استعبادهم .

[هذا التعليل منطق اللئام . أما النبى كريم الطبع فسيذكر الكاتب نفسه من فعله مع اليهود ما ينقض هذا التعليل] .

[مصير أهل خيبر]

ولما رأى سكان خيبر أن قلعتهم قد سقطت . فتحوا للمنتصرين أبواب مدينتهم وتضرعوا إلى محمد أن يترك لهم زراعة نخيلهم وأراضيهم على أن يعطوه نصف المحصول . فأجابهم إلى طلبهم، ومكثوا بخيبر حتى خلافة عمر الذى طرد جميع اليهود من الجزيرة العربية ونفاهم إلى الشام حيث منحهم بعض الأراضى (٣) .

---

(١) [على أكتافه: زيادة ذكرها سفاري ولم يروها ابن هشام ولا ابن عبد البر ولا ابن سعد]

(٢) جناب [وأبو الفدا ص ١٤٣ وتاريخ الطبرى ص ١٥]

(٣) [أبو الفدا ص ١٤٧ وتاريخ الطبرى جـ ٣ ص ١٥ ، ٢١ ط ٣ دار المعارف سنة ١٩٦٢].

[استسلام فدك : فى شعبان سنة ٧ هـ]

ووقع فى نفوس أهل فدك الرعب بعد الذى علموا من أمر جيرانهم . فاستسلموا وحصلوا من محمد على نفس الشروط التى حصل عليها يهود خيبر . ولما كان هذا النصر راجعاً إلى المفاوضات وليس إلى القتال ، فقد احتفظ محمد بملكية فدك خالصة له طبقاً للقانون القرآنى التالى ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب (١) ﴾ ونظرا لتصميمه على ألا يترك بيد اليهود حصنا واحداً فإنه قاد الجيوش الظافرة الى وادى القرى (٢) الذى رفض سكانه الاستسلام ، فحوصروا وسقط الحصن عنوة وأخذ السكان سبايا .

[غزو حصنى الوطيح والسلالم]

وبعد أن استولى على وادى القرى ذهب يهاجم حصنى الوطيح والسلالم (٣) واستولى عليهما بقوة السلاح . وخلال هذه الحملة العسكرية استولى على جميع حصون اليهود وسلب أموالهم وساق الأمة اليهودية إلى الرق والاستعباد .

[تعقيب]

[هذا أسلوب يستثار به اليهود ، والحقيقة هى التى قالها ابن هشام أن رسول الله حاصر أهل الوطيح والسلالم حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيّرهم أى يأذن لهم بمغادرة البلاد ، وأن يحقن لهم دماءهم ، فقبل رسول الله رجاء هم (تهذيب السيرة ص ٣٥٧) ثم إن غزو وادى القرى ليس كما قال الكاتب قبل الانتهاء من خيبر وانما كان بعد الانتهاء منها . (الدرر ص ٣٢٠ وتهذيب ابن هشام ص ٣٥٩

---

(١) سورة الحشر آية ٦ .

(٢) معناه « وادى المدن » استمد هذا المكان اسمه من كثرة الضواحى والقرى المحيطة به ويقع علي مسيرة يومين من خيبر من ناحية سوريا (جناب) . [وأبو الفدا ص ١٤٨ .]

(٣) أبو الفدا وجناب [الذى فى أبى الفدا : ص ١٤٧ أنه هاجم الوطيح والسلالم بعد حصن القموصى ولما انتهى من حصون خيبر ذهب إلى فدك ثم وادى القرى . ولا يقول محارب بغير هذا إنما هى غفلة المستشرقين ، أو إرادتهم إعطاء صورة تدل علي غفلة حربية للقيادات الاسلامية (انظر الطبرى ٣/١٦ والبخارى ٥/١٧٦) .]

والطبقات ٢/٨٦)].

[قدوم اللاجئين إلى الحبشة]

عاد محمد بقواته المنتصرة الى المدينة متوجاً بالأمجاد، ومحملاً بالغنائم (١). وما أن وصل إليها حتى عاد من الحبشة جعفر بن أبي طالب ومن معه من اللاجئين فقبله محمد بحنان وقال وهو فى تدفق المشاعر [ما أرى بأيهما أسر، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر]. (٢).

وكان قد كتب من قبل إلى ملك الحبشة يطلب إليه رد اللاجئين وأن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان. لقد كانت خطة سياسية كان يأمل من ورائها أن يخفف كراهية ألد أعدائه وأشدهم بأسا. وقام الملك بمراسم الزواج بنفسه (٣) وقرب من عرشه أم حبيبة وغالب بن الليث ابن عم محمد (٤). وألقى هذا الخطاب « الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. لقد كتب إليّ رسول الله يطلب منى أن أزوجه أم حبيبة. وإنى ألبى رغبته بسرور عظيم، وإنى أقدم صداق العروس أربعمائة دينار من الذهب.».

[حذف الكاتب من خطبة النجاشى بعد قوله (عبده ورسوله) عبارة هامة هى «وأنه الذى بشر به عيسى بن مريم ﷺ].

ثم سكب النجاشى النقود أمام الحاضرين، وأضاف إليها هدايا تليق بالفخامة الملكية لترسل إلى محمد. وتسلمها محمد من يد جعفر ودخل ببنت أبي سفيان.

---

(١) أبو الفدا ص ٩١ - [ص ١٤٨].

(٢) [تهذيب سيرة ابن هشام ص ٣٦٢. والدرر ص ٢١٨ وأخرجه الحاكم ٤/٢١١ والطبراني فى الكبير عن الشعبي باسناد مرسل صحيح. وقد وصله الحاكم من طرق أخرى عن الشعبى عن جابر].

(٣) عبد الباقى - تاريخ الحبشة الجزء الثانى الفصل الثالث.

(٤) [وقال ابن هشام وابن سعد والنبهاني: زوجه إياها خالد بن سعيد ابن العاصى وأصدقها النجاشى ٤٠٠ دينار (ص ٥٢٢ التهذيب - والطبقات ٨/٦٨ - ٦٩) وذكر ابن عبد البر المهاجرين إلى الحبشة ولم يأت فيهم اسم غالب بن الليث كما لم يذكره ابن هشام (الدرر ص ٥٠ - ٥٤) ولم يذكره ابن سعد كذلك فى قائمته (الطبقات ١/١٣٦ وتهذيب ابن هشام ٣٦١/٣٦٣ وص ٩٢ والأنوار المحمدية ص ١٥٣)].

[إشراك اللاجئين فى غنائم خيبر]

واقترح محمد على جنوده أن يشركوا اللاجئين فى الغنائم التى استولوا عليها من اليهود فوافق الجميع عن طيب خاطر . ووجد هؤلاء البؤساء فى كرم المؤمنين عوضاً عن الأموال التى كانوا قد تركوها [حين هاجروا] حفاظا على دينهم .

[عام رسل النبى وكتبه : سنة ٧ هـ .]

كان محمد قد أخضع لسلطانه جزءا من الشعب العربى ، وقضى على أمة اليهود[؟!](١). فبدأ يظهر تطلعاته وطموحه - كان موقراً كنبى ، ومطاعا كقائد ، ففكر فى تجربة قوته[؟!] وفى إرسال سفراء له إلى الملوك . وأعد لهذا الغرض خاتما يحمل هذه الأسطورة [؟!] « محمد رسول الله» .[كبرت كلمة خرجت من فم سفارى . « أأسطورة هذا الدين الخالد الذى تتطلع الدنيا الآن الى تعاليمه متحسرة آملة فى الانقاذ بحبله المتين ؟] .

ولما كانت هذه الخطوة ذات أهمية قصوى ، فقد صعد المنبر الذى تعود أن يعظ منه الشعب، وأعلن عن عزمه أمام الناس ، فبعد أن أثنى على الله وشهد شهادة الإيمان ، نطق بهذه الكلمات [أيها الناس : إن الله قد بعثنى رحمة وكافة ، فلا تختلفوا علىّ كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم] فصاح المهاجرون :« يارسول الله ، انا نشهد السماء على أننا سنطيعك حتى الموت مرنا ونحن متأهبون للرحيل » .

[كتاب لكسرى وعامله باليمن]

وكان أول الملوك الذين أرسل إليهم محمد سفراء ، هو كسرى ملك الفرس . اذ قدم إليه عبد الله ابن حذافة [السهمى] خطاب اعتماده [؟!] (٢) فأحضر كسرى ترجمانا يقرأه له وكان

---

(١) أبو الفدا ص ٩٢ [ص ١٤٨ والعبارة مفتراه على أبى الفدا انظرص ١٤٨ من أبى الفدا والفصل السادس من الأنوار المحمدية ص ١٦٥ ثم متى كان لليهود أمة ؟ انهم كانوا نفايات مطاردة من الدولة الرومانية تنقصها مقومات الأمة . ولكن للكاتب غرض خبيث فى تقرير كيان إسرائيلى بالمدينة يثير به دموع اليهود ويوجه به أنظارهم إلى مثوى رسول الإسلام حتى يكونوا عونا للاستعمار فى حربه للإسلام وشعوبه] .

(٢) أبو الفدا ص ٩٣ [وفى نسختنا ص ١٤٨ وفى صبح الأعشى فى صناعة الانشا ٨٠ للقلقشندى المتوفى سنة ٣٣١ هـ ذكر جميع هذه الكتب جـ ٦ ص ٢٧٦ : ٢٨٠ ط ١٩١٣ - وكذا فى زاد الميعاد لابن القيم وسيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٧٩ ط القاهرة ١٣٣٧ هـ والطبرى جـ ٣ ص ٨٤ وما بعدها ط ١٣٢٦ هـ .].

يبدأ بهذه العبارات « من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس » فاستشاط غضباً من هذه المقدمة - وكان لا يزال يتمسك بزهو حكام الأمة - ورأى فى كتابة اسم محمد قبل اسمه إهانة له ، وأخذ الكتاب ومزقه وهو يقول: (أهكذا يتجرأ عبد ويكتب إلى سيده ؟) ولما نقلت هذه الكلمات إلى محمد قال :« سوف يمزق الله ملكه » ورأى كسرى أن جرأة من اسماه عبدا لم تجد العقاب المناسب . فكتب إلى «باذان » عامله باليمن - ليرسل إليه على الفور هذا المجنون الذى جعل من نفسه نبياً فى إقليم الحجاز [1] فأسرع « باذان » فى إرسال رسولين إلى محمد ليبلغاه أوامر سيده . وقدم الرسولان الى محمد فوقفا يرتجفان رعباً ، وأرادا ابلاغه موضوع الرسالة فأجل مقابلتهما إلى اليوم التالى من غير أن ينصت لهما . وأثناء الليل - إذا صدق الكتّاب المسلمون - جاءه الوحى فأخبره المبعوث السماوى بموت كسرى [2] الذى قتله ابنه « شيرويه » [3] . وفى الصباح المبكر أحضر الرسولين وأخبرهمابالنبأ . وقال لهما:«اعلما أن دينى وصولجانى سيمتدان الى حيث يمتد ملك كسرى . اذهبا وقولا لباذان أنى أدعوه الى اعتناق الإسلام » ولما وصلا إلى باذان أبلغاه بالرساله [4] وبعد بضعة أيام تلقى باذان من شيرويه كتابا يخبره بموت أبيه وبتوليه العرش من بعده ، وينهاه عن إزعاج النبى . تأثر باذان من تلاقى الأحداث وظن أن فى ذلك إعجازاً . وأسلم مع كل الفرس الذين كانوا فى حاشيته .

[كتاب النبى الى هرقل]

وكان هرقل ثانى الملوك الذين أرسل اليهم محمد سفراءه [5] ، فقدم إليه «دحية» خطاب إعتماده [؟!]. [لم يكن خطاب اعتماد كما قال سفارى الذى يضفى على النبى وأعماله صفة الملوك وطابع سياسة العصر الحديث لينقل ذهن القارىء بعيداً عن تصور مقام النبوة المهيب الى صورة الملك بأطماعه وزينته] . فتسلم القيصر الكتاب

---

(١) الحجاز هى جزء من الجزيرة العربية الصخرية وتقع المدينة فى هذا الاقليم .

(٢) كسرى هو الملك الثالث والعشرون على الفرس من أسرة الساسانيين . وكانت هجرة محمد فى العام الثاني والثلاثين من حكمه . وفى العام الثانى من قيام أمبراطورية هرقل (أبوالفدا) [ص ٦٩].

(٣) قبل أن يموت هذا الملك الذى ملأ الشرق في سنوات ملكه الأولى بضجيج انتصاراته، قال له شيرويه لا تندهش من أني ألطخ يدى بدمك.فقد قدمت إلى المثل فى قتل الأب وتذكر أنك بعد أن أحرقت عينى أبيك هرمز بالحديد المحمى قتلته.فلو أنك كنت قد أحترمت حياة ابيك لاحترم ابنك حياتك « عندئذ أعطى إشارة إلى أجناده فقتلوه (أبوالفدا حياة كسرى) [ص ١٤٨] .

(٤) (٥) أبو الفدا ص ٩٤ [١٤٨و١٤٩].

فى احترام وفتحه وكان نصه الآتى (١) : ـ

بسم الله اللرحمن الرحيم

[« من محمد بن عبد الله ـ رسول الله ـ إلى هرقل عظيم الروم . السلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين . فإن توليت فإن عليك إثم الأكارين [وفى رواية الأريسيين] . (الفلاحين الوثنيين) ﴿ويأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا تعبد « إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ .]

وبعد أن قرأ هرقل الرسالة (٢) وضعها باحترام على وسادة وتحدث وديا مع دحية ولما أشبع السفير فضوله من الحديث رده هرقل مع هدايا عظيمة .

[كتاب النبى الى المقوقس وجريج بن متى]

وذهب حاطب سفيراً الى المقوقس (٣) عامل هرقل على مصر . وكان هذا الحاكم قد اتخذ لقب أمير القبط (٤) وكان يعتبر السند السرى لليعقوبيين ، وكان يكره الروم الذين كانوا يمنعونه من أن يمارس شعائر عقيدته علانية . ولقد استفاد من الاضطرابات التى نتجت عن الحروب التى شنها أمبراطوره ضد الفرس ، واحتجز القبائل التى كان مكلفا بأن يوصلها إلى القسطنطينية. كان يخشى على حياته من ذلك ، فلم يرد أن يثير على نفسه عدوا جديدا . فاستقبل سفير محمد بتكريم وحفاوة وقرأ خطابه ورد عليه بالآتى : إلى محمد بن عبد الله من

---

(١) أحمد بن يوسف [والطبرى جـ ٢ ص ٨٧ ط ١٣٦٢].

(٢) أبو الفدا ص ٩٤ [وأخرجه البخارى ومسلم عن ابن عباس والأنوار المحمدية ص ١٦٦ والطبرى ٣/٨٧ ط القاهرة سنة ١٣٦٢].

(٣) فى العام التاسع عشر من الهجرة وفى خلافة عمر أخضع العرب مصر . وتنكر المقوقس للروم وانحاز في جانب عمرو بن العاص قائد المسلمين ومعه جميع الأقباط ، وحصل علي حرية ممارسة الديانة المسيحية هو وأتباعه بشرط أن يدفعوا الجزية الي الخلفاء (يوتيخيوس) ولقد حافظ العثمانيون علي نفس الامتيازات بنفس الشروط . ويملك الاقباط كنائس يمارسون فيها شعائرهم . ولقد حضرت قداسا فى كنيسة جميله بالقاهرة وهم يتبعون الطقوس القديمة . وهم يتناولون القربان من كلا النوعين . وعند الخروج من المائدة الربانية يجلسون علي المنضدة فى الكنيسة .

(٤) ابن البطريق ـ يوتيخيوس المجلد الثانى ص ٣٠٢ .

المقوقس أمير القبط :

« قرأت كتابك الذى تدعونى فيه إلى الإسلام (١) . ولكن هذه الخطوة تحتاج إلى تفكير وتدبر . وكنت أعلم أنه سيظهر نبى ولكنى كنت أعتقد أنه سيظهر فى الشام . ومهما يكن من أمر فقد استقبلت سفيرك بحفاوة . وسوف يقدم لك هدية منى فتاتين قبطيتين من سلالة نبيلة. وضممت إلى هذه الهدية بغلة بيضاء وحماراً (٢) ذا لون رمادى فضى ، وملابس من الكتان المصرى وعسلا فاخراً وزبدة . »

[كتاب الرسول إلى النجاشى]

وقبل ذلك بوقت قصير ، كان محمد قد كلف عمرو بن أمية سفيره لدى ملك الحبشة بأن يسلمه الخطاب التالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد رسول الله إلى النجاشى ملك الحبشة . الحمد لله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن . وأشهد أن عيسى بن مريم هو روح الله وكلمته (٣) ألقاها إلى مريم العذراء الطيبة الحصينة البتول فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده. وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فأنى رسول الله . وإنى أدعوك وجنودك إلى الله تعالى ، وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى ، وقد بعثت إليكم ابن عمي جعفر ومعه نفر من المسلمين . فخذهم تحت رعايتك ووفر لهم حاجاتهم . وانزع عنك زهو الملك . فإنى أدعوك أنت وبنى أمتك أن تؤمنوا بالإله الأعظم . ألا هل بلغت اللهم فاشهد! اللهم إجعل نصيحتى نافعة! . والسلام على من اتبع الهدى(٤) . »

---

(١) أحمد بن يوسف ـ التاريخ العام ـ القسم ٥٤ الفصل الثانى .

(٢) الحمير المصرية معروفة بقوتها وسرعتها . ويتم تدريبها فى وقت مبكر على السباق وتجرى كالحصان انها الركوبة العادية للشعب . ومنها ما يباع بستمائة جنيه .

(٣) عبد الباقى الجزء الثانى من كتاب امتيازات الحبشة [والانوار المحمدية ص ١٦٧]

(٤) عبد الباقى . تاريخ الحبشة [منها زيادة « فخذهم تحت رعايتك ووفر لهم حاجاتهم وانزع عنك زهو الملك » (أنظر الأنوار المحمدية ص ١٦٧)] .

ولما تسلم ملك الحبشة هذا الخطاب وضعه فوق عينيه ونزل من عرشه وجلس علي الأرض ونطق بشهادة المؤمنين ورد عليه بالآتي : ـ

بسم الله الرحمن الرحيم

« إلى رسول الله من النجاشي [أصحمه] السلام عليكم يا رسول الله ورحمة الله وبركاته أشهد أن لا إله إلا الله الذى هداني الي الإسلام . يا رسول الله لقد قرأت الرسالة التي بعثت بها إليّ .. وإن ما تقوله عن عيسى هو الإيمان الحق . هو ذاته لم يزد على ذلك شيئا . وأشهد علي ذلك رب السماوات والأرض ولقد عنيت كل العناية بوصيتك . ولقد أستقبلت ابن عمك وأصحابه فى بلادى بكل حفاوة وهم يتمتعون فيها بحقوق الضيافة . إني أشهد أنك رسول الله حقا وصدقا وانى يارسول الله قد أرسلت اليك بابنى أريحا . وإن شئت أتيتك بنفسي (أقدم الولاء لقدسيه رسالتك (١)) وانى أشهد أن ما تقوله لحق [والسلام عليك ورحمة الله] .

[كتاب النبي الي أمير الغساسنة والبلقاء]

ولم يتسلم رسالة بمثل هذه الرقة من الحارث بن أبى شمر الغسانى الذي كان ملكه يمتد فى صحراء الجزيرة العربية حتى تخوم الشام (٢) اذ سلم اليه شجاع (٣) خطاب اعتماده فقرأه وقال له أرجع الي سيدك وسوف أرحل إليه بعد قليل بالجواب » فقال محمد :«فليهلك ملكه » . [وتقع البلقاء شمالي مؤتة ودون دمشق] .

[كتاب النبي إلى ملك اليمامة]

أما [هوذة بن علي] ملك اليمامة فقد حضر بنفسه ليقابل النبى وأسلم ولما عاد الى بلاده أرتد فأرسل اليه محمد سليطا [هو سليط بن عمر وأحد بني عامر بن لؤي] برسالة ولما

---

(١) [ما بين القوسين زيادة من الكاتب علي مراجعنا العربية] .

(٢) أبو الفدا ص ٩٦ . [١/١٤٩].

(٣) [أبو الفداء ص ١٤٩] هو شجاع وهب الأسدى] .

قرأها قال للسفير « لقد سبق لى أن أسلمت وعاونت النبى ، ولكنى سوف أذهب وأشن الحرب علي المدينة، اذا عاد يحدثنى ثانية عن دينه [عبارة المؤرخين « إن جعل الأمر لى من بعده سرت إليه ونصرته وإلا قصدت حربه »] فرد محمد بقوله : [لا ولا كرامة . اللهم أكفنيه فمات بعد قليل] .

[كتاب النبي إلى أمير البحرين]

(١) وكان من أواخر من أرسل اليهم سفراءه هو المنذر [بن ساوي] حاكم البحرين (٢) وكان يحكم البلاد التى كانت علي امتداد الخليج الفارسي . وعندما سلمه العلاء [بن الحضرمي] خطاب النبى قرأه باحترام واعتنق الإسلام (٣) واقتدت به بلاده . وبعد ذلك حقق المنذر انتصارا ساحقاً علي الفرس .

[عمرة القضاء : في ذي الحجة سنة ٧ هـ]

استتب السلام في المدينة اذ اعتنق العرب الإسلام وأخضع اليهود فلم يعودوا يرفعون رؤوسهم . واختار محمد هذا الوقت لزيارة الأماكن المقدسة إذ أن المادة الرابعة من صلح الحديبية تمنحه ذلك الحق . فخرج من المدنية فى شهر ذى القعدة يتبعه موكب كبير فيه جنود مدججون بالحديد وفرقة من الرعاة تسوق الهدى الذى تزينه الزهور. وكان في هذا مشهد حربي وسلمى فى آن واحد (٤) . وبهذه الهيئة دخل محمد الأرض الحرام وكان عبد الله مروض الجياد يتقدمه وهو يمسك خطام بعيره فى يده. وكانت أنظار المسلمين على نبيهم ترقب أقل حركة فقد كان كل شيء مثيراً عندهم وكل شيء مهما عنده .

وقصد الكعبة وقبل الحجر الأسود فى خشوع وطاف بالبيت العتيق وزار الصفا وتل المروة

---

(١) أبو الفداء ص ٩٦ [١٤٩] .

(٢) جناب .

(٣) أبو الفدا ص ٩٨ [ص ١٤٩ وقد روى ذلك الواقدي في آخر كتاب الردة بسنده عن أبي حنتمه كما في نصب الراية للزيلعى ٤/٤١٩-٤٢٠ والأنوار المحمدية ص : ١٦٩].

(٤) جناب ص ١٨٢ [وأبو الفداء ص ١٤٩ والطبرى ٣/٤٣ والجميع لم يذكروا مشهد الحرب ولكنها زيادة المستشرقين].

وأذن للصلاة في مقام ابراهيم . ومكث ثلاثة أيام يؤدى مناسك الحج التي فرضها الدين وبعد أن ذبح الهدى ذهب يعسكر علي بعد ستة أميال من مكة . وكانت مكة خالية فقد انسحب غالبية السكان الى الجبال المجاورة . وكان يستطيع الاستيلاء عليها ولكن الاخلال بميثاق تعاهد عليه علانية يؤدى الى القضاء علي قوته من أساسها . إن طموحه الذي كانت تنظمه السياسة لم يكن يعميه ولم يمسك عليه أعداؤه فرصة واحدة أخل فيها بأى إتفاق .

[زواج ميمونة بنت الحارث الهلالية]

ويحرم الدين الاقتراب من النساء في فترة الحج (١) ولكن محمدا بناء علي امتياز يليق بنبى، تزوج ميمونة بينما كان لا يزال يرتدي ملابس الإحرام ولكنه لم يدخل بها الا بعد أن اتم الحج .

[هكذا افترى الكاتب ، والروايات الصحيحة تقرر أن ميمونة تزوجها النبي فى مكان يسمي سرف قبل الاحرام بالعمرة . ولكنه يميل الى الروايات الضعيفة . وبنفس المكان الذى تزوجت فيه دفنت رضي الله عنها . ولابن القيم فى زاد المعاد كلمة للشوكانى فى نيل الأوطار تحقيق كاف للمسألة، وكذلك بسط ابن عبد البر المسألة فى كتابيه « التمهيد» والاستيعاب ص٧٨]

وبعد أن تحقق للمسلمين مطلبهم الدينى عاد محمد بقواته إلى المدينة

[إسلام صناديد ثلاثة]

عام ٦٢٢٣ من هبوط آدم حسب تقدير أبي الفداء - عام ٦٣٨ من ميلاد عيسى - عام ٨ من الهجرة - عام ٦٠ من ميلاد محمد .

قصد المدينة كل من خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة . وكان الأول أعظم قائد عسكرى بين العرب ، وكان يقود كتيبة الفرسان يوم أحد ، وجعل النصر يميل الى جانب قريش . أما عمرو بن العاص فهو الذي فتح مصر فيما بعد (٢) وهو الذى أرسل من قبل

---

(١) جناب ص ١٨٤ [وأبو الفداء ص ١٧٢] .

(٢) هو عمرو هذا الذى أحرق مكتبة الاسكندرية بناء على أمر عمر وهى خسارة لا تعوض في الفنون =

في سفارة الى ملك الحبشة (١) يطالبه بتسليمه اللاجئين المسلمين . ولكن الملك رفض طلب عمرو بعد أن استماله جعفر الي جانبه وأما عثمان فقد كان حارس الكعبة وكان يتمتع بنفوذ قوى بين المشركين . كان هؤلاء الأشراف الثلاثة قد نظروا الي المستقبل وتنبئوا لقاهر اليهود وحليف الرؤوس المتوجة ومشرع الأمة ـ بالظفر والنصر القريب . فأحدهم محارب طموح رأى قريشاً مكبلة بالقيود وهو يريد أن يحارب تحت قيادة نابهة لكي يظهر مواهبه علي مسرح أكبر. والثاني بعد أن أوفد مرتين يطالب برؤوس أصحاب محمد كان يخشى علي حياته . وعثمان الذى كان يتمتع بأشرف وظيفة في الجزيرة العربية كان يسعى الي تلافي قرب زوال حظوته . أسلم ثلاثتهم وأن اختلفت دوافعهم وبايعوا نبيهم علي الولاء والطاعة . فأكد لهم أنه نسى الماضي وداعب اطماعهم وأجزل لهم العطاء من النعم .

[هكذا بغير دليل يرمي بالنوايا السوداء التى تملك عليه نفسه عباقرة أسهموا فى تغيير مجري التاريخ وأحالوا ظلام البشرية الى نور .]

[غزوة مؤتة : فى جماد الأولى سنة ٨ هـ]

(٢) كان محمد قد بعث الحارس بن عمير إلى أمير بصرى يدعوه إلى الإسلام . ولما وصل السفير إلى مؤته ، نزل يستريح من عناءالسفر وهو يجهل المصير الذى كان ينتظره. ففاجأه عمرو بن شرحبيل [هكذا قال سفاري ولكن في الطبقات (٩٢/٢) شرحبيل بن عمرو القساني] عامل هرقل علي المدينة ، واغتاله. والحارث هو الوحيد الذى قتل من بين سفراء محمد ـ فقرر محمد أن يثأر لقتله . وجهز ثلاثة آلاف مقاتل . وأمرهم بالسير حتى مؤتة ـ وهى مدينة بالشام جنوبا وفى مواجهة حصن الكرك (٣) ـ وأن يدعوا سكانها إلى الإسلام ، فإن رفضوا فعليهم أن يمطروهم بالحديد والنار داخل بيوتهم .

= = والمعارف الإنسانية [وما قاله سفاري عن المكتبة كذب علي التاريخ تصدى لدفعه غيره من المستشرقين المنصفين وقد ذكرنا ذلك] .

(١) جناب [وأبو الفداء ص ١٢١] .

(٢) أبو الفدا : ص ١٠٠ [١ / ١٥٠) والطبرى ٣ / ٣٦ والأنوار المحمدية ص١٠٣ والبخارى ١٨٣/١٨١/٥].

(٣) اطلق الفرنسيون على هذا القصر Crac de Mont -Real وهو قريب من الأردن وقد استولوا عليه بعد =

وكانت أول مرة يحمل فيها العرب السلاح ضد الروم . ولقد نتج عن هذه الشرارة حريق هائل دام ثمانمائة عام تلظى منه الشرق . فمنذ تلك اللحظة ظلت الحرب بين الأمتين مشتعلة حتى الوقت الذي استولى فيه العثمانيون بقيادة محمد الثانى على القسطنطينية(١).

[تعيين القادة]

ولقد سلم محمد قيادة الجيش إلي زيد - ابنه بالتبنى - وأعلن فى حضور جنوده أنه اذا أصيب زيد ، فجعفر بن أبى طالب . فان اصيب فعبد الله بن رواحه . وسار المسلمون بقيادة زيد (٢) تغذيهم الرغبة فى الانتقام ، وعبروا ببسالة الرمال الحارقة والصحراء القاحلة حتى وصلوا مؤتة بعد جهد جهيد وعسكروابالقرب منها. وعندما بلغ العدو خبر اقترابهم تجمع فى جيش بلغ مائة ألف مقاتل متأهب للانقضاض عليهم . فعقد مجلس للتشاور وكان رأى الكثرة هو تلافى القتال وارسال كتاب الى الرسول بطلب المدد (٣) . ولكن هذا الرأى لم يعجب ابن رواحة فقال : [يا قوم والله ان التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون - الشهادة - وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة . ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به . فانطلقوا فانما هي إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة (٤)] .

[المعركة]

وتغلب هذا الشعور على الموقف . وأعدت العدة للقتال . وغدا المؤمنون يكونون بنيانا يتألف من ثلاثة آلاف رجل شديدى المراس في القتال . أمضوا سبع سنوات من

= فتح أورشليم عام ١٠٩٨ (عام ٤٩٢ هـ) وبعد ٨٩ عام هزم صلاح الدين الفرنسيين قرب بحيرة طبرية، واستعاد القصر وحصونا أخرى كثيرة . وفى هذه المعركة وقع فى الأسر « ريجى » ملك أورشليم وأخوه «خيمر » سيد جبل الفرات - « جفروا » أمير رينو وسيد قصر الكرك .

(١) كان ذلك عام ١٤٥٣ (٨٥٧ هـ) .

(٢) [أبو الفدا ص ١٥٠] وجناب .

(٣) جناب ص ١٩٠ ، [والطبرى ٣/ ١٣٧]

(٤) [الدرر فى اختصار المغازى والسير ص٢٢٢ وتهذيب سيرة ابن هشام ص٢٦٨ والطبرى٣ص ٣٧: ٣٨]

الانتصارات قد رفعت من معنوياتهم وأصبحوا لا يقهرون . ولكثرة ما قهروا أعداءهم فلم يخفهم مائة ألف رجل . واندفعوا فى المعركة التي كانت طويلة ودامية . وسقط زيد وهو يقاتل فى الصفوف الأولى بعد أن اثخنته الجراح . فحمل جعفر الراية وأخذ يدافع عن مجد المسلمين فقطع جندى يده التي يحمل بها الراية فحملها بيده الأخرى . فلما قطعت حملها بعضديه حتى اللحظة التى سقط فيها فوق الراية . فحمل عبد الله الراية الملطخة بالدماء ، وأبلى بلاء حسنا في صد الأعداء عنها حتى سقط تحت ضربات العدو كما سقط القائدان السابقان . وأخذ المسلمون يولون الأدبار . فأسرع خالد وحمل لواء الإسلام ونادى من حوله المقاتلين الشجعان . واستؤنف القتال بعنف شديد . وبذل خالد جهدا أخيرا فاخترق كتائب الأعداء وشق قلب جيشهم وأجبرهم على الفرار . ولم يحل بينه وبين النصر سوى الليل . وبعد أن انتخب قائدا بالإجماع عسكر فى ساحة القتال . وقبل الشروق كان جيشه يحمل السلاح ويتقدم فى نظام . وعندما أصبح على مرمى بصر العدو لجأ إلي الخدعة والمناورة الحربية . فوسع صفوفه وأجرى فيها تقدما وتأخرا . وبحيل عظيمة استطاع أن يوهم العدو المذهول أنه يقود جيشاً ذا عدد وفير .

[هزيمة الروم وعملائهم]

اندهش الروم واعتقدوا أنه قد وصلهم مدد قوى فاستولى الرعب علي قلوبهم ، ولما هاجمهم خالد أبدوا مقاومة ضعيفة وتشتتوا مخلفين وراءهم أمتعتهم ليأخذها العدو . ورجع خالد بقواته الظافرة محملاً بالغنائم ومتوجاً بالمجد ، لقد أضاف إلي عمله كقائد بارع بطولة قل نظيرها .ولقد كسر أثناء القتال تسعة أسياف في يده (١) وكان القواد الآخرون قد ابلوا بلاء لا يقل عن بلائه جلالا واقداماً . وقد وجدوا فى جسم جعفر خمسين ضربة بسيف أوطعنة برمح وكلها من الأمام .

[البيان الحربى عن المعركة]

ولما علم محمد بانتصارجيشه فى مؤتة ، جمع الشعب وقال [أخذ الرايةزيد بن حارثة فقاتل بها حتي قتل شهيدا . ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتي قتل شهيدا ، ثم

(١) جناب ص ١٩٠ [البخاري ١٨٣/٥ عن خالد بن الوليد]

صمت رسول الله ﷺ حتي تغيرت وجوه الأنصار وظنوا أنه قد كان في عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهون ثم قال ﷺ ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتي قتل شهيداً . ثم قال ﷺ . ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله حتي فتح الله عليهم] .

(١) عندئذ فاض الشعب بالبكاء حتى استولت الشفقة علي محمد ، واستأنف حديثه قائلا : وأخيراً جاء مقاتل (٢) هو « سيف من سيوف الله » وتناول الراية وأجبر النصر علي أن يكون فى جانب المسلمين .

[الحزن على القادة]

لقد عكر صفو الفرحة بالنصر فقدان القواد الثلاثة الذين حملت أجسامهم الي المدينة حيث كان الناس يرون الجروح الجيدة وقد غطتها . اثرهذا المشهد فى أهالى المدينة وانهمرت دموعهم وساد الحداد [؟] الجميع حتى أن محمد ا ذاته لم يستطع أن يتمالك نفسه فشارك الناس فى مصابهم وحزن علي الصديقين اللذين عاشا معه منذ الصبا . ولقد أخذ ابن جعفر بين يديه وضمه الي صدره فى حنان ونداه بدموعه ولما قابل ابنة زيد أخذها بين ذراعيه ولم يستطع أن يكتم نحيبه . ولما رآه سعد فى هذه الحال قال : « يا رسول الله ماذا أرى ؟ قال : انما هى عبرات الصديق بفقد صديقه »(٣) ولقد أقيمت جنازات فاخرة للقواد المقاتلين وبعد ان انتهى موكب الدفن [كما تخيل الكاتب . والامر لم يتجاوز التجمعات العادية لتقبل العزاء أو ابداء النساء مشاطراتهن نساء الميت في احزانهن . ثم رثاء الشعراء كحسان بن ثابت] .

أراد محمد أن يخفف من حزن الناس فقال « أيها المسلمون لا تبكوا جعفر بعد اليوم . ان منزلته عظيمة . لقد منحه الله جناحين يطوف بهما الجنة الفسيحة حيث يجد ما تشتهيه نفسه . »

* * *

---

(١) البخارى [٤١٣/٧ والطبرى ٤١/٣ وتهذيب ابن هشام ٣٧٠/ ٣٧٠]

(٢) لقب خالد فيما بعد « بسيف الله » واستمر هذا القائد الشهير ـ هازم محمد فى معركة أحد ، والروم فى مؤتة ـ في خلافة أبى بكر وخلافة عمر فى تحقيق انتصاراته العسكرية. وكان اللقب الذى منحه له محمد قد بلغ أعداءه . اذ أن « تيوفان » (ص ٣٨٧) يتحدث عن الأمير خالد بلقبه « سيف الله »

(٣)جناب [وابن هشام وابن سعد في الطبقات والبخارى ١٨١/٥ ولم يذكر قصة ابنة زيد] .



الفصل الثانى

من الفتح إلى مرض النبى

[الفصل الثانى]

[من الفتح إلى مرض النبى]

[فتح مكة : ١٠ رمضان سنة ٨ هـ]

(١) وقع حادث كانت له آثار كبيرة فى صرف الناس عن الحزن وعن الآلام . فقد دخل بنو بكر فى عهد قريش طبقا لما كان يسمح به صلح الحديبية . ودخلت خزاعة فى عهد محمد ، ودفعت الكراهية التى كانت تسود كلا من هاتين القبيلتين للأخرى ، إلى اتخاذ هذا الموقف المتعارض . فلما رأى بنو بكر أعداءهم ينعمون بالراحة فى ظل السلام تحركت فيهم العداوة القديمة . وتغلبت سهولة الانتقام عندهم على قداسة القانون . فطلبوا من قريش أن تمدهم بقوة، وهاجموا خزاعة. وفاجأوا إحدى قراها . ونكلوا ببعض سكانها ولاذ الباقى بالفرار (٢) فشكا الحلفاء المنكوبون إلى النبى فوعدهم بالمساعدة .

[وساطة أبى سفيان]

وكانت قريش بإرسالها بقوات منها الى خزاعة قد نقضت صلح الحديبية . ومالبثت قريش أن أدركت الآثار الوخيمة لسلوكها. ولكى تحول دون هذه النتائج المرتقبة، أوفدت أبا سفيان الى المدينة وفوضته فى أن يقدم كل ما يمكن لإرضاء النبى . لكن هذه الخطوة كانت بلا جدوى . فقد كان محمد سعيدا بأن وجد مثل هذه الفرصة المواتية لتحقيق أغراضه، وأراد أن يقتنصها بحجة أن يفى بحق حلفائه. وكان قد أقسم بينه وبين نفسه على أن يحطم كبرياء المشركين وأن يبسط سلطانه على مكة .

[تعقيب]

[ولا ندرى من أطلع سفارى على يمين هوسر غيبه ﷺ فى طوايا قلبه !؟ ويكذّب سفارى فى هذا عفوه الشامل فى أوج انتصاراته وموقفه من سعد بن عبادة كما سيأتى، وإنما أراد الكاتب إعطاء ظلال صورة شرير دموى المزاج لمن قال الله فيه ﴿ حريص عليكم ﴾ ولمن قال لعمر حين طلب منه يوم الفتح أن يؤدب كبار أعدائه : يا عمر مثلى ومثلكم كما قال يوسف لأخوته ، لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ،] .

---

(١) أبو الفداء ص ١٠٣ = [١/ ١٥٠ والانوار المحمدية ص ١٠٧ والطبرى جـ٣ ص ٤٢] .

(٢) ابو الفدا .

وصل أبو سفيان إلى المدينة، ونزل عند أم حبيبة ابنته وزوجة محمد . وطلب منها أن تشفع له . ولما أراد أن يجلس على فراشها (١) [في النص الفرنسي « على السرير] طوته بسرعة فقال لها : « يا ابنتى ؟ أتفضلين هذا الفراش على أبيك ؟ فردت عليه أم حبيبة « إنه فراش رسول الله، وأنت رجل مشرك » شعر أبو سفيان بإهانته وخرج يلعن ابنته . ودخل حجرة النبى وبعد أن امتدحه طلب منه التفاوض ولكنه لم يحصل منه على كلمة(٢).ولقد اشعره هذا الصمت بمقدار الخطر المنتظر . فرجع السفير ذليلاً إلى مكة واخبرقريشا بفشل مساعيه .

[حاطب واسرار الحرب]

وبينما كانت قريش تتشاور فيما ينبغى إجراؤه . وكان محمد يقوم بتجهيزات كبيرة، وكان قد طلب من حلفائه الحضور إلى المدينة. وفرض على جميع المسلمين أن يحملوا السلاح. ولما كان قد قرر أن يهاجم المشركين على غرة، فقد منع إقامة أى اتصال معهم . ولكن حاطباً خالف هذا الأمر، رغبة منه فى إنقاذ أسرته فكتب هذه الكلمات.« من حاطب بن ابى بلتعة الى أهل مكة. اعلموا أن رسول الله يعد العدة لمهاجمتكم . استعدوا للدفاع » وتولت سارة خادمة بنى هاشم توصيل الخطاب فى مقابل عشرة دنانير ذهبية . واكتشف محمد الخيانة.(٣) وأرسل علياً والزبير فى أثر سارة وأدركاها على مسافة قريبة من مكة . وطلبا إليها تسليمهما الخطاب فأنكرت . ففتشت دون جدوى . فغضب على ورفع سيفه وقال : إنه سيطيح برأسها ، فخافت سارة وفكت شعرها الطويل وسلمت إليه الخطاب المخبأ بداخله. وعرض محمد على حاطب دليل الخيانة « وسأله عن الباعث الذى دفعه الى مخالفة أمره فقال المذنب (٤) [أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله. ما غيرت ولابدلت. ولكنى كنت أمرءا ليس لى فى القوم من أصل ولا عشيرة . وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليه] .

فصاح عمر«يارسول الله ان حاطبا منافق وكافر. وائذن لى أن أضرب عنقه »، فقال النبى:

---

(١) لا توجد كراسى فى بيوت العرب وإنما يجلسون على أريكة . وفى المساء يفرشون مراتب تستخدم كالسرير وتطوي فى الصباح فتصبح حجرة النوم حجرة للاستقبال .

(٢) ابو الفدا ص ١٠٢ ، ١٠٣ = [١/ ١٥٠ والطبرى ٤٦/٣ « والانوار المحمدية » ص ١٠٧]

(٣) يقول بعض الكتاب المتحمسين ان جبريل نزل وأبلغه الخبر [وسفارى يكذب هذا الذى رواه ابو الفدا ١/ ١٥٠ والطبرى ٤٨/٣ ، والأنوار المحمدية ١٠٧].

(٤) ابو الفدا ص ١٠٣ = [١/ ١٥٠ وتهذيب ابن هشام ٣٨١ بمعناه فى الدرر ص ٢٢٧ والطبرى ١٥٧/٣ والبخارى ١٨٤/٥].

[وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم (١)] ولكن محمدا أراد أن يمنع الإقتداء بهذا المثل الذى كاد يؤدى الى نتائج خطيرة، فأنزل [؟!] من السماء هذه الآية ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق . يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ، إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى . تسرون اليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم . ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل (٢) . ﴾

[تحرك الجيش]

(٣) وبعد أن أتم محمد عدته تحرك من المدينة فى العاشر من رمضان .(٤) وكان المهاجرون والأنصار وبعض السرايا العربية يكونون جيشاً عظيما (٥). وتضخم هذا الجيش وهو فى مسيرته بانضمام قوات عديدةمن القبائل الحليفة . وأصبح نفس القائد ـ الذى لم يكن فى وسعه أن يجمع يوم بدر سوى ثلاثمائة وثلاثة عشر جندياً ـ يقود عشرة آلاف مقاتل تحت راية الإسلام . وسار الجيش فى سرعة وسرية حتى بلغ أبواب مكة قبل أن تعلم قريش بنبأ تحركه من المدينة . وعسكر فى المساء بمُر الظهران (٦). وانتظر شروق الشمس حتى ينقض على المشركين. وأمر محمد بأن توقد عشرة آلاف نار من النيران. وعين عمر قائداً للمعسكر، وقام بالحراسة على أكمل وجه بحيث انقطع أى اتصال بالمشركين .

[بين أبى العباس وأبى سفيان]

وبدافع من الشفقة ومن الخوف على المصير الذى يتهدد وطنه ، خرج العباس أثناء الليل يتلمس أحدا يخبر قريشاً بأن الرعد يزمجر فوق رؤوسهم. وقابل أبا سفيان وحكيم [بن حزام] وبُدَيلاً الذين خرجوا من مكة يتلقفون أخبار العدو . ولما أبصروا آلاف النيران تبدد ظلمات الليل عادوا أدراجهم مذعورين . فناداهم العباس « إلى أين تجرون ؟ قال أبو سفيان : ألست العباس ؟ قال : أنا هو ـ قال : وماذا أرى خلفك ؟ . قال محمد جاء يزوركم على رأس

---

(١) [البخارى ١٨٥/٥ وتهذيب ابن هشام ص ٣٨١ - ٣٨٢ - الدرر فى مختصر المغازى والسير ص ٢٢٧].

(٢)القرآن سورة الممتحنة : الآية الأولى .

(٣) أبو الفدا ص ١٠٣ [والانوار ص ١٠٨ والطبرى ص ٥٠/٣]

(٤) جناب ص ٢٠٢ .

(٥) أبو الفدا ص ١٠٤ [١٥١] وجناب [والأنوار المحمدية ص ١٠٨] .

(٦) وتقع على بعد أربعة أميال من مكة .

عشرة آلاف رجل . قال : وبم تنصحني أن أفعل ؟ قال : أن تأتي على الفور تطلب الأمان . وعمل بنصيحته . ولما تعرف عمر - الذى كان يتولى قيادة حراسة المعسكر - على زعيم المشركين صاح :« الحمد لله . هذا هو أبو سفيان بين أيدينا من غير عقد ولا عهد » (١) وأسرع إلى النبى يطلب رأسه فشفع « العباس » لأسيره وأعطاه النبى كلمة الأمان وقال : اذهب به يا عباس إلى رحلك فاذا أصبحت فأتنى به . فلما كان الصباح كان أبو سفيان فى خيمة النبى، فقال له قائد المؤمنين : « ويحك يا أبا سفيان « ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ قال أبو سفيان : لا أشك فى ذلك أبداً . قال النبى : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله؟ قال : [بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! : أما هذه - والله - فإن فى النفس منها حتى الآن شيئاً] . فقال : العباس : ويحك آمن بالحقيقة وإلا فان رأسك ... فانهار كبرياء أبى سفيان . واعتنق دين الأقوى ونطق بالشهادتين . وحذا حكيم وبديل حذوه . وجذب محمد العباس بعيداً وقال له : خذ أبا سفيان عند مدخل الوادى حتى يرى قواتى وهى تتدفق أمامه . قال : بكل سرور ، ولكنه رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئا(٢) . فوافق على نصيحته وأعلن هذا القرار « من داخل بيت أبى سفيان فهو امن . ومن داخل المسجد فهوآمن . ومن أغلق بابه فهو آمن . ومن دخل بيت حكيم فهو آمن .»(٣) .

وصحب العباس زعيم المشركين إلى المكان المحدد . وكان مرور المسلمين أمامه يشبع فضوله دون أن يظهر عليه أثر لذلك . ولما مر حرس النبى مدججين بالحديد وبعيون فتاكة ومشية مزهوة تنشر الرعب ، سأل أبو سفيان . من هؤلاء المقاتلون ؟ فقال العباس « إنهم المهاجرون والأنصار الذين يصحبون الرسول فى كل مكان يقصده » فقال : إن ملك ابن أخيك اليوم أصبح عظيماً . فقال :« إنها عظمة النبوة ». عندئذ أطلق سراح أبى سفيان الذى ذهب الى المشركين ووصف لهم كل ما رأى ونشر عليهم الوجوم .

---

(١) ابو الفدا ص ١٠٤ و ١٠٥ = [(١٥١) والطبرى٣/٥٢/٥٣)].

(٢) أبو الفدا ص ١٠٥ [=١٥١ والطبرى ٣/١٥٤] .

(٣) [دخل بيت حكيم زيادة ليست فى الدرر ص ٢٠٣ ولا ابن هشام (التهذيب / ٣٨٨)ولا الطبقات ٢/٦٨ والطبري٣/٥٤ وسيرقابن هشام٢/٢٦٨ وابن جرير٣/٣٣٠-٣٣٢ المجمع للهيثمى٦/١٦٥/١٦٧ والطبراني وآبو داود٢/٤١ ومسلم ٥/١٧٢-١٧٣ من حديث أبى هريرة أنه قال (ومن ألقى السلاح فهو آمن) بدل (ومن دخل المسجد) وهي فقط فى رواية للطبرى عن عبد الوارث عبد الصمد عن أبيه عن أبان العطار عن هشام بن عروة عن عروة (٣/٥٤: وأبا ن ضعيف.] .

[تنظيم الهجوم]

وبعد أن أرسل محمد كلا من حكيم وبديل ، نظم جيشه بالطريقة الآتية : -

أعطى فرقة للزبير [وهى المجنبة اليسرى] وأمره بأن يصعد المرتفعات التى تشرف على مكة وذلك عن طريق كدّى . وأمر سعد [بن عبادة سيد الخزرج] أن يسيطر على التلال التى يخترقها طريق كداء .وكان على على رأس الفرسان يحمل راية الإسلام ، وكان عليه أن يقف عند جبل الحجون [بأعلى مكة] إلى أن نادى سعد بهذه الكلمات التى تتضمن التهديد « اليوم يوم الملحمة : اليوم تستحل الحرمة ...» (١) .

وكان خالد قائدا على الحلفاء [وهم أسلم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من قبائل العرب] ويقود [المجنبة اليمنى] وكان مكلفاً بالنزول فى الوادى وبالسير نحو أسوار مكة. أما محمد فقد ظل فى المؤخرة وهو متأهب لإصدار أوامره بما يتطلبه الموقف . وكان القواد قد صدرت إليهم الأوامر بعدم القتال إلا إذا هوجموا . صدرت هذه الأوامر ثم تحركت القوات المختلفة . ولم يلق الزبير أية مضايقات فى جانب الجبال حتى وصل أبواب مكة من غير أن يستل سيفا . أما خالد فقد وجد مقاومة فى السهل . إذ اعترضت طريقه بعض كتائب قريش وأمطروه بالسهام فهاجمهم خالد بسيفه وأجبرهم على الفرار، وتبعهم حتى أسوار مكة . لاحظ محمد ضجيج المعركة وهو على قمة الجبل فصاح : ماذا أرى ؟ ألم أنهكم عن القتال ؟ فقيل له: إن المشركين هاجموا خالدا وهو يدافع عن قواته . فأرسل اليه أمراً بأن يحقن الدماء .(٢) .

[دخول النبى مكة]

ونزل من جبل الحجون . ودخل مكة عندما كست الشمس الأفق بضوئها . وكان على يحمل أمامه راية الإسلام ، وأبو بكر عن يمينه ، وزيد عن شماله ، وخلفه أسامه بن زيد . وانحنى بشدة شكراً لله الذى جعله سيد الأرض المقدسة وحرم إبراهيم . وقرأ بصوت عال سورة الفتح التى تبدأ بهذه الكلمات ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبينا . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيماً. وينصرك الله نصرا عزيزاً..الخ﴾

وبينما كان يخضع شعبا لم يعرف حتى تلك اللحظة سيداً ، كان شغله الشاغل هى الأفكار الدينية .كانت رأسه مطوقة بعمامة سوداء وجسمه مغطى ببردة إحرام وكان يبدو على هيئة مسلم ورع وليس كفاتح لمكة .

---

(١) أبو الفدا ص ١٠٦ = [١٥١/١ والطبرى ٥٦/٣] .

(٢) جناب ص ٢٠٦ [وأبو الفدا ص ١٥٢] .

[تطهير الكعبة]

تيمم النبى الكعبة وكان أول ما عنى به تحطيم ستين وثلاثمائة صنم تحيط بها من كل مكان [والواقع التاريخى أن جل الأصنام كانت فى جوف الكعبة وليس كما قال سفارى] ، فكان يضربها بعصا كانت فى يده وهو يردد:﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾(١) ..وبعد أن غطت آلهة العرب الأرض بأنقاضها ، قام وطاف بالكعبة سبع مرات ولمس بوقار الحجر الأسود (٢)وقبل أن يدخل الكعبة أمر بخلع صور النسوة(٣) وهى من بقايا ديانة الرجس . ولما رأى الصور التى تمثل إبراهيم وإسماعيل وبيدهما الأزلام صاح [قاتلهم الله جعلوا شيخنا يستسقم بالأزلام : ما شأن إبراهيم والأزلام ؟:﴿ ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلما. وما كان من المشركين﴾ [حذف سفارى الاية من النص الفرنسى] وبعد أن حطم كل ما صنعته الخرافات ، دخل الكعبة هاتفاً:« الله أكبر» وصلى ركعتين .ثم اتجه إلى بئر زمزم التى كشفها الملك لهاجر ، فارتوى منها وتوضأ.

[مع الجموع المنهزمة]

أتم صلاته وجمع قريشاً وقال لهم (٤) : « لا إله إلا الله صدق وعده ونصره عبده وهزم الاحزاب وحده ، ومكننى منكم ، وجعل من بعثتى ما يخرجكم به من الكفر . فلن تسجدوا بعد ذلك لحجر لا يسمع ولا يعقل وسوف لا تلصقون الخرافات بإبراهيم وإسماعيل وهما رجال مثلنا..» ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (٥) .

ويرجع الفضل فى فتح مكة إلى قوة السلاح (٦) وكان هذا النصر يبيح له أن يسترق قريشاً بأسرها. ولكنه اتجه إلى جموع الناس وسألهم.« ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا :« خيراً أخ كريم وابن أخ كريم » قال:« اذهبو فأنتم الطلقاء».

---

(١) القرآن سورة الاسراء (٨١) .

(٢) أبوالفدا ص ١٠٧ [١٥٢/١] .

(٣) كان العرب يعتقدون أن الملائكة بنات الله ولهذا صوروهم علي هيئة نساء وعبدوهم .

(٤) جناب .

(٥) القرآن سورة الحجرات : ١٣ [٨١] [المروى فى كتب السيرة أنه على بن أبى طالب] .

(٦) أبو الفدا ص ١٠٧ [١٥٢ وقد ذكر ابو الفدا بحثا عن فتح مكة. هل كان صلحاً ؟ كما قال الشافعى أم يعتبر عنوة ؟ كما قال أبو حنيفة ـ ولم يذكر عبارة سفارى]

[الآذان فوق الكعبة]

ولقد استخدم محمد فى نفس اليوم السلطة التى كانت تخولها له رئاسته الدينية(1) فلما حان وقت صلاة الظهر ، أمر بلالا - مؤذنه - بأن يصعد الكعبة وأن يؤذن للصلاة .

[لمن مفاتيح الكعبة ؟]

وكان العباس يسعى للحصول على مركز سدانة الكعبة. وكان عثمان الذى أسلم بالمدينة . يشغل هذا المنصب. فأجبره محمد على أن يسلمه المفاتيح . وكان ينوى تسليمها إلى عمه ولكن غضب عثمان استوقفه . لأنه كان يهمه أن يكسب الى جانبه زعماء قريش ، ولهذا أعاد إليه المفاتيح .

[لمن السقاية ؟]

ولإرضاء العباس أعطاه الكوب الذى يشرب به الحجيج من بئر زمزم . ولا زالت عائلة العباس حتى اليوم تمتلك هذا الأثر القديم المحفوظ بقداسة دينية (2) [والسقايا هى توفير المياه لجميع الحجاج وليست كما تخيل سفارى] .

[بيعة قريش للنبى]

ولقد اختتم محمد هذا اليوم المجيد بعمل يؤكد صولجانه[هكذا يفترى سفارى الكذب على الرســول دون دليل] إذ جاءه كل سكان مكة يبايعونه على الطاعة وتم هذا الاحتفال على جبل الصفا. فقد كان جالساً على ربوة وحوله قواده وتقدم المواطنون فعاهدهم على الوفاء ، والاخلاص وأقسموا بين يدى عمر [؟] على السمع والطاعة حتى الموت.

[بيعة النساء]

وبعد ذلك تقدم النساء وأخذ بيعتهن بنفسه . وكان من بينهن هند زوجة أبى سفيان التى كانت قد أكلت قلب حمزة يوم أُحد(3) وكانت متنكرة. وكان محمد قد أمر بقتلها فأخذ يبحث عنها ببصره حتى رآها. ولما كشف أمرها ألقت بنفسها تحت

---

(1) جناب ص ٢١٣ .

(٢) نفس المرجع ص ٢١٤ .

(٣) ابو الفدا ص ١١٠ -[١٥٢/١] .

قدميه[؟] وقالت : « أنا هند ، أنس الماضى واعف عنى . فعفا عنها [والخيال الكاذب المنبعث من طبيعة همها الجنس والجبروت واضح فى قوله يبحث عنها ببصره - وألقت بنفسها تحت قدميه . اذ لم يرد فى أى كتاب] .

[أعلان المبادىء الرئيسية للحكم]

وكان محمد كمارأينا قد حرم على قواده اراقة الدماء . ولكنه كان قد عين عددا من المذنبين. وأمر بأن يقتلوا أينما وجدوا . ولتهيئة الأذهان عند قريش لهذه المؤامرة خطب فيهم هذه الخطبة (١) [بعد الظهر] [إن الله قد حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض فهى حرام الى يوم القيامة : ولم تحل لى الا ساعة من نهار ، ثم رجعت كحرمتها بالأمس ، ليبلغ شاهدكم غائبكم ، ولا يحل لنا من غنائمها شيء]

[المحكوم عليهم غيابياً]

ويختلف الكتاب فى عدد المطلوب قتلهم (٢) فيذكرأبو الفدا أنهم عشرة : منهم ستة رجال وأربع نساء وهم الرؤوس : عكرمة بن أبى جهل أول من كان يجب أن يراق دمه والذى هرب إلى اليمن يوم فتح مكة . وكان قد تزوج من أم حكيم منذ وقت قصير. ولما حزنت هذه المرأة الشابة على هروب زوجها ذهبت إلى النبى وألقت بنفسها تحت أقدامه وبللتها بدموعها [تصوير كاذب لجمال المرأة] وحصلت على العفو الذى كانت تطلبه ورحلت من فورها الى عكرمة وحملت إليه هذا النبأ ثم عادت به وقدمته إلى محمد الذى استقبله بكرم وعينه عاملا على هوزان . وبعد أن أسلم عكرمة حارب من أجل دينه الجديد بنفس القوة التى حارب بها من أجل أوثانه (٣) ولقد قتل فى معركة اليرموك فى خلافة أبى بكر .

أما الثانى فهو هبار[بن الأسود] الذى كان رجلاً ثرياً . ولقد آذى النبى وسب بناته مع الحويرث [بن نقيذ] .

[الذى قال عنه المؤرخون أن النبى أهدر دمه هو هبار بن الأسود ولكن سفارى

---

(١) مؤلف كتاب « شفاء الحيران » [وتهذيب ابن هشام ص ٣٩١ - ٣٩٤ والطبقات ٢/٩٨ والدرر ٢٣٢ ، ٢٣٤ الطبقات ٢/٩٩ والأنوار المحمدية بلفظ أكثر ومثله في البخارى ٥/١٩٠ ، ١٩٤ ص ١١١ ، ١١٢ .]

(٢) يذكر جناب أنهم ستة [وإلى هذا صاحب الطبقات وصاحب الأنوار المحمدية ص ١١١].

(٣) مؤلف كتاب شفاء الحيران و [الطبرى ص ٣/٥٩ : ٦٠] .

يذكر مكانه هبيرة ، وهو هبيرة بن أبى وهب المخزومى ، زوج أم هانىء بنت أبى طالب . وقد هرب عند الفتح إلى نجران ومعه عبد الله بن الزبعرى السهمى . ثم رجع ابن الزبعرى مسلماً وأقام هبيرة كافرا ، كما قاله الطبرى وقد أخطأ سفارى فى روايته (الطبرى ٣/٦٤)] .

وكان قد اختفى بمهارة حتى فشلت جهود الحراس فى العثور عليه . وفيما بعد دفعته الرغبة فى التوبة والخوف من اكتشافه إلى أن يذهب إلى المدينة وأن يسلم ، وكان يرجو نسيان ماضيه فقال له محمد « يا هبار لقد عفوت عنك . وإن الإسلام يجب ما وقع من جرائم فى الجاهلية.»

وأما الثالث فهو عبد الله (١) بن سعد [بن أبى سرح من بنى عامر بن لؤى] أحد اشراف قريش وكان فى أول أمره مسلما وكاتباً للوحى . فأخذه الغرور بعمله وأصبح مراقبا لسيده وغير الكلمات واقتضب بعض الآيات وسخر من القرآن بين أصدقائه . ولما اكتشف غشه ارتد عن الإسلام . وبعد فتح مكة صحبه عثمان إلى النبى وطلب له العفو (٢) ولم يحصل عليه الا بعد إلحاح متكرر . وبعد أن خرج قال محمد لقواده [لقد صمت ليقوم اليه بعضكم فيضرب عنقه ، فقال رجل من الأنصار فهلا أومأت الى يارسول الله ؟ قال : إن النبى لا يقتل بالإشارة (٣)] ولقد عاش عبد الله حتى خلافة عثمان الذى نصبه حاكما على مصر. وكان مروضا ممتازاً للخيل ، وكان شغوفاً بحبها . ولقد قرأ سورة العاديات وهو يموت (٤).

وكان الرابع هو مقياس (٥) ولقد تحدثنا عن جريمته . فهو مرتد وكافر وكان يستحق الموت. ولقد حاول أن ينسى بين الكؤوس الخطر الذى كان يتهدده . وانطلق فى المرح مع المشركين . وعلم « نميلة » [بن عبد الله] (٦) بحاله فذهب إليه وضرب عنقه .

والخامس هو عبد الله بن خطل (٧) . فقد أرسله محمد لجمع الزكاة من المسلمين فقتل

---

(١) جناب . (٢) أبو الفدا ص ١٠٩ -[١/١٥٢ والطبرى ٣/٥٩ و٦٣].

(٣) جناب [ورواه ابن هشام عن ابن اسحاق بقوله (زعموا) (تهذيب سيرة ابن هشام ص٢٩٣ والطبرى٣/٥٩].

(٤) القرآن : سورة العاديات .

(٥) [هو مقياس بن حبابة الليثى كما فى سيرة ابن هشام ويقال له مقياس بن صبابة فى كتابى الطبقات والدرر.].

(٦) [هو ابن عم مقيس كما قال ابن عبد البر وابن هشام وأبو الفدا ص ١٥٢ والطبرى ٣/٥٩ وهو « نميلة» بالنون وليس « تميلة» بالتاء كما قال سفارى] .

(٧) [هو عبد الله بن هلال بن خطل الأدرم قال ابن هشام : رجل من بنى تيم بن غالب وقال ابن عبد البر رجل من بنى الأدرم بن غالب .] .

المسلم الذى كان يعمل خادما له ، ولما عجز عن الظهور بعد ذلك فى المدينة ارتد واستخدم شاعرين كانا يتبعانه فى كل مكان وينشدان قصائد هجاء لمحمد (١) ثم كان يأمل أن يجد ملجأ بين الأصنام ، فاختبأ فى الكعبة ولكنه اكتشف وقتل .

وآخرهم الحويرث [بن نقيذ] وكان من قبيلة قريش مغرورا بثروته وبشرفه ، ولقد سب محمداً عدة مرات . كما ارتكب جريمة اكثر شناعة جعلته ممقوتاً (٢) وكان على وشك الهروب من مكة . وكان محمد قد كلف العباس بأن يصحب ابنتيه إلى المدينة فقابلهما الحويرث فى الطريق ، فلطمهما بعنف وطرحهما على الأرض . ولم تنس هذه الإهانة فنال العقاب المناسب اذ قابله على وضرب عنقه .

[النسوة المحكوم بقتلهن]

أما النسوة الأربعة المحكوم بقتلهن فهن هند بنت أبى سفيان وسارة مولاة [بني عبد المطلب] بن هاشم وفرتنى وقريبة ، قنيتا عبد الله . ولقد حصلت ثلاث منهن على العفو وقتلت فرتنى وحدها .

[تحطيم الأصنام فيما يجاور مكة]

تم فتح مكة(٣) يوم الجمعة الموافق ٢١ من شهر رمضان (٤) ومكث فيها محمد خمسة عشر يوماً ينظم فيها شئون الحكم والدين . وفى هذه الفترة كان قواد محمد يجوبون الأقاليم المجاورة يدعون الناس الى الاسلام ويحطمون الاصنام .(٥) .

[نشأة الوثنية فى العرب]

وكان إسماعيل [؟!] قد جاء إلى مكة بدعوة التوحيد. وأقام الكعبة تمجيداً لله الواحد. ولقد حافظت ذريته طويلاً على نقاء هذه الدعوة . ولما تزايد عددهم لم تسعهم المدينة فى مساحتها الضيقة ، فخرجت من قلب المدينة طوائف عديدة . انتشرت فى المناطق المجاورة وحملت معها أحجارا من بناء إسماعيل . وكانت هذه الآثار تذكرهم فى

---

(١) مؤلف شفاء الحيران .

(٢) نفس المرجع .

(٣) ابو الفدا ص ١٠[١/٥٢] .

(٤) جناب ص ٢٠٥ [وأبو الفدا : ١/١٥٢ والطبرى ٣/٦٩].

(٥) ابن اسحاق [والانوار المحمدية ص ١١٦ و ١٢٠ و ١٢٥] .

مبدأ الأمر بأصلهم وبدين آبائهم . و بالتدريج أصبحت الأشياء التى تمتعت بالوقار تبعد عن الأذهان البواعث التى أدت إلى وقارها . وأصبحت قطعة الحجر وثناً يعبد . واختلق لها دين وقرابين . وانتشر الفساد . وتلقفت مكة أوثان جيرانها وأصبحت مأوى للوثنية . فحارب محمد هذه الدعوة الدنسة . وسواء أكان قد وضع كل همه فى عبادة الله الأحد، أو كان قد أتجه إلى الدعوة إلى دين واحد ربما يكون وسيلة كفيلة بأن تجمع قوى العرب المشتتة و المنقسمة . فلقد حارب محمد الوثنية بهمة منقطعة النظير ، وتمكن من القضاء عليها . وإذا كان فى إجباره [؟!] للناس على تغيير عقيدتهم قد جعلهم يرتكبون أخطاء جديدة [من وجهة نظر الكاتب المسيحى] فقد أقام بينهم على الأقل فكرة الكائن الأعظم بسموها وجلالها وهو الله المعاقب على الجريمة ، والمثيب على الفضيلة . ولقد قضى على نظام القرابين الإنسانية البشعة التى جعلت الأب وهو يخنق فى نفسه نداء الفطرة - يريق دم أبنائه على مذابح الأصنام . و الحقيقة أن الرسل التى كان يرسلها لتحويل المشركين عن دينهم لم يكونوا رجال سلام . فقد كانوا يدعون الناس والسيوف فى أيديهم ويخيرونهم بين الإسلام وبين الاستعباد[؟!] .

[هل حقاً كان أصحاب النبى دعاة حرب واستعباد ؟]

[يروج المستعمرون و أبواقهم من المبشرين و المستشرقين دعوى ان المسلمين ما ساد دينهم إلا بالسيف . كرر هذه الدعوى فى صور شتى « سفارى » وقالها كثيرون من أمثاله المتعصبين ضد الاسلام مثل « إيرفنج » و« أدميون » و« هنرى جيب » و«هـ جوليمين» من المبشرين . وهذه الدعوة باطله أيما بطلان . وما الاستشراق إلا الوجه الجديد للتبشير و الصورة العصرية التى تسمى كذبا - علما . وجميعهم يؤكدون ما قاله المبشرون على لسان « جوليمين » أن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة ، وقالوا للناس أسلموا أو موتوا . وما قاله المونيسينيور «كولى» فى كتابه « البحث عن الدين الجديد » [1] « لقد وضع محمد السيف فى أيدى الذين اتبعوه وتساهل فى أقدس قوانين الأخلاق ، ثم سمح لأتباعه بالفجور و السلب » هكذا يقول عن النبى القائل «ليس منا من أنتهب أو سلب أو أشار بالسلب » هكذا يقول حملة دعوة (الفجور والسلب فى العالم) عن المسلمين الذين لم يعرفوا الفجور إلا بعد سيطرة النظم المنسوبة إلى

---

(١) [نظريات الحرب و السلام « لمحمد أبو زهرة » ص ٦٩]

المسيحية فى العالم سواء النظم الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية فما وجه الحق ؟ إن الحق فى الطرف الآخر من مقالة هؤلاء الدجالين الكذابين . إنه مع الإسلام ، الذى قال رسوله غاضباً حين بلغه أن طفلاً من أبناء الكفار قتل فى إحدى السرايا «ما بال أقوام جاوز بهم القتل حتى قتلوا الذرية . ألا لا تقتلوا الذرية ألا لا تقتلو الذرية» ، فأين هذا مما فعلته الصهاينة من سحق تلاميذ مدرسة بحر البقر بالشرقية بقنابل طائراتهم .

ان الحق مع الإسلام الذى يحرم رسوله العدوان على المؤسسات و الازراق والمسالمين الآمنين ، فقد قال لأصحابه عندما أرسلهم فى سرية مؤته الا تغدروا ولا تغلوا (تخونوا فى المغانم) ولا تقتلوا وليداً ، ولا تقربوا نخلاً ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناء(١) .

فأين هذا مما فعله الصهاينه بمصنع أبى زعبل ومدن القنال أو مما فعله الألمان النازيون بالإسكندرية أو الأمريكان بهروشيما ونجازاكى فى اليابان أبان الحرب العالمية الثانية ؟ ...]

[١ - فى قرن واحد بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم كانت الفتوح الإسلامية قد بلغت مالم تبلغه فتوح الأمبراطورية الرومانية فى سبعة قرون ، وحين عادت جيوش الإسلام من فرنسا لم تعد إلا لتستقر فى أسبانيا ثمانية قرون . ولم تنحسر الفتوح عن الجانب الغربى إلالتمتد فى الشرق حيث فتحت «تلوخستان و الهند و الصين ، بل والجزر الأندونيسية ، كما أن الاسلام قد أمتدت فتوحه غرباً . فدخل أوروبا من جنوبها الشرقى متجهاً نحو الغرب و الشمال الغربى إلى النمسا وإلى غرب بحر البلطيق ، ولم يكن السيف ليسل فى كل مكان إلا نادراً .]

[ولو كان دخول هذه الأمم فى الإسلام تحت سلطان السيف لخرجوا منه منذ دخلت السيوف فى أغمادها ، ومنذ غفل المسلمون عن أسلحتهم وأمتعتهم فانعكست آية القوه المادية وأصبحت فى يد غيرهم . ولكن كما قال المستشرق بورت «إنه لا تعرف حادثة واحدة أرتد فيها مسلم عن دينه ردة حقيقية بعد أن دخل فى الإسلام دخولا حقيقياً ، بينما حوادث الخروج من الأديان الأخرى إلى الإسلام أكثر من أن تحصى ، وهكذا الدين الحق لا يرتد عنه أحد سخطة متى خالطت بشاشته القلوب» .]

[٢ ـ وقد دخل فى الإسلام كثيرون دون حرب ، وإنما بالاقتناع واستجابة لدعاة الإسلام :]

[أ ـ ففى داغستان وأبونجستان : دعا درويش منصور كل الامراء للاسلام فأسلموا وتبعتهم الأمة .]

[ب ـ كما دخل الإسلام على يده كثير من الجراكسة ، فضلوا أن ينفوا عن البلاد على أن يخضعو للحكم الروسى ، وكان لمصاهرة الضابط التركى « فرج على » للجراكسة أثره فى دعم الدعوة الإسلامية بينهم ، بل وحبهم له حتى جعلوا قبره مزاراً بعد وفاته سنة ٧٨٥م .]

[جـ ـ وحين أصدرت روسيا سنة ١٩٠٥ م قانون التسامح الدينى دخل القوقازيون فى دين الله أفواجا (١)]

[د ـ وفى الحبشة سنة ١٨٧٨ م عقد الملك « جون » مجمعاً قررفيه أن المسيحيه على المذهب اليعقوبى هى دين الجميع ، ونال المسلمون منه اضطهادا كبيراً . ومع هذا فقد أسلمت قبائل نصرانية بأكملها فى القرن التاسع عشر ولا تزال تحمل أسماء مسيحية مثل قبائل تاكليه أى بنات يسوع . و « هيبتيه » أى عطية يسوع ، و «تيماريم » أى عطية مريم . كما أسلمت قبيلة « منسا » فى منتصف القرن التاسع عشر .]

[هـ ـ وفى نياسلانده (مالاوى) : اعتنق عدد كبير من قبائل «الباو» دين الإسلام ونشروه فى ديارهم ـ دون حرب ـ خلال هذا القرن (العشرين) حتى أن أراضيهم التى تمتد من بحيرة « بناسا » إلى الساحل الإفريقى الشرقى لا تكاد تخلو قرية فيها من مسجد وتاجر مسلم (٢) .كما اسلمت قبائل « أشبو» و بعض قبائل موزمبيق دون حرب]

[و ـ ودخل الإسلام جمهورية « ما لاجاش » « مدغشقر» وكل جزر الهند الشرقية دون رمية سهم أو ضربة سيف . وهكذا يزحف الإسلام فى كل القارات بقوته الذاتية ، دون قذيفة مدفع بل ولا مجرد تنظيم للدعوة ، أو حماسة وعون للداعى .]

[٣ ـ بل إن أشد المحاربين للإسلام كانوا لا يلبثون أن يعتنقوه بعد اطلاعهم

---

(١) [انتشار الاسلام بالطريق السلمي لمحمد فادي عسر ص ٣٧ : ٣٨ . سلسلة دراسات اسلامية .]

(٢) [المرجع السابق ص ٧٦ : ٧٧ .]

على حقيقته ، وبعد اتاحة الفرصه للحوار بينهم وبين المسلمين ، وليس أدل على هذا من أن المغول أنفسهم انقلبوا إلى دعاة للإسلام وكونوا له أمبراطورية فى الهند وشمال آسيا .]

[وفى الحملات الصليبية روى المؤرخون أن طائفة رئيسية من الألمان واللومبارديين بزعامة فارس مشهور يدعى رينو (Rainaud) حين حاصرهم أرسلان السلجوقى فى احدى القلاع تظاهروا بالقيام بهجوم على محاصريهم فى الخارج ، ثم لما خرجوا أعلنوا للأتراك أنهم جاءوا مسلمين .]

[وقد ذكر « سيرت » و« أرنولد » أن حملة لويس السابع سنة ١١٤٨ م دخل منها فى الإسلام قرابة ثلاثة آلاف شخص نتيجة للمعاملة الطيبة التى وجدها مرضاهم وجائعوهم من المسلمين ، بينما ذاقوا آلام الضياع من حلفائهم الاغريق المسيحيين الذين أخذوا من لويس خمسمائة مارك لحراستهم حتى يحجوا ، و للعناية بالمرضى ، فأكلوا الاموال ولم يفعلوا شيئاً (١) .]

[وكذلك اعتنق الإسلام بعض الشخصيات الهامة على يد صلاح الدين الأيوبى ، وخرج من النصرانية « روبرت أوف سانت اليانسى » أحد فرسان المعبد وأعتنق الإسلام وتزوج إحدى حفيدات صلاح الدين .]

[وفى سنة ١١٨٧ م انتصر المسلمون فى حطين . ووقع « جوب » ملك بيت المقدس أسيراً وفى مساء يوم المعركة ، ترك الملك ستة من فرسانه ، ففروا إلى معسكرصلاح الدين وأعلنوا الإسلام بمحض إرادتهم .]

[وفى الحرب الصليبية الثالثة ، وفى أثناء حصار عكا سنة ١١٨٩م ،ـ سنة ١١٩١م فر كثير من النصارى المحاربين إلى صفوف المسلمين فأسلموا ، وكانت صيغة القسم التى أمليت على الملك لويس ليقسم به على تنفيذ المعاهدة من وضع هؤلاء الذين كانوا فى جيشه ثم أسلموا .]

[وعند فتح بيت المقدس عام ١٢٤٤ م ـ دخل كثير من النصارى هناك الإسلام من أثر السماحة التى عرفت عن المسلمين طوال الحروب الصليبية (٢) .]

---

(١) [عبقرية خالد عباس العقاد ص ٧٤ ط ١٩٧٠]

(٢) [انتشار الاسلام بالطريق السلمي ص ٣٣ ـ ٣٦ .]

[٤ ـ ودعوى أن انتشار الإسلام كان بالسيف ينقضها المعروف من سيرة خلفاء المسلمين وسلوكهم فى معاملة البلاد المفتوحة . وعهد عمر بن الخطاب لأهل أيليا وثيقة خالدة ترد على « سفارى » وأمثاله (١) وقد ترك الفاتحون المسلمون الشعوب التى فتحوها إلى معتقداتها واكتفوا بالجزية ممن لم يسلم ، ولذا فإنه حين أخرج المسلمون بقيت الديانات التى كانت عند الفتح كما هى ، بخلاف ما نجده فى الفتوح الاروبية والأمريكية، فإنه لا يحتل الأمريكان أو الاروبيون بلداً إلا أخرجوا أهله من دينهم إلى المسيحية ، أو على الاقل قللوا فيه عدد معتنقى دينه القومى وجعلوه صورة جوفاء واسما لامسمى ، وما هذه إلا لأن الفاتح المسلم لم يفكر فى استعمال قوته لإبادة الأديان المناهضة .]

[بل إن المدينة التى حملت لواء الإسلام لم تدخله إلا مختارة . ومثلها كثير من القبائل العربية مثل قبيلة سعد بن بكر، إذ أرسلت ضمام بن ثعلبة إلى النبى ليناقشه، فلما اقتنع بالإسلام آب إلى قومه يدعوهم إلى ما آمن به فأسلموا جميعاً . وهكذا كان إسلام بنى جهينة الذين كانوا يقيمون بين المدينة والبحر الأحمر . ناقش عمرو بن مرة وهو سادن صنمهم ـ رسول الله فاقتنع بالإسلام ودعا قومه إلى ما آمن به فدخلوا فى دين الله جميعاً ما عدا واحد منهم . وهكذا أسلمت « دوس » بدعوة من طفيل بن عمرو، الذى أسلم مختارا فتبعوه كذلك مختارين . ثم إن الرعيل الأول من أهل مكة أسلموا وليس فى يد النبى أية شارة للقوة ، ثم إن أهل مكة الذين أسلموا بعد صلح الحديبية وهاجروا ـ وقد كانوا بين ذويهم آمنين ـ ما دفعهم إلى الإسلام إلا الاقتناع الحر ورجاء الدار الآخرة . ورجل كالوليد ابن المغيرة ، أسلم بعد أسره فى بدر ولكنه لم يشأ ان يعلن إسلامه إلا بعد أن فك أساره وذهب الى أهله آمنا . وبينهم أعلن إسلامه ، وهم أشد الناس حقداً على الإسلام ، وناله من أذا هم مانالـه . ورجل كأنالة الحنفى أسلم بعد فكاك أساره كذلك حتى لا يقال : أنه أسلم مكرهاً . بل إن الذين أسلموا بعد فتح مكة من أهلها إنما كان إسلامهم بعد أن اطمأنوا إلى عفو النبى

---

(١) [تاريخ الطبري ٤/١٥٩ .]

الشامل عنهم . فلم يكن تحت رهبة السيف بأى حال . وهكذا دانت جزيرة العرب كلها تقريبا بالإسلام قبل وفاته ﷺ مختارة . فإنها لم تدن يوماً لقوة جبار أو مستعمر وما استجابتها لمحمد ﷺ إلا عن رضا بما جاء به وعن اختيار. ولقد ظل المسيحيون واليهود مخالطين للمجتمع الإسلامى منذ الفتوح الإسلامية الأولى إلى عصرنا هذا ، وهم يعيشون أحرارا ، فما شكوا من معاملة المسلمين ولا رفع أحد منهم صوتاً بأن المسلمين يكرهونه على دخول الإسلام . بل إنهم كثيراً ما كانوا - مع المسلمين - حرباً على الدخيل ولوكان من بنى ملتهم . وفى عهد عمر بن الخطاب انضم نصارى تغلب وبنى نمر إلى جيوش الفتح ليقاتلوا مع المسلمين « فارس » . وطلبوا إلى عمر أن يدفعوا زكاة الماشية والزرع كما يفعل المسلمون على أن يعفيهم من الجزية . ويروى أرنولد وسيرت أن عمر قبل ذلك منهم (١) . (ولكن فى دعوى قبول عمر ذلك منهم نظر) . بل إن البلاد التى يتكاثر فيها المسلمون الآن هى التى لم تقع فيها حروب كاندونسيا وباكستان وأفغانستان .] .

٥ - ولقد نفى حكماء الغرب المهتمون بدراسة الإسلام والسيرة ما قاله سفارى وأمثاله . فقد قال توماس كارليل فى كتابه (الأبطال وعبادة البطولة) : « ليس مما يجوز فى الفهم أن يشهر رجل فرد - كمحمد - سيفه ليقتل به الناس ، أو يستجيبوا لدعوته . فإذا آمن به من يقدرون على حرب خصومهم ، فقد آمنوا به طائعين مصدقين . وتعرضوا للحرب من قبل أن يقدروا عليها»(١) ، وقال بودلى : « إن القرشيين هم الذين دفعوا محمدا إلى استعمال القوة بإغارتهم على ضواحى المدينة ، ولددهم فى الخصومة .] .

[ولقد كانت شريعة الرومان فى الحرب هى : « من جاورك فهو دعوك تخضعه أو يخضعك ... وتبدأ بالحرب متى استطعت أو يبدؤك هو بالحرب متى استطاع . وكانت هذه الشريعة على اشدها فى معاملتهم لجيرانهم من البلدان

(١) [عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ٢١١ ط ٢] .

الإسلامية لأنهم أفردوها بعداء فوق كل عداء .]

[وفى دراسة علمية للمستشرق الانجليزى ستيفن رانسيمان قال ، نحن لا ندرى كيف بث النبى الحماسة المتدفقة فى نفوس أتباعه الذين أصبحوا نماذج لتعاليمه ، وكيف صنع هذه المواهب النادرة التى تجلت فى زعماء كعمرو بن العاص وخالد وعمر بن الخطاب . إن دخول نصف العالم المتمدين الإسلام فى نصف قرن لا يمكن أن يكون قد تم بحرب ، وما كان ليقع لو لم يكن العالم مستعدا لقبول هذا الدين ، ولو لم تكن تعاليمه تحمل فى جوهرها زادا طيبا صالحا من الحق والخير ، .] .

[وما قاله توماس وستيفن يشهد به الواقع . فإن أهل يثرب مثلا كانت حاجتهم ماسة إلى تعاليم جديدة جادة فى إصلاح شأنهم. فكان الإسلام هو الدين الذى يعنى بحاجاتهم فاعتنقوه . وهكذا فى كل الشعوب التى دخلت تحت لواء التوحيد ممن ذكرناهم .]

[٦ – وطبيعة الإسلام تتنافى مع ما يتهمه به المستشرقون :-] .

[أ – لأنه دين يكره العدوان ﴿ولا تعتدوا ... إن الله لا يحب المعتدين﴾ ويدعو إلى التراحم . وفى الحديث الشريف «الراحمون يرحمهم الرحمن ، بل إن النبى يدعو إلى أن تكون الرحمة طبعا للمسلم حتى تمتد إلى كل شىء. وفى الحديث ، فى كل ذات كبد رطبة أجر ، . ودين هذا شأنه لايوصم بأنه يكره أحدا على اعتناقه. وإذا وقع من أحد المنتمين إليه سلوك على غير هذه القاعدة، فهو سلوك منحرف عن الإسلام . وكما قال عباس العقاد ، إن شعائر الإسلام كالجماعة والسلام وصلة الأرحام تتجه إلى تكوين وشيجة ورابطة بين الناس .] والحرب ضد الاتجاه الإسلامى إلى الترابط الإنسانى فهى إذن ضرورة المضطر فى نظر الإسلام[1]] .

---

(١) [حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ٢١١ وما بعدها]

[ب - وإن ما عرف عن النبى من العفو والصفح والبر والتسامح ليمنع النبى من أن يكون سفاحا (١) . ولقد كان الرسول واسع الصدر مع المشركين والكتابيين حين يجادلونه . بل لقد بلغ مجادلوه حد الحماقة فاحتمل منهم ذلك ولو كان رجل دماء أو كان دينه يقبل إرغام الناس على الدخول فيه لأسقطت رؤوسهم تحت أقدامهم .] .

[ج - والإسلام حريص منذ نشأته على الإفادة من الأسلوب الدبلوماسى بديلا للحرب، أو عاملاً مساعداً فى تنفيذ الدولة الخارجية ولم يمانع من تعايش الأديان جنباً إلى جنب ، ومكاتبات النبى ﷺ للملوك فى العام السادس من الهجرة ٦٨٨ م ذات دلالة على خطة النبى فى الدعوة إلى الإسلام .. وهى خطة سلام لا حرب . وقد جعل الإسلام معاهدات السلام مع العدو واجبة الوفاء وليست خدعة مؤقتة . ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا﴾(٢) . ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء . إن الله لا يحب الخائنين ﴾ «الانفال الآية ٥٨» .] .

[د - والقرآن يدعو الى حسن معاملة الكفار ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله، ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون ﴾ « الجاثية : ١٣» ويدعو إلى الترفق فى جدل النصارى واليهود ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم . وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون ﴾ « العنكبوت : ٤٦ » ويضمن الإسلام للكافر السلام - من أجل التعرف على طبيعة الدعوة الإسلامية ونصوصها : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴾ « التوبة : ٦ » هذا بينما

---

(١) [راجع البطولة والأبطال للدكتور أحمد الحوفى] .

(٢) [النحل : ٩١ وانظر الآيات « ٩٢ : ٩٥ » فى توكيد الوفاء] .

قانون مثل قانون روسيا كان يحرم اعتناق أى دين مخالف لدين الأمة حتى عام ١٩٠٥ ، بل إن القرآن لينص على أن سبيله فى الدعوة هو البلاغ السلمى ويجعل ذلك هو إطار الرسالة النبوية ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ﴾ ، آل عمران : ٢٠ ، ويوصى بالأسير. وفى الحديث (استوصوا بالأسارى خيراً) وفى القرآن ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾. أفبعد هذا يقال إن الإسلام سبيله إلى الناس سيوف أتباعه. وهذه نصوص قانونية تلجمهم عن الحرب وتجعلها خطيئة ممنوعة إلا عندما تكون بمثابة مبضع الجراح الذكى ؟].

[هـ - من أبرز خصائص الإسلام أن أحكامه تتفق مع الفطرة السليمة والعقل الحكيم، وبمقتضى الاستقرار العلمى لمسائله - ولهذا لم يكن هناك مبرر لسلوك طريق أخرى فى الدعوة إلى الإسلام غير أسلوب البيان والحوار المفتوح] .

[ز - والإسلام لا يقبل العقيدة المزيفة ، ولهذا فإن إرغام أحد على الإسلام لا يأتى بالنتيجة المطلوبة وهى الإيمان بالاسلام كله : قرآناً وسنة ، ولذا كان منطقياً من القرآن نفس قوله ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ ﴿ فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر ﴾ ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾ ﴿ نحن أعلم بما يقولون، وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن ﴾ أى لا بالسيف ﴿ من يخاف وعيد﴾. وكما قال بشرى زخارى ميخائيل : الإيمان مصدره فى الإسلام الاقتناع[1] العقلى والإطمئنان القلبى فلا يصح أن يكون عن طريق التسلط والجبر والإرهاب] .

[٧ - ويرينا تاريخ الإسلام أن المسلمين كانوا - دائماً - فى موقف المعتدىء عليه إما عدوانا فعلياً أو تآمراً وإعداداً ، ففى فجر الدعوة كانت الهجرات إلى الحبشة والمدينة ، وكان الحصار للمسلمين فى شعب أبى طالب آية الصبر البالغ من

---

(١) [محمد رسول الله ﷺ هكذا بشرت الأناجيل ص ٢٥] .

المسلمين على عدوان المشتركين ، والحبشة لم يحاربها المسلمون لأنها سالمتهم ، أما الفرس والروم فقد حرضوا القبائل الموالية لها على حرب المسلمين، فخفوا لحربهم ، كما أعلنت قريش وحلفاؤها - صراحة - أنهم فى حالة حرب مستمرة مع محمد ﷺ وأتباع دينه حتى يقضى عليهم وعلى الإسلام . لذا كان جهاد المسلمين لهم واجباً وحقاً تفرضه الطبيعة ويمليه حق الحياة ، فضلاً عن أن القوة لا تدفع بالحجة بل إن صد الباطل وردع المبطلين رحمة بالبشرية .]

[والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا : فالحرب أجدى على الدنيا من السّلم]

[وقد اتفق جمهور من الفقهاء على أن الباعث على القتال هو رد الاعتداء ، أو فتح الطريق الذى يوصده المشركون فى وجه الدعوة وحرية انطلاق الفكر الإسلامى والرسالة الإسلامية. فلا يقتل شخص لمخالفة الإسلام ولا يضيق عليه ، فقد طلب رجل من النبى أن يأذن له فى إكراه ابنه على الإسلام فأبى الرسول ﷺ ونزلت الآية : ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ ، وسعت عجوز إلى عمر فى حاجة لها وكانت كافرة فدعاها إلى الإسلام فأبت ، ولم يكرهها الخليفة على ذلك، بل وكان يستغفر الله، ويقول : اللهم أرشدت ولم أكره (١) بل إن النبى ﷺ ليوصى جنوده فيقول « تألفوا الناس وتأنوا بهم ، ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم ، فما على الأرض من أهل مدر ووبر إلا أن تأتونى بهم مسلمين، أحب لى من أن تأتونى بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم » وفى وصية أخرى له ﷺ « انطلقوا باسم الله وبالله ، وعلى بركة رسول الله ، ولا تقتلوا شيخا فانياً ولا طفلاً ولا صغيرا ولا امرأة وتغلوا ، وضعوا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا، إن الله يحب المحسنين » وفى وصية أخرى له ﷺ « سيروا باسم الله، فى سبيل الله، وقاتلوا أعداء الله، ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تنفروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً » ، ويقول لخالد بن الوليد «لا تقتل ذرية ولا عسيفاً » هذه هى حروب الإسلام لا تقع إلا لضرورة . وإن وقعت ففى سياج من الرحمة وأقل الأضرار .]

[فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً : فليقس أحياناً على من يرحم]

---

(١) [نظرية الحرب فى الإسلام لمحمد أبو زهرة (ص ١٧ ع ٥) دراسات فى الإسلام .]

[يوم الغميصاء :]

[سرية خالد إلى بنى جذيمة من كنانة فى شوال سنة ٨ هـ :]

وكان خالد أحد مبشريه المسلحين ـ قد خرج يدعو (١)جذيمة إلى الإسلام ، وكانوا فيما مضى قد قتلوا وسلبوا عمه عوفاً وهو عائد من اليمن محملاً بالخيرات . وظلت هذه الذكرى منقوشة فى قلبه . وأصبحت الرغبة فى الانتقام أقوى عنده من العاطفة الدينية . فعسكر بالقرب من آبارهم . وكان أهل جذيمة قد تجمعوا هناك يحملون السلاح . فعرض عليهم الدخول فى الإسلام فلما رفضوا اشتبك معهم وهزمهم . وبقيت منهم جماعة فى ساحة القتال . وأما الباقون فقد أسروا واقتيدوا إلى الرق (٢) . فربط خالد أيديهم خلف ظهورهم . وقتل عددا منهم فداء لروح عمه . وأمر أصحابه بقتل الباقين . فعارضه سالم [هو مولي أبي حذيفة] الذى كان يقود فرقة من الجيش ـ ولم ينفذ هذا الأمر الوحشى . فترتب على إصراره إنقاذ حياة الأسرى . ولقد لام محمد قائده على هذا التصرف لوماً شديداً ، ورفع يديه إلى السماء وقال : « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » وبعث علياً من فوره ومعه مال كثير ليدفع الدية عن دماء أهل جذيمة . وبعد أن أتم المبعوث ما يقتضيه القانون ، سأل أقارب الذين قتلوا دون وجه حق ، عما إذا كانوا راضين فقالوا : إنهم راضون ، فوزع عليهم ما بقى معه من مال . واثنى الرسول على كرم على ابن أبى طالب .

[تفنيد تهمة خالد]

[روى ابن سعد فى الطبقات ٢ / ١٠٦ و١٠٧ هذا الخبر . دون أن يذكر ثأراً قديما لخالد عند بنى جذيمة . وذكر أنهم خرجوا للقائه فى سلاحهم . وانما فعلوا هذا حين رأوا خالداً ومعه بنى سليم الذين لهم ثأر عندهم ، فلما أقبل عليهم خالد سألهم . أمسلمون أنتم ؟ فقيل أن بعضهم أجابه بنعم . وبعضهم قال صبأنا . أى تركنا عبادة الأصنام . ثم سألهم فما بال السلاح عليكم ؟ قالوا إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوا هم . فناداهم : دعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا . فصاح بهم رجل

---

(١) [كانوا بأسفل مكة على ليلة . ناحية يلملم والغميصاء : ماء لبنى جذيمة قرب مكة] .

(٢) أبو الفدا ص ١١١ [١ / ١٥٣ والأنوار المحمدية ١٢٦ والطبرى ٣ /د ٦٦ هـ ٦٩]

منهم يقال له جحدم : ويلكم يا بنى جذيمة . إنه خالد وما بعد السلاح إلا الامسار ثم ضرب الاعناق ، فما زالوا به حتى اقنعوه بترك السلاح . وأمر خالد بأسرهم وقتلهم . فاستجاب له بنو سليم ، وأنكر عليه « عبد الله بن عمر » و « سالم » مولى أبى حذيفة .]

[فاتهام خالد بأنه فعل ما فعل كى ينتقم لثأر جاهلى لا دليل عليه ، بدليل ما رواه صاحب الطبقات فى نفس الوقت عن أبى حديد أحد الجنود ، أنهم لحقوا رجالاً ثلاثة مع كل واحد جمع من النسوة يقاتل عنهن حتى يصعدن الجبل وصعدن . فقال خالد لا تتبعوهم . تنفيذاً لعموم الحديث الشريف (لا تتبعوا فاراً) . فهل يتصور ممن هذا عمله وخلقه ، ممن هدم العزى قبل ذلك بأيام . أن يهدم معبوداً ليقيم فى نفسه معبود المزاج الدموى ؟ إلا أنه سيف من سيوف الله ، يريد الكفار أن يجعلوا فيه ثلمة ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ ومن هنا كان نسج هذه القصة المهلهلة ونسج أمثالها كقصة قتله مالك بن نويرة فى حروب الردة ، تلك التى عرضها العقاد وفندها فى «عبقرية خالد» قائلاً « إنه يغفر لخالد ما له فى ميزان العظمة والعبقرية والحسنات ما يجعل كفته راجحة فى الدوام » [1] وذكر العقاد خبر خالد مع جذيمة فقال : « ندرت حرب لا تحصى عليها فلتة» ولا يبعد أن يكون خالد قد ورث من عمومته جفوة لبنى جذيمة ، فجنح بها شعوره إلى سوء الظن بهم وقلة الطمأنينة إليهم من حيث لا يقصد الترّة ولا يتعمد الانتقام .. !» فكل هذا أقرب إلى تعليل بطشته بالقوم من اتهامه بحمل أمانة النبى على دخل وسوء نية . وهو الرجل الذى حارب اصدقائه وأقرب الناس إليه على أبواب مكة ، وله ندحة عن حربهم لو تعمد اجتنابها ، أو كان قصاراه أن يتعلل باللسان ولا يرجع إلى صدق النية فى إطاعة النبى ﷺ . وإن يكن اخطأ خالد فى تقديره الموقف فإن الصواب أن تتاح له ولأمثاله الفرصة لتصحيح موقفه . ولهذا اختاره النبى ﷺ فى ركب أرسله . إلى بنى المصطلق - وهم من بنى جذيمة - ليستخبر له الحقيقة فى بلاغ الوليد بن عتبة للنبى ﷺ عن

---

(١) [عبقرية خالد ص ١٣٨ ط ٧ .]

ردتهم . فانطلق إليهم وبث بينهم عيونه ليلاً فعرف إسلامهم . فلما أصبحوا أتاهم خالد فرأى ما يعجبه فرجع إلى النبى ﷺ فأخبره (1) . ولو أن أحقاده على جذيمة هى التى حركته أولاً لما عصمته من خطأ ولو من نوع آخر من بنى المصطلق وهم من بنى جذيمة أيضاً .]

[ولو أن النبى ﷺ وذكاؤه وقربه من خالد ومن الحادث معروف ، أحس بأن فعل خالد تشوبه الخيانة لما ولاه بعد أيام قيادة الفرسان وعلى الطليعة يوم هوازن . ولما عول عليه بعد الهزيمة فى عمليته المضادة التى كسبت النصر للمسلمين .]

[وإنما استند خالد فى أمره بقتالهم إلى أمور :]

[أولاً : سأل عبد الله بن حذافة عما يفعله فقال له : « إن رسول الله قد أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم عن الإسلام » الطبرى ٣ / ٦٨)]

[ثانياً : كانت كل المنطقة سواء فى البادية أو فى مكة مشتعلة بأوار الحرب والريبة، وتتحفز للوقيعة بالمسلمين بعد تسليم مكة . فلم تمض أيام على سرية خالد حتى كانت بطون هوازن وثقيف وجشم وغيرها متجمعة بأسلحتها لمباغتة النبى ﷺ، ولهذا ارتاب خالد فى بنى جذيمة لحملهم السلاح .]

[ثالثاً : كانت جذيمة مشهورة بالشراسة والغدر ، ولهم مع القبائل تاريخ مأثور .]

[رابعا: لقد ترددوا فى إعلان إسلامهم والإفضاء بنياتهم .]

[خامساً : عندما نشب القتال همز خالد فتى فقال (لا إله) فلما تركه قال (إلا اللات)] .

[سادساً : كان فى طبع خالد أن يأخذ بالشدة من لم يستعلن بإسلامه ويقف موقفاً ايجابياً مع المسلمين فى حماية الإسلام أيام الفتن . لهذا كان ما كان من خالد .]

---

(1) [عبقرية خالد ص ٨٨ : ٨٩].

[يوم هوزان : (يوم حنين[1]) ١٠ شوال سنة ٨ هـ]

وأقبل المشركون أفواجا إلى مكة يقدمون ولاء الطاعة للمنتصر . أما هوازن بقيادة [مالك بن عوف النصرى - وكان فى الثالثين من عمره] وكذلك ثقيف، فقد قاوموا هذا الطوفان (٢) . ودعت هاتان القبيلتان الثائرتان حلفاءهما إلى حمل السلاح دفاعاً عن حريتهم وعن آلهتهم . واستجاب بنو سعد وجشم . وكان دريد - زعيم جشم - شيخاً يربو عمره على المائة . ولكنه كان يحمل فى هيكله العظمى المتهالك حيوية الروح وشجاعة المقاتل الشاب . ورغم أنه كان كفيفا فإنه حمل على محفة وتقدم صفوف جنوده يضئ شجاعتهم بتجربته وحنكته . وقال فى أمسية المعركة « اللهم اجعلنى آت مهمتى ثم يستريح بدنى فى ظل أحد القبور » .

وعلم محمد عن طريق عيونه عدد أعدائه وغرضهم . فخرج من مكة فى السادس من شهر شوال . وضم إلى العشرة الآلاف رجل - الذين زحف بهم من المدينة - ألفين من مكة . وكان هذا الجيش أكبر الجيوش التى قادها محمد عددا . حتى إن أحد الزعماء قال : «لن نغلب اليوم من قلة» . ولكن هذه الكلمات لم ترق لمحمد لأنها توحى إلى جنوده بالغرور ، وقد تجعلهم يهملون أسباب النصر . وهو يشكو [؟!] من ذلك فى القرآن بهذه الكلمات ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾ « سورة التوبة » . وذهب قائد المؤمنين وعسكر بحنين . وهوواد يقع على بعد ثلاثة فراسخ من مكة . وتقدم فى الشعب حتى يفاجئ عدوه فى مطلع النهار حيث يعسكر فى أوطاس (٣) . فأدار عدوه خديعته ضده (٤). إذ استفاد مالك [بن عوف النصرى] من ظلمات الليل وحاصر الوادى الذى عسكر فيه المسلمون وبوأ قوة من جيشه المدخل . وأمرهم أن يثبتوا فى مراكزهم . ووزع باقى قواته على التلال

(١) [حنين : واد متسع كثير الحدود والشعاب يقع الى جانب ذى المجاز] .

(٢) أبو الفدا ص ١١٢ [٣٥٣ والانوار ص ١١٦ ، والطبرى ٣/٧٠] .

(٣) أوطاس : اسم وادى يقع بين حنين والطائف .

(٤) أبو الفدا ص ١١٤ [١٥٣ - ١٥٤ وليس فى أبى الفدا وصف لتوزيع قوى هوازن ولكن ذكر الطبرى بعد فى جـ ٣ ص ٧٤].

وفي ثغرات الصخور . وعند شروق الشمس نشر المسلمون راياتهم وتحركوا . فاعطى مالك الإشارة فأمطروا المسلمين بوابل من السهام والنبال . فاضطرب المسلمون من هذا الهجوم المفاجئ . ولما وجدوا أنهم محاطون من كل مكان . خارت شجاعتهم وولوا الأدبار باندفاع جارف بحيث لم يبق منهم اثنان معا . وتعرض محمد لأكبر خطر واجهه في حياته . ورأى أنه على وشك أن يفقد في لحظة ثمرة عشرين عاماً من الكفاح ، وثماني سنوات من الانتصارات . وأحاط به الأعداء . وكاد أن يكون وحده بين كتائبهم. ولكنه احتفظ بثباته ورباطة جأشه . وانحاز بسرعة نحو يمين الجيش ، ووقف في مركز ممتاز . واجتمع حوله عدد صغير من الأنصار والمهاجرين . وصمم أبو بكر وعمر والعباس وعلي - الذى لا يقهر - على افتدائه بدمائهم دفاعا عنه . وفي وسط الفوضى العامة كان ينادى « أنا محمد أنا النبي - أيها الرفاق [؟] إلى أين تفرون ؟ عودوا إلى ألويتكم » سمع الأعداء صوته وأخذوا يوجهون ضرباتهم في اتجاهه . وشنوا هجوما شديداً على الفرقة الصغيرة التي كانت تقوم بأعمال بطولية . وسقط أيمن (١) وعبد الله بن الزبير وعقيل أخو علي . وكان محمد قد يأس من الصمود طويلاً أمام هجمات جيش منتصر ، فأراد أن يندفع بين الأعداء ويموت ميتة الأبطال . ولما رأى العباس ذلك منه ألقى بنفسه على خطام دابته ، وأوقفها . فقال له محمد: [ناد: يا معشر الأنصار! ياأصحاب شجرة العسرة! يا أصحاب سورة البقرة!] (٢) عندئذ صاح العباس بصوته القوى : « أيها المسلمون عودوا إلى نبيكم ! عودوا إلى ألويتكم » وردد الوادى هذا النداء حتى سمعه الفرار فتوقفوا . وخبت صدمة الرعب الأولى . وخجلوا من جبنهم . وعادوا أفواجاً يتسابقون للدفاع عن نبيهم . وأستئنف القتال وحمى الوطيس . وحرصت هوازن على أن تحافظ على تفوقها . وأراد المسلمون أن يمحوا عارهم . وأخذ محمد يشجع جنوده. ولما عنف صدام الجيشين ،قال :« الآن حمى الوطيس » . ثم لاحظ أن النصر يميل إلى جانبه فاستخدم نفس الحيلة التي استخدمها يوم بدر لكي يتحقق لصالحه . فأخذ حفنة من التراب وألقى بها في وجوه المشركين وقال : «شاهت الوجوه ! تشجعوا أيها الأصحاب ! النصر لنا ! »

---

(١) [هو ابن عبيد بن زيد الخزرجي وهو ابن أم أيمن أخو أسامة بن زيد لأمه .]

(٢)[الطبقات ٢ / ١٠٩ والطبرى ٣ / ٧٥ والأنوار المحمدية ص ١١٧ .]

[تفنيد اتهام النبى ﷺ بالخداع لأصحابه]

[ولا أدرى هل الكاتب غبى غافل عن عادات الشعوب التى يكتب عنها أو يتغابى ؟!! إننا نحن العرب فى عاداتنا عندما نريد تحصين عزيز علينا من عيون الحاسدين نقبض حفنة من تراب أو ملح أو سكر فنقذف به ونقول فى مصر (ملح فى عين العدو) عندما نزف عروساً إلى عروسه نفعل هذا لنثير موجة الفرح والرجاء والتسامى بالنفس مهما كان اعتقادنا فى الحسد . فالأمر عادة شعبية وتعبير بالحركة عن الارتباط العاطفى بين من يفعله والمفعول من أجله . ولهذا إيحاء نفسى لا ينكره إلا جهول] .

وفى نفس اللحظة دفع المسلمون اعدائهم بقوة شديدة حتى أجبروهم على الفرار(١).

[غزوة أوطاس]

[عز على بعض الأعداء أن يفرّوامنهزمين] فثبتت ثقيف تحت راياتها وفضلوا الموت على أن يتركوها . وانسحب مالك قائد هوازن مع فلول جيشه إلى حصن الطائف . وتوقف دريد قائد جشم فى قلب وادى أوطاس . فانطلق أبو عامر (٢) فى إثر الفرار وأدرك دريدا ونائلة .

فتشجع بنو جشم حين رأوا بينهم قائدهم الهرم ودافعوا عن أنفسهم ببسالة . وأخيراً بعد جهود مضنية تمكن المسلمون من التغلب عليهم ، ودفعوا حياة قائدهم ثمنا لذلك(٣) إذ أصابه سهم اخترق فخذه وانتقم له أبو موسى ابن أخيه فاندفع نحو الجندى الذى جرحه وصرعه فجعله تحت أقدامه . فخفف من ألم ابن عامر الذى طلب انتزاع السهم ولكنه مات أثناء هذه العملية . وقال لابن أخيه وهو يحتضر : «اقرئ رسول الله سلامى واسأله أن يستغفر لى ذنوبى». أما دريد المسكين فقد كانت نهايته مفجعة . إذ أنه بعد أن تفرق جنوده انطلق هارباً

(١) [نسب محمد شرف هذا النصر الى المدد الإلهى ﴿ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴾ « التوبة ».

(٢) [هو عم أبي موسى الأشعرى عقد له النبى لواء لمطاردة هوازن فقتل من أبطالهم تسعة مبارزة . وحين بارز العاشر كان قد ناله الاعياء فتمكن منه الخصم (الطبقات / ١٠٩)] .

(٣) جناب [والطبرى ٣ / ٧٩].

في شجار [مركبة تشبه الهودج إلا أنها مكشوفة لأعلى] فأدركه ربيعة الشاب المسلم الممتلئ حيوية وقوة وسحبه من مركبته وضربه بسيفه. ولكنه لم يتمكن من قتله (١) فقال له المحارب القديم « خذ سيفي المدلى من امتعتي » فتناول ربيعة سيف دريد الضخم وشق به رأسه.

[تعقيب]

[بالرجوع إلى أبي الفداء ص ١٥٣ - ١٥٤ وإلى البخارى وجدتهما لم يذكرا ذلك. ولكن المستشرقين يريدون تحقير شأن المجاهدين المسلمين بمثل هذه القصة . وقد ذكر الطبرى ٣ / ٧٩ أن دريداً قتله أبو عامر الأشعرى، واسمه عبيد بن سليم بن حضار، كما في إرشاد السارى لشرح البخارى للقسطلانى (٦ / ٤٠٧ باب غزوة أوطاس) وقد روى القسطلانى أن قائد المعركة هو أبو عامر، والذى قتل دريداً هو ربيعة بن رفيع بن وهبان بن ثعلبة السلمى فيما جزم به ابن اسحاق . أو هو الزبير بن العوام كما يشعر به حديث عند البزاز عن أنس بإسناد حسن . وهذه صورة تكشف لك كيف يصنع المستشرقون لمفترياتهم مراجع يوهمونك أنهم محققون . ولكنهم يفترون على الحقيقة الكذب].

ولم يعد أمام أبي موسى أحد من الأعداء يحاربه فعاد بفرقته إلى مركز القيادة. ومثل أمام محمد وهو جالس على عرش مزين بالذهب والأحجار الكريمة [؟!] وأبلغه نتائج حملته ، ونقل اليه كلمات أبي عامر . فنزل النبى من فوق عرشه وتوضأ ورفع يديه إلى السماء ، وأخذ يدعو: « اللهم اغفر لأبي عامر واجعله من أعلى أمتى في الجنة » (٢)

[أكان للنبى عرش مذهب مزين بالأحجار الكريمة ؟]

[ما أكذب سفارى !! فالدنيا تعلم أنه ما كان للنبى عرش ذهبى . وأن تعاليم النبى تمنع مثول أحد أمام أحد بطريقة البروتوكلات السياسية التى يمتص منها سفارى خياله. فالحديث الشريف يقول بصراحة« من أحب أن يتمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من

(١) أبو الفداء، البخارى .

(٢) [الطبقات ص ٢ / ١٠٦].

النار، ومن المتفق عليه أن النبى ﷺ كان الصورة الصادقة لكل ما يقول .]

[غزوة الطائـــف]

[في ذي القعدة سنة ٨ هـ وفي الطبقات (٢ / ١١٤) أنها في شوال سنة ٨ هـ)]

وتابع محمد حملته وذهب إلى الطائف، وضرب الحصار حولها ، بعد أن احتمى بها مالك [بن عـوف النضـرى] مع هوازن، وكـان الحصن منيعاً. فاضطـروا الى تحطيمـه (١). وحفر خندق واقتربت المنجنيق والدبابات وقاذفات الحجارة . ودام هدم الاسوار عشرين يوما .

[تعقيب :]

[لم يذكر أحـد ذلك . ولا يتصـور العقل أن هذه الحصـون كـانت تتطلب ذلك الجهـد الطويل . وكل ما قاله المؤرخون الذين نقل عنهم أن الحصار استمر نيفا وعشرين يوما . وكان من أنواع العمل الحربى قتال بالمنجنيق لفتح ثغرات فى الحصن فقط ، ولم يذكر المؤرخـون أنه تم فتح ثغرات، من خلالها حدث اشتباك وصمود لثقيف أمـام المسلمين، ولكن قالوا : « قاتلتهم ثقيف وراء الحصن . لم يخرج اليه ﷺ فى ذلك أحد منهم » (٢)]

وبعد أن اتسعت الفـجوات [فى الأســوار] بدأ الهـجوم . وصـعد المسلمـون بإقدامـهم المعهود، وقاتلوا بشجاعة. ولكنهم وجدوا مقـاومة لا تقهر. فقد أجبرهم مالك – قائد هوازن – على الرجوع خاسرين فاغتاظ محمد من عدم فلاح قواته ، فنشر الدمار حول المدينة. فقطعت الكروم وأحرقت. ولكن هذه المشاهد لم تضعف من شجاعة ثقيف. فقد دفعهم حبهم للحرية الى أن يتحملوا كل شئ (٣) . ولما فشلت هذه الخطة. لجأ محمـد إلى حيلة أخرى أشد فتكا . فقـد أعلن حـول الأسوار أنه سـوف يمنح الحرية لكل الأسـرى الـذين يسلمـون أنفسـهم إلى معسكره. فقام المحاصرون بفرض حراسـة قوية حـتى أنه لم يهـرب من الحصن سـوى ثلاثة وعشرين فقط . فأطلق النبى سراحهم . ولما لم تجد الحيلة والقوة شيئاً أعلن عمر ـ بناء على أمر القائد – أن يجمع الناس متاعهم استعدادا للرحيل . فكثر الهمس وقال المسلمون : « أنرحل قبل

---

(١) أبو الفداء ص ١١٧ –[١٥٤]

(٢) [الطبرى ٣ / ٨٢ ط دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٢ ومثله فى الانوار المحمدية ١٢١ .]

(٣) جناب

أن تفتح لنا الطائف أبوابها ؟ » ولما شاهد محمد تذمر الجنود أعلن عن عزمه على الهجوم فى اليوم التالى . ففرح الجنود وانطلقوا بحماسة عظيمة، واقتحموا ثغرات الأسوار والسيوف فى أيديهم ، وقاتلوا باستماتة فوق الأنقاض . ولكن المحاصرين انسحبوا إلى مركز ممتاز ، وبنوا بأجسامهم جسراً منيعاً مرشقاً بالسيوف والرماح ، بينما أخذ حاملو الأقواس يمطرون المسلمين بوابل من السهام . وبعد أن بذل المسلمون جهوداً جبارة ، وقتل منهم عدد كبير، وجرح أغلب قوادهم ، اضطروا إلى الإنسحاب فأصدر محمد الأمر بالرحيل للمرة الثانية ولم يصدر أى همس من أحد (١).

[أسرى هوازن]

وتحرك الجيش وتوقف عند الجعرانة[٢] - وهى قرية تقع بين الطائف ومكة حيث ترك كل الغنائم والسبايا التى استولى عليها فى معركة حنين وأوطاس . وبلغ عددها ستة آلاف أسير بين رجل وامرأة وطفل ، وأربعة وعشرين ألف بعير، [وأكثر] من أربعين ألفا من الأغنام ، وأربعة آلاف[أوقية] من الفضة . وما لبثت هوازن أن أوفدت رسلاً لها إلى معسكر(الجعرانة) . فنهض محمد عند وصولهم واستقبلهم استقبالا كريماً . فدخلوا فى الإسلام وطلبوا منه أن يعيد اليهم أسراهم وأموالهم فقال لهم (٣) :« إن جنودى لن يوافقوا على أن يستجيبوا لطلبكم بأكمله . فاختاروا أحد الأمرين » فعادوا إلى قومهم ورجعوا بعد عشرة أيام يطلبون الأسرى دون الأموال . وقبل أن يسلم السبى إليهم ،جمع جنوده ووعظم بقوله : [« أما بعد فإن إخوانكم قد جاءونا تائبين ، وإنى قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم . فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل » ، فقال الناس قد طيبنا ذلك يا رسول الله (أى طابت نفوسنا بالتنازل عن نصيبنا فى الغنائم لهوازن)] فصاح جمهور الحاضرين بأنهم موافقون على

---

(١) أبو الفدا ص ١٢٠ [ص ١٥٤ والانوار المحمدية ص ١٢٠ - ١٢١-]

(٢) جناب ص ٢٣٨ [والطبقات ٢ / ١١٠ وأبو الفدا ، ١٥٤ والطبرى ٨٦/٣ وقد قال علماء العرب الجعرانة ماء بين مكة والطائف] .

(٣) [النص العربى : أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم [تهذيب ابن هشام ص ٤٢٣] وهو لا يحمل صورة المساومة وتحكم الجيش فى القائد تحكما يوحى بسيطرة المطامع المادية عليهم . تلك التى اختار سفارى عبارته هذه ليوحى بها .]

تصرفه . ولكن لما كانت الموافقة غير جماعية فقد أمر عرفاءه [1] بأن يجمعوا أصوات الجنود وأن يرفعوا إليه تقاريرهم . فأكدوا له أن جميع الجنود قد أيدوا كرمه . ولما تأكد له أن الموافقة إجماعية ، طلب عقد اجتماع جديد . ودخل الاجتماع وفد هوازن . فقال لهم : [« أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم »] فقال المهاجرون والأنصار« وما كان لنا فهو لرسول الله » وفي لحظة تسلم وفد هوازن أسراهم الستة آلاف . ولقد نسي المؤمنون قيمة التضحية التي بذلوها بسخاء وأريحية ، فتنازل لهم الرسول عن خمس الغنيمة الذي خوله له القانون . وقبل أن يودع الوفد، قال لهم [« أخبروا مالكا أنه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل] .[2] فما لبث مالك أن قدم إلى معسكر « الجعرانة» بعد أن أغراه هذا الوعد المعسول وأسلم . ولم يخيب محمد أمله إذ خدعه الاستقبال العظيم الذي أعده له وسره استرداده لأعز ما يحب في هذه الدنيا، وانقلب مدافعا عن مصالح هذا الفاتح الكريم، وأصبح ألدّ أعداء ثقيف. فكان جزاؤه عن همته هذه أن نصب قائداً لقومه .

[كيف تم توزيع الغنائم ؟]

وبعد أن انتهت هذه المفاوضات قسم محمد الغنيمة وكان كل همه أن يربط أشراف القبائل [3] الرئيسيين بشخصه . فخصص كل ما كان قد اكتسبه بقوة السلاح لكسب ودهم . فأجزل العطاء لأبي سفيان وابنيه يزيد ومعاوية[4] وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل والحارث [بن هشام أخي أبي جهل] وصفوان بن أمية . وهم أشراف قريش ورؤساء العشائر . ولقد نال أشراف القبائل الأخرى حظاً وفيراً من سخائه. فأحدهم ويدعى العباس بن مرداس [السلمي] لم يرض بالإبل التي أهديت إليه فجأر بالشكوى . فقال محمد : اذهبوا به فاقطعوا

---

(١) [العرفاء : لقباء القبائل والكتائب]   (٢) [تهذيب سيرة بن هشام ص ٤٢٤]

(٣) أبو الفدا ص ١١٨ [١٥٤-١٥٥ وانظر التهذيب ص ٤٢٦-٤٢٨ والدرر ٢٤٦-٢٤٧ والطبري ٣/ ٩٠، ٩٣، ٩٤ ويكذب سفاري على أبي الفداء حيث نسب إليه قوله «كان يهمه أن يربط أشراف القبائل بشخصه» وهو يعلم أن هؤلاء يسمون في التاريخ «المؤلفة قلوبهم » أي يراد استدراجهم الى الإسلام بهذا الاسلوب وقد روى ابن اسحاق أن قائلاً قال لرسول صلى الله عليه وسلم (اعطيت عيينة بن حصن والاقرع بن حابس مائة مائة وتركت جعيل بن سراقة الضمري) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (والذي نفسي بيده لجعيل بن سراقة خير من طلاع الارض (ما يملؤها حتى يطلع عنها أو يسيل) كلهم مثل عيينة بن حصن والاقرع بن حابس ولكني تألفتهما ليسلما . ووكلت جعيل بن سراقة الى اسلامه « الطبري ٣/ ٩١]

(٤) معاوية هو الخليفة السادس وهو فرع بني أمية (جده) ، الذين حكموا الدولة حتى العام الثاني والثلاثين بعد المائة وانتقل الحكم بعد ذلك الى العباسيين .

عنى لسانه فزادوه فى العطاء حتى أحرج ورضى وسكت. أما الأنصار فقد شهدوا هذا السخاء من غير أن يشتركوا فيه . فظنوا أن من حقهم أن ينقلوا إلى رسولهم شكواهم المتواضعة . فأعربوا عن تألمهم الوقور.[1] فقال لهم محمد [بعد أن حمد الله وأثنى عليه «يا معشر الأنصار ما قالة بلغتنى عنكم ؟. وجدة (موجدة وعتاب) وجدتموها فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟. قالوا بلى والله ورسوله أمنّ وأفضل ثم قال : ألا تجيبوننى يا معشر الأنصار !. أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدّقتم ، آتيناك مكذباً فصدقناك ومخذولاً فنصرناك ! وطريداً فآويناك وعائلاً فآسيناك ! أوجدتم يا معشر الانصار فى أنفسكم فى لعاعة (بقية يسيرة) من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم .. ألا ترضون معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاه والبعير وترجعوا أنتم برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت أمرأ من الأنصار ولو سلك الناس شعباً (طريقاً بين جبلين) وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .]

وبعد أن حظى الأنصار بشرف التكريم بهذه الثقة العظيمة، وبعد أن تأثرت قلوبهم بهذا العتاب الرقيق ، انصرفوا راضين. ولما انتهى كل شئ ، تجرأ مسلم لم يحفظ لنا التاريخ اسمه سوى ذو الخويصرة [أى صانع الافك] وصاح فى وجه قائده بأنه لم يراع العدل فى توزيعه الغنيمة . فقال له محمد « ويحك ! إن لم يكن العدل عندى فعند من يكون ؟» (٢) وأراد عمر أن يضرب عنق هذا الوقح ، فقال له محمد: « دعه فسيخرج منه جيل يمرق من الدين كما يمرق السهم من الرميّة [الهدف] ولا يعود إليه أبداً » (٣) .

---

(١) أبو الفدا ص ١١٩ (وص ١٥٥ والطبرى ٣ / ٩٣ والانوار المحمدية ص ١٢٢ / ١٢٣ وتهذيب سيرة بن هشام ص ٤٢٨ / ٤٣٠] .

(٢) أبو الفدا ص ١٩٩ [١٥٥] وجناب ص ٢٤٠ [الطبرى ٣ / ٩٢] .

(٣) إذا صدقنا المؤرخين العرب فإن النبوءة تحققت . فقد انجب ذو الخويصرة ابناً سماه حرقوص بن زهير اليحكى وأطلق عليه الناس «ذا المذمة » [أو ذا الشدية] وصار زعيم الخوارج الذين ثاروا على سلطة الإمام الدينية .

[عمرة رسول الله ﷺ من الجعرانة]

[ليلة الأربعاء ١٢ من ذى القعدة سنة ٨ هـ]

وبعد أن أخضع النصر جل القبائل العربية للإسلام : صار رؤساؤها سنداً قوياً لمحمد تحت تأثير إنعامه عليهم ، فذهب محمد يقدم الحمد والثناء لله على نجاحه ، فقصد مكة مع موكب ليس بالكبير. وزار الأماكن المقدسة وأدى المناسك المعهودة ، وأشاع فى كل مكان قصد إليه ذلك الجلال الدينى الذى يطبع فى الأذهان فكرة الإله الواحد الذى يعبده، والذى يعكس على رسوله نصيباً من مجده ، ثم أخذ يوجه عنايته إلى شئون الحكومة فعين فى المناصب الرئيسية «عتاب بن أسيد » عاملاً له على مكة «ومعاذاً» إماماً ، على أن يتولى الأول الشئون المدنية والآخر يفقه الناس فى أمور الحج ، وذلك باعتباره رئيساً دينياً ، وبينما شغلت محمد هذه الأمور، أخذ الأنصار ـ وهم أصحاب محمد الأوفياء ـ يتهامسون فيما بينهم ، إذ كانوا يخشون أن يجعل محمد من مكة عاصمة لملكه – فكانوا ينتظرون عودته بفارغ الصبر . وكانت كل لحظة تمر عليهم بمكة كأنها دهر طويل . ولكن محمداً كان بعيداً عن أن يحقق مخاوفهم . وكان لا يجهل أن وجود سيد واحد لقريش قد يوقظ الأحقاد التى لم تكد تخمد ، وأنه فى مكة لم يكن سوى المواطن الأول فى قومه . أما فى المدينة فهو الملك والزعيم الدينى والنبى . فتعجل العودة إلى معسكر الجعرانة ثم قفل راجعاً بقواته الظافرة إلى المدينة . ولقد سره رؤية أفراح الشعب كله سرورا أعظم من مشهد إذلال رؤوس قريش المتكبرة . وتمت أمانيه بميلاد ابن له سماه ابراهيم. إذ وضعته مارية المصرية القبطية التى أهداها له المقوقس – بعد وصوله المدينة بعدة أيام (١). ولقد احتفل بهذا اليوم العظيم ، فأقام مأدبة كبيرة لأصدقائه .

[موت حاتم الطائى]

وفى نفس العام فقدت الجزيرة العربية أحد كبار شعرائها هو حاتم . كان مسيحياً وسيداً بمدينة تدعى «خَضَر» وتقع بالقرب من نجد بين أجا وجبل سلمى . وكان ينشد الأشعار التى تحكى البطولات والكرم التى كان هو نموذجاً مجسما لها ، ويشيد به «الميدانى» مؤلف كتاب [مجمع الأمثال] فيقول « كان حاتم كريماً وشجاعا وشاعراً موهوباً ودائماً منتصرا . فإذا

---

(١) أبو الفدا ص ١٢٠ =[١٥٦] وجنّاب ص ٢٤٤ [الطبرى ٣ / ٩٥]

اشترك فى قتال خرج منه مكللا بالغار . واذا تعقب فريسة أدركها . وإذا طلبت منه معروفا حققه . وإذا لعب القمار انحاز الحظ إلى جانبه . وإذا تنافس فى جائزة السباق فإنه يقدم الجواد الفائز . وإذا وقع فى أيديه أسرى اعتقهم». وكتب العرب زاخرة بالأمثلة الدالة على أريحيته . ولا استطيع أن أحرم نفسى من متعة ذكر اللمحة التالية التى أوردها نفس المؤلف . فقد تنكر حاتم ذات يوم وعبراقليم عنزة Anzirate فتعرف عليه أسير مكبل بالقيود، واعتقد الأسير أنه لو استطاع أن يسمع صوته حاتماً فإن قيوده ستتساقط . « فصاح يا أبا سفانة »(١) إن الأسر والمرض قد أنهكانى» . فقال له حاتم « يا صاحبى ما كان ينبغى أن تذكر اسمى فى أرض غريبة». ومع ذلك اقترب من الأسير البائس وفك قيوده وربط نفسه مكان الأسير. ولما أمكن التعرف عليه . تعذر عليه استرداد حريته إلا بدفع الفدية ذهباً . وظل فى قيوده حتى دفعها وكم كانت كبيرة .

[تعقيـــب]

[يلاحظ أن سفارى يحرف الأسماء تحريفاً كبيراً مثل كلمة (عنزة) التى كتبها بما ينبغى ترجمته« الفرط» أو « الأجرد» وهما مكانان أيضا . وليس فى مجمع الأمثال أن حاتما اقترب من الأسير ففك قيده . ولكنه ساوم فيه العنزيين فاشتراه منهم ثم أطلق سراحه . وحل مكانه فى الأسر حتى يأتى أهله بالثمن الذى افتدى به الأسير(٢) .

[إسلام عدى بن حاتم : ربيع الآخر سنة ٩ هـ]

ولقد ترك حاتم بعد مماته ابنا يدعى «عديا» وترك ابنته «سفانة» الجميلة (٣) . وكانا على الدين المسيحى على حين أن بعض قبيلتيهما كان يعبد الأوثان. ولقد أرسل محمد علياً مع قواته لكى يحطم «الفلس» [وفي الاصل الفرنسي ELFATAS]صنمهم الرئيسى(٤). ففر عدى إلى سوريا حاملاً معه جزءاً من ثروته. بينما مكثت سفانة بخضر . فاقتيدت إلى المدينة

---

(١) [أبو سفانة معناه أبو اللؤلؤة ولقد حمل حاتم هذا الاسم حبا فى آبنته سفانة].

(٢) [مجمع الأمثال لأبى الفضل أحمد بن محمد النيسابورى المعروف بالميدانى المتوفى سنة ٥١٨ هـ ج ١ ص١٦٦ / ١٩٧ بطبعة البهية المصرية بميدان الازهر سنة ١٣٤٢ هـ .]

(٣) [ابن اسحق وأبو الفدا ١ / ١٥٦ والاغانى ١٦ / ٩٣ وغرر الخصائص الواضحة لأبى اسحاق الوطواط . وإنسان العيون ٢ / ٢٨٥ .]

(٤) [الطبقات ٢ / ١١٨ .]

وعرضت في ميدان عام مع جموع من السبايا . وبينما كانت رفيقاتها فى البؤس تطلقن الزفرات والدموع ويستسلمن لليأس كانت سفانة تفكر فى مخرج من هذه الهاوية . ولما لاحظت محمداً وهو يمر ـ نهضت بسرعة وقالت له :«يا رسول الله إن أبى قد مات وفر ولىّ ، فأنعم علىّ كما أنعم الله عليكم » فسألها :« ومن وليك؟» قالت «إنه عدى بن حاتم» فقال لها «فلتحقق السماء أمنيتك كما أحققها لك» ونزع عنها قيودها وأطلق سراحها وأجزل لها العطاء وأعادها إلى أخيها. فتأثر عدى لهذا الكرم وانطلق إلى المدينة واعتنق الإسلام .

[تعقيب :]

[أليس فى هذا الذى قرره سفارى دليل على أصالة المرحمة فى النبى ﷺ تنفى عنه اتهام المستشرقيين بأنه كان عاشق دماء ؟]

[عام الوفود]

عام ٦١٢٤ من هبوط أدم حسب تقدير أبى الفدا – عام ٦٣٤ من ميلاد المسيح عام٩ من الهجرة ـ عام ٦١ من ميلاد محمد .

كان العام التاسع الهجرى متميزاً بالسفراء الذين جاءوا نبى الإسلام صاغرين . فقد كان جل أمراء القبائل حتى ذلك الحين يقومون بدور المتفرج أمام المعارك التى دارت بمكة أو بالمدينة . وكانوا ينتظرون حكم النصر الفاصل لكى يحددوا موقفهم (١) . فما أن تحدد النصر ورأوا قريشاً ـ وقد كانت تتمتع بإجلال العرب لها بصفتها الأمينة على الدين وحارسة الأراضى المقدسة – قد خفضت جبينها لقانون الإسلام ، جاء المشركون أفواجاً يقدمون الولاء للمنتصر ويبايعونه على الطاعة وتحققت هذه النبوءة : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ﴾ (٢) فاستقبل محمد وفود القبائل استقبالا عظيماً وعاملهم معاملة تليق بمكانتهم وأعادهم محملين بالهدايا النفيسة [؟!!] .

[وفد بنى حنيفة]

وكان من أعظم هؤلاء الوافدين مسيلمة أمير اليمامة . وهى مدينة أطلق اسمها على الإقليم الذى كانت عاصمته .. وأسلم هذا الأمير، وجاء يبايع محمداً على الإخلاص والطاعة . وما

(١) أبو الفدا ص ١٢١ [١٥٦] وجناب ص ٢٤٥

(٢) القرآن الكريم سورة النصر.

أن عاد الى بلاده حتى ارتد . ظنا منه أنه يستطيع أن يقوم بدور النبى ـ وهو حاكم لمدينة قوية وعظيمة وهو موقر بين رعاياه . وأخذ يدعو إلى الفكرة فانضوى تحت لوائه عدد عظيم من الخلق واعتبر نفسه نداً لمحمد . وكتب إليه يقول : « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله . ليكن لك نصف الأرض ولى النصف الآخر » . وكان محمد . متمكناً من نفسه . ولم يكن بحاجة إلى شريك . فرد عليه بقوله : « من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب . إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» .

[تعقيب]

[روى البخارى أنه جاء المدينة يطلب استخلاف النبى له فرفض النبى ﷺ ولكن سفارى يعرض الخبر فى صورة خبيثة] (١)

ولم تكن مواهب مسيلمة وكفاءته تتناسب مع طموحه ، فكان ملكه عابرا ، وقتل فى معركه فاصلة قادها خالد فى خلافة أبى بكر وقضى على حركته نهائياً .

[وفد ثقيف وزعيمها عروة]

وكان عروة [بن مسعود الثقفى] زعيم ثقيف غائباً وقت أن حاصر المسلمون الطائف . فحضر إلى المدينة وإعتنق الإسلام وأراد أن يصبح نبى قومه(٢). فكشف له محمد عن مدى عناد قومه والأخطار التى تحيط بنوبته [؟!] . وبالرغم من هذا التحذير فإن عروة ذهب إلى قومه يدعوهم إلى دينه فكان الموت ثمناً لاندفاعه وقتل بسهم .

[العفو عن كعب بن زهير]

وعاد إلى المدينة كعب بن زهير الذى كان مهدر الدم . واختار الوقت الذى كان فيه محمد بالمسجد وحوله جمع كبير من الناس . فظهر فجأة وسط الجمع ، ونطق بالشهادة وأنشد قصيدة مشهورة يعتبرها العرب من روائع الشعر ، مطلعها :

[بانت سعاد فقلبى اليوم متبول : متيم اثرها لم يفد مكبول]

وفيها : [إن النبى لنور يستضاء به : مهند من سيوف الله مسلول]

---

(١) [البخارى ٥ / ٢١٧]

(٢) أبو الفداص ١٢٢ [١٥٦] والطبرى ٣ / ٩٦]

وأعجب محمد بمديحه حتى أنه خلع برد ته وألبسه إياها [1] ولقد ألتبس على الدكتور «بريدو » اسم كعب هذا مع اسم كعب آخر كان شاعراً هجاه وقتل فى العام الثالث الهجرى.

[غزوة تبوك : فى رجب سنة ٩ هـ]

[التوقيت والإعداد]

ساد السلام ربوع الجزيرة وأصبح الشعب يوقر نبيه أو يخشاه عن حب أو عن قهر . على حين ظل بعض صغار الأمراء بعيدين عن سيطرته ، ولكنهم لم يكونوا ذوى شأن حتى يحولوا بين محمد وبين تحقيق أغراضه . وكان إخضاع العرب فى نظر محمد شيئاً قليلاً. إذ كان يطمع أن يستخدم قوتهم المتحدة للإطاحة بالعروش المجاورة وغزو بلادها . ولقد لفت الشام نظره إذ كانت هذه البلاد الغنية مناسبة له . فأخذ يدرس طريقة غزوها . واذا كان الموت لم يترك له الوقت لتنفيذ مشروعه ، فقد خط لخلفائه الطريق الذى سلكوه . ولما علم أن الروم حشدوا قواتهم على الحدود ، أعلن الحرب المقدسة ضدهم . وكان حتى ذلك الحين قد قاتل قبائل منقسمة بعد أن غطى تحركاته بالغموض . . اذ أن سرية غزواته وسرعة هجماته لم تكن تترك لأعدائه الفرصة لكشف أمره . وهزم أكثرهم قبل أن يستطيع تجميع قواته . ويرجع إلى هذه السياسة الفضل فى كثير من انتصاراته . أما أمام الروم المتحدين تحت لواء واحد ، فقد كان عنصر المفاجأة غير ذى موضوع . وكان الموقف يتطلب معارك كبيرة لتشتيتهم . ولهذا غير من خطته وأعلن عن عزمه . وفيما يعد المسلمون عدتهم المناسبة ، كشف لهم عن المتاعب والعقبات التى ستواجههم وشجاعة الأعداء والعدد الذى سيقاتلونه[2] . وبدأت التجهيرات فى شهر رجب . وكان الحر شديدا والقحط والجفاف قد غطيا أراضى المدينة . وكان انتظار قطف الثمار الجديدة والأمل فى جنى محصول قريب ، يقيدان شجاعة المقاتلين ، فضلا عن أن الجيش

---

(١) لقد عرض معاوية على كعب مبلغ عشرة آلاف درهم ثمنا لهذه البردة ولكنه لم يحصل عليها . ولمامات الشاعر اشتراها من ابنائه بعشرين الف درهم . واصبحت هذه البردة زينة للخليفة يرتديها فى الاحفال الرسمية. ولقد ارتداها المعتصم يوم أن مثل أمام هولاكو زعيم المغول . وكان مع المعتصم عصا محمد : أيضا ولقد احرق هولاكو البردة والعصا فى حوض والقى بالرماد فى نهر دجلة وقال : (ليس الحقد هو الذى دفعنى الى حرق هذين الأثرين الثمينين ، وأنما هو حرصى للحفاظ علي طهارتهما وقد استهما) . وكان المعتصم هو الخليفة السادس والثلاثون وآخر الخلفاء العباسيين . وبعد أن استولى هولاكو على بغداد وامعن القتل فى الاهالى قتل المعتصم (أحمد بن يوسف – التاريخ العام جـ١١)

(٢) أبو الفدا ص ١٢٣ [١ / ١٥٦ والانوار المحمدية ص ١٢٧ والطبرى ٣ / ١٠١]

الكبير كان يتطلب نفقات باهظة . ولكن بلاغة محمد وتصميمه تغلبا على كل هذه المعوقات. فأعطى أبو بكر كل أمواله لتجهيز هذه الحرب المقدسة . وقدم عمر نصف أمواله . ودفع العباس مبالغ كبيرة من المال . وقدم عثمان ألف دينار من الذهب . وذبح ثلاثمائة بعير. وتعهد بالانفاق على ثلاث كتائب أثناء المعركة .

[تعقيب]

[هكذا يرد المستشرقون الى البلاغة أروع ضروب التضحية ليقللوا من أثر الإيمان الصادق واليقين الجازم بالله والآخرة وقد تجاهل سفارى أن الاعجاب بشخص لرواء حديثه ينتهى بعد عدة جلسات ـ لا سنين ـ كما هو الأمر هنا] .

[تخلف المنافقين]

وتم تجهيز كل شئ وتحرك محمد وعسكر على بعد عدة فراسخ من المدينة . وتخلف عبد الله المنافق مع أنصاره ، وكان يسخر من المؤمنين الذين يعرضون أنفسهم للاخطار فى الحر الشديد تدفعهم حمية خرافية فرد عليهم محمد [؟!] فى القرآن بقوله [بل قول الله يا سفارى] ﴿ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر ، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون﴾(١)

[المخلفون التائبون واستخلاف علىّ]

وكان كعب بن مالك ومرارة بن الربيع [العمرى] وهلال بن أمية [الواقفى] هم وحدهم الذين رفضوا الخروج طبقاً لأمر القائد (٢) وكان محمد قد عهد إلى على بحكم المدينة ورعاية أهله فى غيابه . وأخذ المشركون الذين كانوا يخشون بأس علىّ - وكانوا يكرهونه - يحاولون إلقاء الشك فى قلبه . فأشاعوا أن محمداً قد تركه وراءه لأنه كان يغار من بطولته . وتأثر علىّ بهذا الحديث واستيقظ فى نفسه حبه للمجد . وحمل سلاحه وانطلق إلى المعسكر ونقل إلى محمد الشائعات الخبيثة التى كانت تنتشر عنه فقال له محمد [كذبوا ولكنى خلفتك

(١) سورة التوبة الآية « ٨١ »

(٢) أبو الفدا ص ١٢٣ [١٥٧ والطبرى ٣ / ١١١ والبخارى ٦ / ٣ : ٩]

لما تركت ورائى ، فـارجع فـاخلفنى فى أهلى وأهلك ، أفـلا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من مـوسى إلا أنه لا نبى بعـدى ؟] فطابت نفس علىّ وعاد إلى منصبه وأسكت الرغبة التى كانت فى نفسه.(1)

[السير إلى تبوك]

وكان جيش المسلمين القوى قد بلغ عشرين ألفا من المشاة وستة آلاف من الفرسان . وتحرك الجيش وكان القيظ شديدا . وأخذت حرارة الشمس الحارقة والنقع الخانق والعطش المهلك تزيد الجنود إعياء . ولكن المثل الذى كان يضربه قائدهم وهو يسير فى مقدمتهم بلا شكوى كان يقوى من عزمهم(2) . ولما وصلوا إلى الحجر(3) ـ وهو واد على مسافة من وادى القرى ـ أرادوا أن يرووا ظمأهم من احدى العيون فقال لهم محمد [لا تدخلوا بيوت هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين خشية أن يصيبكم مثل ما أصابهم،(4) ولا تشربوا من مائها شيئاً ولا تتوضئوا منه للصلاة ـ وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الابل ولا تأكلوا منه . ولا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له] (5) فلما فرغ من حديثه غطى وجهه ببردته وعبر الوادى مسرعا (6) ، واجتاز الصحارى الشاسعة متحملاً التعب المذهل حتى بلغ

---

(1) [أبو الفدا ص 157 والأنوار المحمدية ص 128 – وقيل خلف سباع بن عرفطة لا عليا ، ورجح ابن سعد أنه خلف محمد بن مسلمة ورجح ابن عبد البر أنه خلف عليا (الدرر 254) وقال ابن اسحاق خلف الرسول علياً على أهله وسباع على المدينة . ومثل هذا فى البخارى 6 / 3 وفى الطبقات الكبرى 2 / 118 وفى الطبرى 3 / 103].

(2) ابن عقيل – ابن ادريس عالم الجغرافيا [وابو الفداء ص 157 والطبرى 3 / 102]

(3) هذا الوادى خال من السكان الآن ويسمى العرب الجبال المحيطة بهElateleb أى قطع الصخر (ابن عقيل) [وكان به قرية نواحى المدينة وبه عيون وآبار لبنى سليم خاصة . وتعرف الآن باسم مدائن صالح . كانت به ديار ثمود ـ تاج اللغة وصحاح العربي لأبى نصر اسماعيل بن حماد الجوهرى ـ والقاموس المحيط] ولقد أهلك الله ثمود سكانها القدامى انتقاما إلهياً لقتلهم ناقة صالح رسولهم التى أخرجها من الصخور بمعجزة [بل الله يا سفارى هو صانع هذا] وذكر محمد [؟!] جريمتهم وعقابهم فى مواضع كثيرة من القرآن وهو الذى يعتمد على الأثر التاريخى . وكان غرض محمد من هذا كسب التأييد لدعوته . ولقد رفض الشرب من البئر التى شرب منها هؤلاء الكفار [هكذا يفهم المستشرقون النبى ويفسرون أعماله كما لو كان دجالاً مثلهم.]

[(4) الدرر ص 225]

(5) [تهذيب سيرة ابن هشام ص 447 وارشاد السارى لشرح البخارى 6 ص 458 .]

(6) ابو الفدا ص 124 – [(157 – 158) وسفارى يكذب على أبو الفدا فى قوله (غطى النبى وجهه ببردته . ولم يذكره الطبرى فى روايته (الطبرى 3 / 105)] .

تبوك(١)، حيث وجد الماء والنخيل ، وتوقف حتى يتسمع أخبار عدوه. ولما علم أن الروم قد انسحبوا ، يمم وجهه نحو إخضاع صغار الأمراء المجاورين حتى يؤمن حدوده مع الشام . ولما كان بأرض الأمبراطور هرقل ، فقد كتب إليه رسالة ثانية يدعوه فيها إلى الإسلام . فاستقبل هرقل الرسول باعتزاز ورده بكلمات طيبة .

[معاهدة أيلة](٢)

(٣) ومع ذلك فإن سكان القرى والمدن المجاورة قد فزعوا من اقتراب هذا الجيش العظيم ، فأسرعوا يتجنبون العاصفة، وأرسلوا وفودهم إلى معسكر تبوك ، وقدموا الولاء لزعيم المسلمين.(٤) وجاء يوحنا أمير أيله بنفسه – وكان مسيحيا – وصالح محمدا على أن يدفع إليه الجزية ومقدارها ثلاثة آلاف دينار من الذهب سنويا . وكتب النبى له عهدا نصه الآتى : –

[بسم الله الرحمن الرحيم (٥) .هذه أَمَنَة من الله ومحمد النبى رسول الله ليوحنه بن رؤية وأهل أيلة : سفنهم وسياراتهم (قافلة الناس والإبل) فى البر والبحر . لهم ذمة الله وذمة محمد النبى ، وما كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر. فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه، إنه طيب لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يُمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر](٦) ولقد احتفظ أهل أيله (٧) بهذا الكتاب بعناية وحافظوا عليه حتى وقتنا الحاضر. وفوق ذلك فقد أهدى النبى أهل

---

(١) يمثل تبوك مشهد الخصوبة المشرقة فى قلب الصحراء وتقع هذه المدينة على مسيرة ستة أيام شرقى مدين وأربعة أيام من الشام (الإدريسى) ويقول جناب هى حصن مشهور في طريق الشام .

(٢) [ايلة كانت ثغراً على خليج العقبة أو بقربه]

(٣) جناب .

(٤) أبو الفدا ص ١٢٥ [١/١٥٧) (وتهذيب سيرة ابن هشام ص ٤٥١ والطبرى ٣ / ١٠٨)]

(٥) مؤلف كتاب الأنوار [وفى الانوار المحمدية ص ١٧٢] .

(٦) [الانوار المحمدية ص ١٧٣ وتهذيب سيرة ابن هشام ٤٥١] .

(٧) وايلة مدينة تقع فى البحر الاحمر وكان يسكنها اليهود فى الزمان الغابر – وكان الحجاج المصريون يمرود بالقرب منها وهم فى طريقهم الى مكة . ويقول أبو الفدا إنها مهجورة الآن . ولقد تهدمت القلعة التى بيت فى البحر حيث كان يقيم الحاكم المصرى وانسحب إلى المدينة المقامة على الشاطئ على بعد خمسة أيام من مدين على نفس الساحل (أبو الفداء وصف الجزيرة العربية ص ٤١) واذا صدقنا القرآن [؟!] فإن الله قد عاقب اليهود سكان أيلة فى الماضى لأنهم أصبحوا كافرين « ﴿ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ؟ من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك : شر مكانا وأضل عن سواء السبيل »﴾ (سورة المائدة)

أيلة البردة التى كان يرتديها (١) وقتئذ .

[صلح أذرُح وجرباء]

(٢) ولقد استقبل محمد وفد أذرح ووفد الجرباء بحفاوة - وهما مدينتان على حدود الشام . وعقد معهما صلحا على أن يدفعوا له الجزية وقدرها مائتا دينار . وبذلك أصبح جميع الأمراء الصغار المجاورين خاضعين له بعد أن رفضوا اعتناق الإسلام .

[بعث خالد إلى أكيدر دومة الجندل (٣) رجب سنة ٩ هـ]

أما أكيدر أمير قبيلة كنده النصرانى فقد رفض الطاعة لمحمد .وكان فخوراً بلقب ملك دومة وهى مدينة على بعد مسيرة خمسة أيام من دمشق [شمال نجد وهى طرف من أفواه الشام وبينها وبين المدينة خمسة عشرة ليلة] ولم يرسل وفدا إلى تبوك . وانسحب فى حصن مدهن بأمواله وأهله وظن أنه فى مأمن من العاصفة . ولكن محمداً كان يخشى أن يترك خلفه عدوا ماكراً . فجهز إليه خالدا على أربعمائة فارس ، وأمره بخلع هذا الأمير المتمرد (٤). وأصبحت البلاد كلها حتى الحدود خاضعة لمحمد . فقفل راجعا من تبوك بعد أن مكث فيها عشرين يوما (٥) وبينما هو عائد إلى المدينة بقواته ، طار خالد الى حصن مدهن . ولما كانت قوته صغيرة لا تستطيع مواجهة العدو ، فقد لجأ إلى الدهاء والحيلة . فكمن على بعد من الحصن، وترصد اللحظة التى خرج فيها أكيدر للصيد فأخذه هو وموكبه . ولقد قاوم أخوه حسان فقتل . وكان يلبس حلة من الديباج مطرزة بفصوص من الذهب . أرسلت إلى محمد برهانا على النصر . ولقد جذبت هذه التحفة كل الأنظار فى الجيش . فأخذ

---

(١) لا يزال العثمانيون يحتفظون بهذه البردة . ولقد صنع لها مراد خان بن سليم خان - الذى تولى مقاليد الحكم فى عام ٩٨٢ هـ/١٥٧٤ صندوقا من الذهب واحتفظ بها فيه . وينسب اليها الاتراك رخاء ملكهم وانتصار جيوشهم والشفاء من الامراض لمن يشرب من الماء الذى غمست فيه[؟!] (أحمد بن يوسف التاريخ العام) .

(٢) أحمد بن يوسف أبو الفدا وجناب

(٣) [الأنوار المحمدية ص ١٢٩ وأكيدر هو اكيد بن عبد الملك . أصله من كنده وكان نصرانياً]

(٤) [فى الأنوار المحمدية ٤٢٠ فارساً] .

(٥) [هذه رواية بن سعد وقال ابن هشام ابن عبد البر بضع عشرة ليلة (تهذيب سيرة بن هشام ص ٤٥٣ والدرر ص ٢٥٧ والانوار المحمدية ص ١٣٠ والطبقات ٢ / ١٢١ .]

كل جندى يلمسها متعجباً . ولما لاحظ محمد دهشتهم البلهاء ، أراد أن يضع لها حدا فقال لهم [أتعجبون من هذا فوالذى نفسى بيده لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن من هذا(١)] ولكن خالدا – وقد كان مفاوضاً ماهراً وقائداً عظيما – استطاع أن يستولى على مفاتيح الحصن وعلى ألف بعير وثمانمائة حصان وأربعمائة درع . واقتاد أكيدر وأخاه مسعودا إلى محمد الذى عفا عنهما وفرض عليهما الجزية وأعادهما إلى بلادهما ومعهما كتاب أمنة (٢) .

[مسجد الضرار]

وفى طريق عودة محمد إلى المدينة مر بالقرب من أرض قوم ganamites [بنى عبيد وبنى ضبيعة (٣)] وهم عرب يخفون نصرانيتهم . وكانوا قد أقاموا مسجدا ينافسون به مسجد قباء وأقاموا فيه الصلاة علانية. ولما أرادوا أن يجذبوا إليه الناس دعوا النبى ليصلى فيه تشريفا له.(٤) وكاد النبى يحقق لهم هذا الشرف لولا أنه علم أن أبا عمرو هو إمام المسجد .

لقد كان هذا الناسك الورع مرتديا مسح النساك (٥) ،رغبة منه فى جذب احترام الناس . ولقد دفعته حماسته للدين المسيحى وبغضه لمحمد إلى أن يذهب إلى القسطنطينية ليطلب من هرقل قوات يحارب بها عدو دينه . ولكن الأمبراطور رفض طلبه . ويرسم القرآن صورة هذا المسجد ﴿ والذين اتخذوا مسجداً (فى الأصل الفرنسى معبداً) ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل . وليحلفُن إن أردنا إلا الحسنى . والله يشهد إنهم لكاذبون . لا تقم فيه أبدا .لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾ (ترجمة باقى الآية : المعبد الحق له أساسه المبنى على التقوى)(٦) ولقد كان التحريم صريحاً .

---

(١) [تهذيب سيرة بن هشام ص ٤٥٣ – والطبرى ج ٣ ص ١٠٩] وأبو الفدا ص ٢٢٦ .
(٢) [الطبقات ج ٨ ص ١١٩ والطبرى ج ٣ ص ١٠٩].
(٣) جناب [والأنوار المحمدية ص ١٣٠ والطبرى ٣ / ١١٠]
(٤) جلال الدين .
(٥) هكذا يصور لنا الكتاب العرب شخصية أبى عمرو . ولا شك أنه كان من رجال الدين النشطين الذين كانوا يبذلون كل جهدهم للمحافظة على المسيحية المترنحة .
(٦) سورة التوبة .

فأرسل محمد قوات هدمت المعبد(١)

[التوبة على الثلاثة المخلّفين]

ولما عاد الى المدينة فى شهر رمضان ، عاقب بشدة الأنصار الثلاثة الذين خُلّفوا ولم يخرجوا معه فى لوائه. لقد نفاهم المجتمع وحرمهم من كل حقوقهم :حرم الاتجار معهم، وكذلك الحديث معهم ، وكان الناس يفرون منهم ، ولقد استمر هذا العقاب القاسى خمسين يوما . ولما اعتقد أنهم قد نالوا ما استحقوا من العقاب . أنزل من السماء [؟] الآية التى تعلن عن جريمتهم وعن عقابهم وعن العفو عنهم ﴿ وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه . ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾ [وقد سبق التعقيب على مثل قول سفارى أنزل محمد من السماء الآية فى مواقف أخرى .]

[إسلام ثقيف : رمضان سنة ٩ هـ]

وما أن عاد إلى المدينة حتى غمره السرور لما علم بخضوع ثقيف . اذ كانت هذه القبيلة المحاربة قد قاومت بقوة السلاح . ولما أصبحت بلا حليف وصارت محاطة بالأعداء ومنهكة على الدوام من هجمات قوات مالك ، زعيم هوازن ، اضطرت مكرهة على مسايرة الطوفان . فأرسلت عشر سفراء إلى المدينة .(٢) فلما سمح لهم بالدخول إلى مجلس النبى ، عرضوا عليه دخولهم الاسلام بشرط أن يحتفظوا ثلاث سنوات بصنم اللات (كانت أكبر إلهة عند العرب. ولكن ثقيفا كانت تعتقد فيها عقيدة خاصة) فرفض اقتراحهم . فطلبوا أن يسمح لهم بالنظر إليها مرة كل شهر. فأبى محمد . فطلبوا أن يعفيهم من الصلاة . فقال لهم « إنه لا خير فى دين بلا صلاة » . وتحت ضغط الظروف اضطروا للخضوع ولاعتناق الإسلام[؟!] وحتى يتأكد

---

(١) المعبد الذى أقامه محمد سمى « التقوى » انظر العام الهجرى الأول .

(٢) أبو الفدا ص ١٢٧ [والطبرى ٣ / ٩٧ - ٩٩ . وقال ابن عبد البر وابن هشام والطبرى هم ستة ١ - عبد ياليل بن عمرو بن عمير رئيساً ٢ - والحكم بن عمرو بن وهب بن معتب ٣ - وشرحبيل بن عيلان بن سلمة من بنى معتب ٤ - عثمان بن أبى العاص بن بشر بن عبد دهمان من بنى مالك ٥ - وأوس بن عوف من بنى سالم ٦ - ونمير بن فرشه بن ربيعة من بنى الحارث (الدرر ص ٢٦٢ - ٢٦٣ والطبرى ٣ / ٩٨ والتهذيب ٤٥٧ ، ٤٥٨].

النبى من إسلامهم، أرسل معهم المغيرة وأبا سفيان بن حرب وكلفهما بتحطيم اللات . واعتقد أهل الطائف أن الآلهة سوف تصعق منتهكى حرمتها ، واجتمعوا ليشهدوا انتقام السماء (١) . فتناول أبو سفيان مطرقة كبيرة وضرب بها الصنم . وسواء أكانت الضربة بقوة أكبر من المطلوب ، أو كان الرعب قد ملأ قلبه ، فقد انقلب على الأرض . فارتفعت الأصوات معربة عن فرحتها وعن سخريتها من هزيمته . فجاء المغيرة وأخذ المطرقة بيد أكثر ثباتا ووجه إلى الصنم عدة ضربات فحطمه وجعله جذاذاً . فانقلبت الهتافات عويلا وأخذت [الشمطاوات مكشوفات الرؤوس] تبكين وهن ينشدن هذا النشيد الجنائزى:

[لتُبَكَيَنّ دفَّاع : أسلمها الرُّضّاع لم يحسنوا المصاع (٢)]

[حجة أبى بكر الصديق سنة ٩ هـ]

ولقد كُلف(٣) أبو بكر فى شهر شوال أن يخرج بالناس حاجا فخرج فى موكب من ثلاثمائة رجل . فلما نزل ذا الحليفة – وهى قرية على بعد عدة أميال من مكة .

[وفى الطبقات ٢ / ١٢١ بالعرج وهو نحو ثمانين ميلا من المدينة . بينما ذو الحليفة على بعد ستة أو سبعة أميال من المدينة] رأى عليا مقبلا عليه يحمل أحكاماً جديدة نزلت من السماء .

والواقع أن النبى اعتقد أنه لا داعى لمجاملة المشركين بعد ذلك : فنشر[؟!!] (٤) سورة التوبة

---

(١) جناب [والطبرى ٣/٩٨ : ٩٩] .

(٢) [ودفاع لقب للصنم لأنه يدفع عنهم البلاء والأعداء. وتريد بالرضاع اللئام. فالعرب تقول: لئيم راضع- والمصاع بكسر الميم المضاربة بالسيوف. انظر تهذيب سيرة بن هشام ص ٤٦٠ والطبرى ٣/٩٩ والدرر/٢٦٤]

(٣) أبو الفداء ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ [١٥٨ والبخارى ٥/٢١٢].

(٤) هى آخر سورة نشرها [؟!!] محمد ولكن الذين جمعوا الأجزاء المتفرقة التي يتألف منها القرآن كانت كل عنايتهم طول السور وليس تاريخ ظهورها فوضعوها تاسع سورة (البخارى) .

تعقيب : [معروف أن ترتيب سور القرآن الكريم توفيقي موحى به من السماء . والحكمة واضحة . وهى أن الكتاب كله بترتيبه هذا يعطى قارئه صورة تختلف عما لو كان ترتيب الآيات والسور علي هيئة أخرى. فلترتيب الأفكار تأثيره ودلالته فى أى مقال أو كتاب فى أى لغة . وقد تعرضت السورة لأحداث فى غزوة تبوك في منتصف العام التاسع بينما أول التوبة فى أواخر العام التاسع . وآيات من المائدة نزلت فى العام العاشر في حجة الوداع]

حيث تقرأ هذه الكلمات : ﴿ وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برئ من المشركين ورسولهُ . فإن تبتم فهو خير لكم. وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله . وبشر الذين كفروا بعذاب أليم .. ﴾ (١) .[هذا الكلام جرياً على زعم الكاتب أن النبى هو صانع القرآن وينسبه إلى الله كذبا] .

كان على عليّ أن يقرأ هذه السورة الملتهبة على جموع الشعب . فغار منه أبو بكر ورجع إلى المدينة وقال لمحمد [أنزل فيّ شئ ؟] فرد عليه النبى قائلاً [لا ولكن لا يبلغ عنى إلا أنا ورجل منى .ألا ترضى يا أبا بكر أنك كنت معى فى الغار وصاحبى على الحوض؟] قال أبو بكر بلى ، وعاد راضيا .

[تعقيب]

[رواية أبى الفدا ١ / ١٥٨ والذى رواه الثقات من كتاب السيرة هى أن علياً حين أدرك أبا بكر بالطريق سأله يا على : أميراً أو مأموراً ؟ قال عليّ : بل مأموراً ثم أخبره بما جاء به .. أما الهراء الذى ذكره الكاتب فلم يذكروه (٢)]

ولما بلغ مكة أمّ الناس فى الحج، وأخذ يعلمهم المناسك التى كان ينبغى مراعاتها فى ذلك اليوم. وفى الليلة السابقة لذبح الهَدْىّ قام عليّ بقراءة سورة التوبة (٣) . وفى اليوم التالى خطب الناس وأعلن أنه بعد هذا العام لن يستطيع إنسان أن يطوف حول الكعبة إلا وهو مرتد ملابس الإحرام . وأضاف أنه محرم من الآن فصاعدا على المشركين أن يقوموا بالحج أو يقتربوا من الكعبة . وإلا عوقبوا بالموت . والقرآن يعزز هذا التحريم (٤) ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نَجَس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا . وإن خفتم عَيْلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء .إن الله عليم حكيم ﴾ (٥) ولما انتهت مراسم الحج عاد أبو بكر وعليّ إلى المدينة .

---

(١) سورة التوبة (٢)[الدرر ص ٢٢٦ والطبقات القسم الأول ج ٢ ص ١٢١]

(٣) جناب ص ٢٧٢ [وأبو الفدا ج ١ ص ١٥٨]

(٤) ولقد روعى هذا المبدأ بعد ذلك فأى غريب يتجرأ على الاقتراب من مكة يقتل إذا اكتشف أمره . [وهذا افتراء من سفارى إلا اذا أراد بالغريب من ليس مسلما ومع هذا فإن المشرك لا يقتل عند ضبطه .]

(٥) القرآن سورة التوبة .

[وفود اليمن]

عام ٦٣٢٥ من هبوط أدم حسب تقدير أبى الفدا – عام ٦٤٠ من ميلاد عيسى عام ١٠ من الهجرة عام ٦٢ من ميلاد محمد .

كان إعلان هذه الأحكام القاسية آخر الضربات التى وجهت إلى الشرك. وأسرع الناس أفرادا وأفواجاً يعتنقون الإسلام . وجاء ملوك حِميَّر(١) اقتداء بغيرهم من الناس. وتحت إغراء الرسائل التى أرسلها إليهم محمد وقالوا له :« إنهم حطموا أوثانهم وأنهم دانوا للدين الحق ، وأنهم متأهبون لمحاربة الوثنية بكل قوة » . سُر النبى بهذه الأنباء وهنأ الملوك بالفلاح الذى نالوه عند ما فتحوا أعينهم على النور. ودعاهم إلى طاعة الله ورسوله(٢) . ولكن يستوثق من ولاء هذه الأقاليم الغنية أوفد قائدين عسكريين يحكمانها باسمه. فتولى أبو موسى حكم زبيد وعدن وأقام معاذاً بجند [يلاحظ أن أبا موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل من كبار الفقهاء. ولكن الكاتب يريد أن يضفى على الحكم الإسلامى صفة الحكم العسكرى .]

وكان محمد مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بمعاذ. فأشعره بصدق حبه عند وداعه ، إذ طوق رأسه بعمامة وساعده على ركوب بغلته وقادها لمعاذ بينما هو يسير على أقدامه مسافة طويلة (٣) . فخجل معاذ . وأراد أن ينزل فقال له النبى:« يا معاذ أمكث ! لا تعتقد أنى أقصر فى حق كرامتى ، وإنما أنفذ أمر السماء وأرضى نفسى . ينبغى أن ينال كل من يتولى القيادة [؟!] حقه من التكريم » . ثم تنهد النبى فى أسى وهو يقول :« لو أننى آمل أن آراك مرة أخرى لأوجزت التعليمات التى أصدرها إليك ولكنها آخر مرة أتحدث فيها إليك فإننا سوف لا نلتقى إلا يوم القيامة » . وتفرق الصديقان والدموع تترقرق فى أعينهما ولم يلتقيا بعد ذلك .

---

(١) [كان هذا فى رمضان سنة ٩ هـ (البخارى ٥ / ٢١٢) والطبرى ٣ / ١٢٠] وكان عدد هؤلاء الامراء خمسة وكانوا يحكمون أقاليم اليمن المختلفة . وكانوا من سلالة حمير بن سبأ الذى طرد ثمود من اليمن الى الحجاز . وأول من وضع تاجا على رأسه (جناب وأحمد بن يوسف) ويعتقد كثير من الكتاب أن سلالة حِميَّر من سلالة حِميَر التى تحدث عنها "Ptolomee Ludolpbo فى تعليق على تاريخ الحبشة بالفرنسية.

(٢) ابن اسحق [والانوار المحمدية ص ١٣٢] .

(٣) جناب ص ٢٧٣

[موت ابراهيم]

ولكن الأخبار السارة التى كان محمد فد تلقاها ، قد عكر صفوها حادث أليم (١) . فلم يكن لمحمد سوى ابن واحد عمره سبعة عشر شهرا . وهو الوليد الوحيد الذى كان يمكن أن يحمل اسمه من بعده . لقد خطف الموت منه هذا الأمل الجميل . فمات إبراهيم وكان ذلك اليوم يوم حداد للمدينة بأسرها . وبدت الطبيعةوكأنها تشارك الشعب فى حزنه على خسارته. إذحدث كسوف للشمس أظلم من جرائه وجه السماء ، ونسبه الناس إلى موت إبراهيم . ولكن محمداً برغم أن الحزن كان يملأ قلبه ، أراد أن يصحح هذا الخطأ. فقال :« أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته».

[تولى على قضاء اليمن]

ولم يكفه أنه عين قائدين على اليمن فأرسل عليّا يعظ هذا الإقليم الغنى ، وأوصاه بالعدل والاعتدال (٢) .فقال على [يا رسول الله إنك تبعثنى الى قوم شيوخ ذوى أسنان، وإنى أخاف أن لا أصيب] فوضع محمد يده على فمه(٣) وعلى صدره ، ودعا له هذا الدعاء [«اللهم اهد قلبه وثبت لسانه »] ثم أضاف هذه الكلمات الخالدة [اذا قعد الخصمان بين يديك فلا تقض حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول . فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء(٤)] ورحل على بعد أن تزود بهذه الكلمات . ولما وصل إلى اليمن تلى على الشعب رسائل النبى ، ودعاهم إلى اعتناق الإسلام . وكان يعظهم هو على رأس جيش ويحارب الذين لم يستطع إقناعهم .[؟!!!] .

ولقد أفلحت معه هذه الطريقة فى الإقناع . فأسلمت قبيلة همذان كلها فى يوم واحد. فأرسل رسولا سريعاً الى النبى يبشره فى المدينة بالخبر. وكان المجد الذى يتوج رأسه قد جعله يتقدم الصفوف بعد البطولات العسكرية العظيمة التى حققت له الشهرة. فكان كل بلد يمر به

---

(١)البخارى [٢ / ٤٢ : ٤٣] .

(٢) أبو الفدا ص ١٢٩ [١٥٨ والبخارى ٥ / / ٢٠٦ - ٢٠٨] جناب .

(٣) [وقوله « وضع يده على فمه » زيادة غير معروفة . فالحديث روى عن على أبى البخترة وحنش بن المعتمر وحارثة وكلهم يذكر وضع اليد على الصدر دون الفم . القسم الأول الطبقات (٢/ ١٠٠ : ١٠١)] .

(٤) [الطبقات ج ٢ ص ١٠٠-١٠١).]

يدخل أهله الإسلام ، أما خوفاً من بأسه، وإما إعجاباً ببلاغته . وانتشر الطوفان في كل جهة وكان السيف يزيل أى معوق يقابله[؟!!] ولم تبق سوى نجران التى احتفظت بدينها، وتمسكت بالإنجيل وفضلت أن تدفع الجزية على أن تترك دينها .

[تعقيب]

[الكاتب مصر على التضليل . وقد عرفنا أن الإسلام لا يقبل إيمان المكره . ومن غباء الكاتب أنه نسى أنه قال منذ قليل : إن اليمن جاءت زعامتها تعلن إسلامها . وكل من كان مع على من القوى العسكرية ثلاثمائة بالرغم من بعد الشقة، وحركة الغليان والاضطراب المذهبى الذى يشبه المخاض الاجتماعى فى الجزيرة لمولد الاسلام العظيم وثلاثمائة لا يمثلون قوة غزو ، وإنما قوة أمن للدعوة ورجالها هناك . فاشتباكها مع مذحج الذين رموا دعاة الحق المسالمين بالنبال وانتصارها عليهم لا يسمى استكراها على الدين . على أن هذا البعث مع السلاح كان فى رمضان سنة ١٠ هـ . أما مرة البعث للقضاء والدعوة فلم يكن معه أية قوى لأنها بعد استقرار الأمر] (١) .

[زحمة واجبات النبى]

وبينما كان عليّ يؤدى مهامه العسكرية [؟!] على خير وجه، لم يكن محمد دون مشاغل بالمدينة. فقد شغل باستقبال الوفود ذوى الرؤوس المتوجة. وفى إرسال قواده إلى المناطق التى استولى عليها ، وبعث آخرين على رأس الحملات العسكرية التى يقتضيها سلطانه. واهتم بتوجيه السلطةوالنظام والترابط بين أجزاء هذه المملكة الشاسعة التى سوف تبسط نفوذها على جزء كبير من العالم . لقد كان عظيماً فى إدارة الشئون السياسية الهادئة، كما كان عظيماً وهو على رأس الجيش . ولما رأى قوته قد رست على قواعد متينة ، قرر أن يقوم بالحج إلى البيت الحرام بمكة بصورة مستعلنة. وترجع هذه المناسك الى عهد اسماعيل فى العصور القديمة[بل عهد إبراهيم] . ودأب العرب على ممارستها منذ ذلك الوقت. ولكن الوثنية كانت قد حولتها الى طقوس خرافية فجاء محمد ـ وهو الحريص عليها ـ فنقاها من الانحرافات ، وجعل

---

(١) [الطبقات الكبرى ٢ / ١٢٢.]

منها الدعامة الخامسة من دعامات الدين . ويقرر القرآن هذه الفريضة فى كلمات ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله﴾. (١)

[حجة الوداع : حجة الإسلام سنة ١٠ هـ]

انتشر نبأ خروج النبى حاجا فى ذلك العام . فتحركت جموع هائلة إلى المدينة للمشاركة فى الحج . وخرج منها فى الخامس والعشرين من ذى القعدة ومعه تسعون ألف حاج يتبعهم عدد كبير من الهدى مزينة بالزهور والرايات (٢) وعسكروا بذى الحليفة التى سبق أن تحدثنا عنها والتى توجد بها دار لضيافة المسافرين .

[تعقيب]

[هذا فهم خاطئ فى اللغة. وأصل العبارة (وذو الحليفة منزل للمسافرين ،أو كان لعلى منزل بجوار البئر) والمراد بذلك عند العرب أنها مكان به ماء ينزل به المسافرون ليتزودوا بالماء . وليس منزلا بمعنى فندق أو مسكن ، وإنما هو مجرد مكان للنزول به بعض الوقت.]

وكان علىّ يمتلك هناك بئراً معروفة بعذوبة مائها ، وكانت له دار إلى جوار البئر[؟!] فأمضى النبى الليل فيها وعند بزوغ فجر اليوم التالى دخل المسجد وصلّى .

[كيف حجّ النبّى صلى الله عليه وسلم]

وبعد أداء هذا الواجب الدينى ركب محمد ناقته القصواء . [فلما استوى بالبيداء أهل بالتوحيد] وقال : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك (٣) . وبلغ مكة فى اليوم الرابع. وكان أول عمل له هو أن توجه إلى البيت الحرام وقبّل فى

---

(١) سورة البقرة

(٢) هكذا وصفها جابر بن عبد الله الذى اشترك فى الحج [أخطأ الكاتب فى فهم النص العربى، ولفظه (وأشعر هديه وقلده) ففهم من التقليد لبس قلائد الحلى . ولكن المراد بالاشعار احداث جرح فى سنام الجمل أو جانبه ليسيل دم يعلم منه أنه هدي للكعبة ، وبالتقليد وضع قلادة من الأغصان والصوف أو الجلد تدل على أنه هدى للكعبة] .

(٣) [الإهلال : رفع الصوت بالتلبية . وفهم سفارى خطأ أن لفظ أهل معناه نطق الشهادتين . والذى يعنى نطق الشهادتين هو لفظ (هلل)] .

خشوع زاوية الحجر الاسود .

[تعقيب]

[فهم المستشرقون من العبارة العربية (استلم الركن) أن النبى كان يعمد إلى ركن من أركان الحجر وهو خطأ . فالركن الذى به الحجر الأسود هو الجنوبى الشرقى ، ويسمى الركن الأسود . وحين يقال استلم الطائفون الركن الاسود يعنون الحجر الأسود ويسمى هذا الأسلوب فى اللغة مجازاً .]

وطاف سبع مرات حول الكعبة(١) [فرمل فى الأشواط الثلاثة الأولى ثم مشى بقية الاشواط][الرمل : هو الهرولة . وتكون هى والمشى المعتاد من الحجر الأسود إلى الحجر أوالركن اليمانى] ثم اقترب من موطئ ابراهيم [يعنى مقام إبراهيم] ثم عاد إلى زاوية الحجر الأسود وقبّلها للمرة الثانية. وخرج من المدينة من باب بنى مهدون [ويسمى باب الصفا] وصعد تل الصفا. فلما بلغ القمة استدار نحو الكعبة، وأخذ يقول (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير ـ نصر عبده وهزم الأحزاب وحده). وبعد أن حمد الله وأثنى عليه ، نزل وسار إلى المروة فرمل [أسرع خطاه] فى بطن الوادى ثم صعد بهدوء . ولما وصل إلى قمة الجبل استدار نحو جبل عرفات(٢)وكان قد بلغه قبل غروب الشمس بقليل .

[تعقيب]

[الذى فى كتب السيرة أن النبى ﷺ اتجه نحو البيت الحرام فوق الصفا والمروة . فلما كان يوم التروية (٨ من ذى الحجة)توجه إلى منى . فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح . ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس يوم (٩ ذى الحجة) فاتجه الى عرفة ماراً بالمزدلفة دون توقف بها . فلما وصل إلى عرفة وجد أصحابه

---

(١) [لبيك لمحمد كامل حتة ص ٢١ ج ٣] .

(٢) عرفات معناها المعرفة . ولقد سمى هكذا لأن جبريل علّم عليه ابراهيم مناسك الحج (الحسن) . ويذكر كتاب آخرون أن آدم وحواء بعد أن طردا من الجنة وتفرقا وتاها في الأرض مائة وعشرين عاما خلالها كان كل منهما يبحث عن الآخر بلا جدوى . وأخيراً تقابلا وتعارفا على جبل عرفات حيث احتفلا بهذا اليوم السعيد . ومن هذا اشتق الجبل اسمه (جناب) .

ضربوا له قبة بمكان مجاور لعرفة يسمى نمرة . فنزل بها قليلاً حتى زالت الشمس عن وسط السماء، فأمر بالقصواء (ناقته) فرحلت له فركبها وأتى بطن الوادى] .

فخطب فى الناس وعلّمهم كل هذه المناسك ثم أستأنف طريقه[إلى الموقف فى أسفل جبل الرحمة بعرفات فوقف] حتى غربت الشمس واختفى قرصها .ثم قصد المزدلفة التى تقع بين جبل عرفات ووادى منى وصلى المغرب والعشاء . ثم بات يفترش الأرض . فلما أسفر النهار صلى الفجر ، وذهب إلى المشعر الحرام حيث ظل واقفاً حتى قبيل شروق الشمس . ثم أسرع خطاه ونزل وادى محسر [وهو واد قريب من المزدلفة فى الطريق إلى منى] وفى منى أخذ سبع جمرات ورجم بها الشيطان [أى جمرة العقبة وتسمى الجمرة الكبرى ـ سماها الكاتب بلغة العامة جمرة الشيطان] وهو يقول « الله أكبر .. ألخ وبعد أن أتم هذه المناسك ذهب إلى المنحر حيث وعظ الناس ثم ذبح ثلاثاً وستين ذبيحة بيده شكراً لله على سنى عمره [؟!] وكلف عليّا الذى وصل مؤخراً من اليمن ـ بأن يتولى ذبح باقى الهدى الذى بلغ المائة . ثم أعتق ثلاثاً وستين رقبة .[؟!] .

[تعقيب]

[لم يرد ذكر العتقاء فى الطبقات أو الأنوار ولا سيرة ابن هشام ... وربما أراد الكاتب أن يحبك خياله الذى جعله يتصور ذبح ٦٣ من الهدى مقابل ٦٣ سنة من عمره .]

ثم حلق رأسه وألقى بشعره. (١) فأخذه الناس بحرص وعناية . عندئذ نزلت هذه الكلمات الخالدة من السماء (٢) ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم (٣) وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا (٤) ﴾ ولما ذبح الهدى كله أكل المسلمون من لحمه وضرب لهم النبى ، المثل وتناول وجبته أمام الناس ولم يقبل سوى عليّ على مائدته [؟!]

---

(١) أسرع خالد وأخذه وربطه فى عمامته ونسب إليه فضل كل الانتصارات التى حققها فيما بعد. . [وهذه خرافة لم تذكر فى كتاب له قيمة علمية عند المسلمين . وذكرها الكاتب ليعطى للنصارى صورة خاطئة عن الفكر الإسلامى . وقد نقلها عنه العقاد فى أسطورة ذكرها في عبقرية خالد ص ٢٤٤ ط سنة ١٩٧٠.]

(٢) لما نزلت هذه الكلمات من السماء خارت قوى ناقة محمد من ثقل الوحى وجثت على ركبتيها (جناب)

(٣) أبو الفدا ص ١٣١ [١٥٨] وجناب ٢٨١ (٤) القرآن سورة المائدة ، [الآية ٣]

[تعقيب]

[هذا التعبير (لم يقبل سوى علىّ) فهم خاطئ من الكاتب . فالحديث رواه ابن سعد بسنده ، وفى الطبقات ٢ / ١٢٧ . ومع هذا فهو لا يفيد إلا مجرد أن علياً أكل مع النبى . أما عدم السماح لآخرين بالأكل معهما فلا .. بل إن مائة ذبيحة قدمها النبى للحجاج بسخاء نفس وذبحها لهم بيده الشريفة وعاونه صهره علىّ فى هذا .. وما هذا إلا غاية المثل فى التواضع للرعية . ونص الحديث باسناده (أخبرنا محمد بن بكير البرسانى، أخبرنى ابن جريج أخبرنى جعفر بن محمد أنه سمع أباه محمد بن على يحدث أنه سمع جابر بن عبد الله يحدث أن النبى ﷺ أهدى فى حجته مائة بدنه . وأمر من كل بدنة بمضغة فجعلت فى قدرة فأكلا من لحمها وشربا من المرق . قلت من الذى أكل مع النبى ﷺ وشرب المرق ؟ قال جعفر: علىّ ،] .

فلما فرغ من طعامه ذهب إلى الكعبة حيث صلى الظهر . ثم اتجه إلى بئر زمزم وشرب جرعات كثيرة من هذا الماء المعجز وطاف سبع مرات بالبيت الحرام وأتم الحج بالسعى بين الصفا والمروة .

[تصحيح التقويم]

وفى اليوم التاسع صلى على جبل عرفات .(1) وهو المكان المخصص للتوبة والندم ، إحياء لذكرى آدم وحواء اللذين التقيا فيه بعد فراق دام مائة وعشرين عاما .[؟!] .

[تعقيب]

[هذا فهم خاطئ يجرى عليه أهل ملة الكاتب من تخصيص أماكن للتوبة ككرسى الاعتراف . والإسلام لا يربط التوبة بمكان معين . أينما تكونوا فثم وجه الله ، وإن كان لكل مكان وزمان وظاهرة كونية أو اجتماعية دعاء مأثور .]

وفى آخر خطبة ألقاها فى الناس صحح التقويم العربى وأعاده إلى هيئته الأولى . وهو التقويم القمرى . وأضاف ﴿ إن عدة الشهورعند الله اثنا عشرا شهرا فى كتاب الله يوم خلق

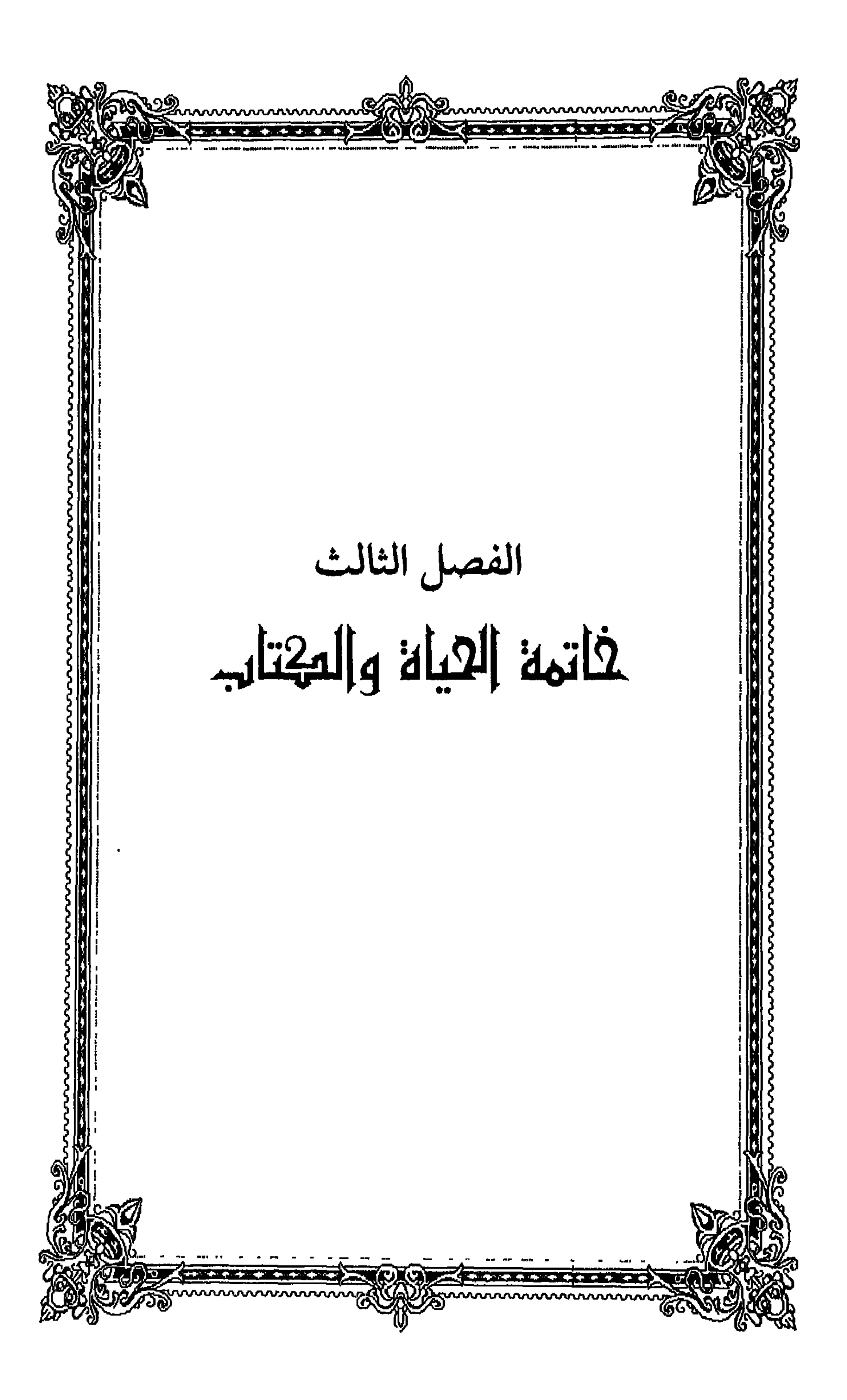
(1) جناب ص ٢٨٢.

السمـوات والأرض منها أربعـة حرم . ذلك الدين الـقيم . فلا تظـلموا فيـهن أنفسكم . وقـاتلوا المشركـين كافـة كمـا يقاتلونكم كـافة . واعلمـوا أن الله مع المتـقين (١) ﴾ وفى ختـام هذه الموعظة ودع الشعب . وسميت هذه الحجة بحجة الوداع (٢)

* * *

(١) القرآن : سورة التوبة .

(٢) الجوزى فى كتاب مناسك الحج [وأبو الفدا ١ / ١٥٨.]



الفصل الثالث

خاتمة الحياة والكتاب

[الفصل الثالث]

[خاتمة الحياة والكتاب]

[فى مرض الموت]

[بعث أسامة إلى فلسطين : الإثنين ٢٦ صفر سنة ١١ هـ]

عام ٦٢٢٦ من هبوط آدم حسب تقدير أبى الفدا - عام ٦٤١ من ميلاد عيسى عام ١١ من الهجرة ـ عام ٦٣ من حياة محمد

كان محمد يعرف أهمية الشعائر الدينية وتأثيرها على الناس . ولهذا فقد أتم أداء فرائضها فى تقوى وخشوع وبساطة . لأنها تغرس فى أذهان الناس فكرة الربانية السامية. وكان المثل قد صاحب المبدأ فى كل مكان . وكان الخشوع الذى صاحب أداءه لكل المناسك قد علّم الشعب تقديس الشعائر الدينية. ولما عاد إلى المدينة كان يفخر بأنه قدم للناس ديناً عظيماً . لقد رأى العرب وقد انضووا تحت قيادة رئيس واحد وقانون واحد وهم الذين قاوموا قوة المصريين وزهو الفرس وكبرياء الروم وهم فى حماية الصحراء القاحلة . وجد نفسه على رأس شعب جديد ألهبته الحماسة وأسكرته الانتصارات . فأخذ يتجهز لمحاربة جبن الروم ورخاوتهم . وكان يمنّى نفسه بأن يحول أمبراطوريتهم إلى الإسلام أو أن تدفع له الجزية . ولكن الموت جاء يهدم هذه الأمانى الجميلة. فانتابه المرض فى شهر صفر ، وفاجأته الحمى وهو عند إحدى زوجاته التى تدعى زينب (١) . وكان لكل زوجة منهن دارها الخاصة التى كان يزورها فيها دورياً. وكان فى اليوم التالى فى دار ميمونة . فاشتد عليه المرض فجمع زوجاته واستأذنهن فى أن يمضى فترة المرض ، فى دار زوجة منهن . فحققن له رغبته طواعية . وجهزن له دار عائشة الودود . وحُمل إلى هناك فى الحال . وقال يا عائشة :[ما زلت أجد ألم الطعام الذى أكلته بخيبر . ما زالت الأكلة تعاودنى . فهذا أوان قطعت أبهرى (٢)].

وكان وهو فى أشد حالات التعب يفكر فى حملة عسكرية . كان شغوفاً أن يحقق بها

---

(١) أبو الفدا ص ١٣٣ ـ [١ / ١٥٩] جناب ص ٢٨٤.

(٢) [الأبهر عرق مستبطن يتصل بالقلب فإذا انقطع مات صاحبه . ولهذا عد النبى شهيدا وفى البخارى مثل هذا الحديث ٦ / ١١].

النصر ، إذ لم يكن قد انتقم لزيد بعد . وكان يحتاج إلى أنهار من الدماء [؟!] حتى تهدأ روح الصديق . فطلب ابنه أسامة وأمره بغزو فلسطين على رأس قوة من الفرسان . وأن يخرب كل البلاد [؟!] ابتداء من البلقاء والداروم(١) إلى أبنى(٢) ـ حيث سقط زيد(٣) ـ ولم يكن هذا القائد يتجاوز العشرين من عمره. ولكنه كان عليه أن ينتقم لأبيه . ولم يتردد محمد في أن يسلمه قيادة الجيش . ورغم اشتداد نوبات الحمى عليه ، فقد كان يتابع تجهيزات الحملة .

وفي اليوم التالي أمر باحضار الراية إليه فسلمها إلى القائد الشاب . وقال له « احمل السلاح وقاتل في سبيل الله وأعلنها حرباً مقدسة واضرب أعناق المشركين » [الذي جاء في الطبقات ١٢٦/٢ سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل . قد وليتك هذا الجيش فأغر صباحا على أهل أبنى وحرّق عليهم ، وأسرع السير تسبق الأخبار . فإن ظفّرك الله ، فاقلل اللبث فيهم ، وخذ معك الأدلاء . وقدم العيون والطلائع أمامك] .

[فالأمر إذن حملة للتأديب وليست للاستعمار والاستغلال بدليل قوله : « فإن ظفّرك الله فاقلل اللبث فيهم » والنص الذي تعمد الكاتب إهمال ذكره بتمامه ، صفحة مشرقة في البرهان على المستوى الرفيع للثقافة الإسلامية والعسكرية التي تصدر عن أميّ علّمه الله فوق ما تتعلمه المستويات الأكاديمية .]

وتحرك أسامة وعسكر بالجرف (٤) على مسافة من المدينة . ولما علم باشتداد وطأة المرض على النبي توقف هناك . ولقد أدت وفاة النبي الى تأجيل هذه الحملة إلى شهر ربيع ، وعندئذ حمل أسامة الحديد والنار إلى الشام بأمر من أبي بكر وقتل بيده قاتل أبيه.

[ثورة الأسود العنسي : صفر سنة ١١ هـ]

[هو عيهلة بن كعب العنسي من قبيلة عنسي بصنعاء ويقال له ذو الخمار] وبينما كان محمد يتلوى من شدة الألم حمل إليه خبر ثورة الأسود ، ويدعى عهيلة (المتقلب).(٥) كان نسبه وعقله قد أكسباه منزلة كبيرة بين عرب اليمن.. وبعد أن مات بدهان عامل محمد ،

(١) [قلعة بفلسطين بعد غزة للقاصد إلي مصر]   (٢) [أبني: هي أرض السراة ناحية البلقاء الغربية من دمشق].
(٣) موسى بن عقبة .
(٤) [الجرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام كانت به أموال لعمر بن الخطاب ولأهل المدينة].
(٥) جناب [وسمي الاسود لأنه كالثعبان في تقلبه ، فالأسود يطلق في اللغة على الثعبان حقيقة وعلى الماكر والخبيث مجازاً].

حمل الأسود لواء الثورة وقتل ابن بدهان واستولى على مقاليد الحكم (١) ولقد كان عرّافاً ماهراً وساحراً مدرباً فادعى أنه نبى يحمل إليه (٢) ملكان الوحى الإلهى. وبينما كان يفرض سلطانه على نفوس الناس بمظاهر فظة، كان يخضع القبائل المختلفة بقوة السلاح . وكانت انتصـــاراته الأولى متألقة ولكن نبى المؤمنين اتخذ تدابير حكيمة لوقف حركته فكتب إلى أنصاره[من بنى تميم وقيس] وإلى فيروز الذى كان الأسود قد قتل عمه [أن ينهضوا لقتال الأسود فنهض] فيروز فقتله وعاد حكم اليمن إلى سلطان محمد(٣) .

كان المرض يزداد خطراً يوماً بعد يوم والمسلمون يرتعدون خوفاً على حياة نبيهم. وجاءت فاطمة تعوده وتقدمت فاخترقت اليه وسط الحجرة فى وقار يليق بينت النبى . ولما رآها محمد تقترب من فراشه مال إليها وقال لها : « مرحبا يا ابنتى » وأجلسها إلى جواره وهمس فى أذنها(٤) [إن جبريل كان يعرض علىّ القرآن كل عام مرة وأنه عرضه علىّ العام مرتين وما أظن إلا أننى ميت من مرضى هذا] . فانفجرت فاطمة فى البكاء . ولما لاحظ محمد التأثر العميق الذى أحدثه فى قلبها حاول مواساتها فأضاف [ما يسرك أنك سيدة نساء أهل الجنة، ما عدا مريم بنت عمران] [ولفظ البخارى عن فاطمة: فاخبرنى أنى أول أهله يتبعه فضحكت] فابتسمت فاطمة ولكن ألمها كان لا يزال عظيماً. ولقد لحقت بأبيها بعد فترة وجيزة (٥)

[الاستبراء من حقوق الآخرين]

ونهض محمد فى ذلك اليوم مستندا على ذراع الفضل وعلىّ وذهب إلى المسجد وصعد المنبر . فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :(٦) [إنه قد دنا منى حقوق من بين أظهركم - أى

(١) [فى الطبرى أن جيش الأسود أخرج عمرو بن حرام وخالد بن سعيد بن العاص ووثب قيس بن يغوث على (فروة بن مسيك) وكان واليا على(مراد) فأجلوه ونزل منزله].

(٢) اسم هذين الملكين سهيق وشريق . وكان الأول قد باع إليه حمارا مدرباً على آلاف من حركات المرونة الجسدية . وأما الثانى فكان يخرج له أشباحاً عجيبية وأطيافاً تذهل الناس . وهكذا كان الكاهن الأسود يؤثر على العقول الساذجة [انظر الطبرى ٣ / ١٨٦ ، ١٨٧ وفيه أن طليحة بن خويلد الأسدى بعث حبال ابن أخيه إلى النبى يطلب الموادعة وزعم أنه يأتيـــه ملك اسمـــه ذو النون].

(٣) [البخارى ج٥ ص ٢١٧ والطبرى ٣ / ١٨٥ وأبو الفدا ص ١٦٣ ، ١٦٤ .]

(٤) البخارى جـ ٧٦ باب مرض النبى ، وإرشاد السارى جـ ٦ ص ٤٦٣ - ٤٦٤]

(٥) [الطبقات ٢ / ٤٠ الدرر ٢٨٦ والبخارى باب علامات النبوة وإرشاد السارى ٦ / ٤٦٤] .

(٦) أبو الفدا ص ١٣٤ [١٥٩ والطبقات ٢ / ٤٥] .

اقترب أداء حقوق عليّ لأفراد يجب أن أؤديها وأنا حي ـ وإنما أنا بشر. فأيما رجل كنت أصبت من عرضه شيئاً فهذا عرضي فليقتص ، وأيما رجل كنت أصبت من بشره شيئاً فهذا بشرِي فليقتص ، وأيما رجل كنت أصبت من ماله شيئا فهذا مالي فليأخذ. واعلموا أن أولاكم بي رجل كان له من ذلك شئ فأخذه أو حللني . فلقيت ربي وأنا محلل لي . ولا يقولن رجل أني أخاف العداوة والشحناء من رسول الله . فإنهما ليستا من طبيعتي ولا من خلقي . ومن غلبته نفسه على شئ فليستعن بي حتى أدعو له (١)] ثم نزل عن المنبر وصلى الظهر . فلما فرغ من الصلاة جاءه رجل يطالبه بثلاثة دراهم كانت تستحق له. فأعطاها إياه مضافا إليها الفائدة [؟!] [الحديث في الطبقات . ولم يذكر الفائدة التي حرمها الله ورسوله . ولم يذكرها المستشرق كازيميرسكي في المقدمة التاريخية التي يكتبها بين يدي ترجمته معاني القرآن الكريم (٢)]

ثم قال « إن عار هذه الدنيا أكثر احتمالا من عار الآخرة . وإن عبداً من عباد الله خيره الله بين هذه الحياة وبين الحياة الخالدة ، فاختار الحياة الخالدة » . ثم قرب إليه الأنصار ـ هؤلاء الأصحاب الشجعان والحراس المخلصين الذين آووه بكرم ، ونصروه ببطولة ـ وأفضى إليهم برغباته الأخيرة قائلاً : « اطردوا جميع المشركين من الجزيرة العربية . وامنحوا المسلمين الجدد كل الحقوق التي يتمتع بها المسلمون وحافظوا على الصلاة (٣) » وروعيت هذه الأوامر بكل دقة باعتبارها المواد الجوهرية لوصية النبي . ولا يسمح بأي دين آخر داخل الجزيرة العربية غير الاسلام . ويتمتع الأتباع الجدد بنفس امتيازات الأتراك [يعني المسلمين] ويصلون في الباب العثماني إلى المناصب الأولى في الدولة [التعبير بالمسلمين الجدد تحريف خاطئ للنص العربي (وما ملكت أيمانكم ، فأحسنوا إليهم) ونص البخاري فيما يرويه سعيد بن جبير عن ابن عباس : « وقال ائتوني أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا ، فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي تنازع . فقالوا : ما شأنه ؟ أهجر؟ استفهموه . فذهبوا يردون عليه . فقال : «دعوني .. فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه » ، وأوصاهم بثلاث قال : « أخرجوا

(١) [وقد زاد الطبري (وقد أرى أن هذا غير مغن عني حتى أقوم فيكم مرارا) وانظر الطبقات جـ ٢ ص ٤٥ والطبري ج ٣ ص ١٨٩ : ١٩٠ وقريب من هذا رواه أبو الفدا ج ١ ص ١٥٩] .
(٢) [خاتم النبيين في نظر المستشرقين ص: ٨٢] البخاري [جـ ٦ باب مرض النبي ﷺ وارشاد الساري ٦/٤٧٣]
(٣) البخاري [جـ ٦/ ١٣ باب مرض النبي وإرشاد الساري ج ٦ ص ٤٤٦ .]

المشركين من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم (أكافئهم) ، وسكت ابن عباس عن الثالثة أو قال (فنسيتها) البخارى ٦ / ١] .

أما الصلاة، فإن تقوى المسلمين والخشوع العميق الذى يبدونه فى معابدهم ، توضح أنهم مؤمنون بكائن أعظم . واختتم محمد خطابه بأن لعن اليهود الذين يرجع إلى غدرهم الموت الذى يحمله بين ضلوعه ، وصاح قائلاً « لعن الله اليهود [والنصاري] اتخذوا قبور أنبيائهم مساجداً (١) » .

[استخلاف أبى بكر فى الصلاة]

وكان من الأعمال التى اختتم بها حياته أن أعتق كل عبيده (٢) وكان كلما شعر أن به من القوة ما يعينه على الذهاب إلى المسجد شهد صلاة الجماعة. ولما أقعده المرض ، كلف أبا بكر أن يقوم بهذه المهمة نيابة عنه .

[شعائر الجنازة]

وكان ينظر إلى الموت يدنو منه وهو غير هياب . فيتحدث مع ذويه فى هدوء وسكينة عن ترتيبات الجنازة . وذات يوم وأهله يحيطون بفراشه يبكون ، سأله أحدهم : يا رسول الله إذا ألمّ بنا الخطب وفقدناك فمن سيصلى عليك ؟ فرد عليه وقال : سأقول لكم وعندئذ انهمرت الدموع من كل العيون . وبالرغم منه تساقطت دموعه فمسحها ثم استرسل قائلاً (٣) [مهلاً رحمكم الله ! وجزاكم عن نبيكم خيراً ! إذا أنتم غسلتمونى وكفنتمونى ، فضعونى على سريرى هذا ، على شفة قبرى فى بيتى هذا ، ثم اخرجوا عنى ساعة. فإن أول من يصلى علىّ حبيبى وخليلى جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت ومعه جنوده من الملائكه بأجمعهم . ثم ادخلوا فوجاً فوجاً فصلوا على وسلموا تسليماً ، ولا تؤذونى بتزكية ولا برنة (عويل) . وليبتدئ بالصلاة علىّ رجال أهلى ثم نساؤهم ثم أنتم بعد

---

(١) [حذف الكاتب لفظ (والنصارى) جرياً على رواية ابن عبد البر ص ٢٨٦ والبخارى ٦ / ١٣ والزيادة فى الطبقات ٢ /٤٧ القسم الثانى وفى البخارى٦/ ١٤ وزيادة الثقة ثقة وكذا فى ارشاد السارى٦/٤٦٧].

(٢) البخارى باب مرض النبى – وارشاد السارى ج ٦ / ٤٧٣

(٣) جناب والطبرى (ج٣-١٩١ : ١٩٢ والطبقات ٢ / ٤٦-٤٧ القسم الثانى وابو الفدا : ١٥٩ والبخارى وإرشاد السارى بشرح صحيح البخارى ٦ / ٤٦٣] .

واقرءوا السلام على من غاب من أصحابي. واقرءوا السلام على من تبعني على ديني من قومي . هذا إلى يوم القيامة (بلفظ الطبقات)] وسوف يلبس أهلي الحداد ويتبعهم المسلمون [؟!].أما أنتم يا من تحيطون بفراشي فإني أقرئكم السلام . قالوا [ومن يدخلك قبرك؟] قال : [أهلي مع ملائكة كثيرين يرونكم من حيث لا ترونهم] [ينسج سفاري من خياله زيادة على ما روته كتب السيرة. وهي زيادة منكرة أشد النكران فيقول: «وسوف يلبس أهلي الحداد ويتبعهم المسلمون» وهذا أمر منهي عنه في الشريعة ثم أضاف كذلك « أما أنتم يا من تحيطون بفراشي فإني أقرئكم السلام » وفيه ذكر مزية لهم ينفيها روح التعميم في قوله « واقرأوا السلام على من غاب من أصحابي : واقرءوا السلام على من تبعني على ديني من قومي . هذا إلى يوم القيامة »

[الكتاب الذى أراد النبى أن يكتبه لأمته]

وهكذا كان محمد وهو يصارع سكرات الموت يتمسك حتى آخر لحظة بأداء دور[؟!] النبي الذى بدأه وهو فى الأربعين من عمره [هكذا يكفر سفارى بالنبوة] وهكذا كان محمد مسيطراً على نفسه وهو فى أقسى حالات الألم - كما كان كذلك وسط المعمعة ولقد أدى آخر مشهد الحياة الانسانية وهو فى حضور ذهني مثير للدهشة . وكانت كل كلمة من كلماته مفصلة بقدر الفكرة التى كان يريد أن يضعها فى ذهن الناس عنه [؟!] . وفى هذه اللحظات - حيث يتزايد الضعف الانسانى للمرء وهو فى يد الموت الرهيب - كان محمد يستجمع قواه الذهنية لكى لا ينطق بأى شئ لا يليق بالمظهر الوقور الذى طبعه فى الأذهان [؟!] ولم يغب ذهنه فى الخيال إلا لحظة وحيدة تحت تأثير الآلام المروعة إذ قال :« ايتونى بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً» (١) فقال حكماء الحاضرين : ان رسول الله يهجز. ألسنا معنا كتاب الله ؟ وهو حسبنا . بينما أراد آخرون أن يحققوا له رغبته. واختلف الفريقان بشدة حتى أفاق من الجلبة فقال للحاضرين : « قوموا ما ينبغى أن يكون بين يدى النبى تنازع ».

---

(١) أبو الفداص ١٠٢ و ١٣٦ [١٥٩ - ١٦٠ والبخارى ٦ / ١١ : ١٢] .

[دخول ملك الموت]

وكان المريض . يستقبل زواراً عديدين . فآل بيته وأشراف المدينة كانوا يتوافدون على داره. ولقد ضايقه [؟!] هذا التزاحم ولما شعر أن رأسه قد استولى عليها الضعف ، تصنّع [؟!] أنه منهمك فى أفكار الخلود ومنع دخول أحد عليه . ولما كان واثقا من شعور عائشة، فقد كان خوفه من ظهور أى ضعف أمامها أقل . ولهذا فإننا لم نتعرف على وصف آخر ملابسات حياته إلا عن طريق هذه الزوجة الوفية . وفيما يلى أهم الروايات : « فى الأيام الثلاثة الأخيرة من مرضه . كان جبريل يعوده مرات عديدة (١) . وكان يسأل ودياً عن أنباء صحته . وفى يوم الإثنين الذى اختتم فيه رسالته – حضر ملك الموت الى الباب فلاحظه جبريل، وقال لصاحبه : « ها هو ذا ملك الموت (٢) يستأذن عليك [ولم يستأذن على آدمى كان قبلك ، ولا يستأذن على آدمى بعدك] إنك أول من أقيم له هذا الاعتبار، وسوف لا يقام لأحد بعدك . قال محمد : « دعه يدخل » . فدخل الرسول الرهيب ، ولكنه تخلى عن مظهره المخيف . وقال له : « يا رسول الله ! يا أحمد ! لقد أرسلنى الله إليك ! وأمرنى أن أطيعك فى كل ما تأمرنى . وسواء أمرتنى بأن أقبض روحك أو أمرتنى بأن أتركها فسأطيعك . فقال محمد:« خذها » فقال جبريل : « طالما أنها رغبتك فإن الله يطلبك إلى جواره بشغف . أما ما يختص بشأنى أنا فها هى ذى آخر مرة أضع فيها أقدامى على الأرض .. اننى أطير إلى الأبد عن هذا العالم » . وفى لحظة أتم ملك الموت(٣) مهمته الرهيبة .

[هذا الذى ذكره رواه ابن سعد فى الطبقات عن أنس بن عياض أبى ضمرة الليثى . قال حدثونا عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : (الحديث) . فهو بهذا حديث منكر ومنقطع . وقول أبى ضمرة (حدثونا) دون أن يبين من هم الذين حدثوه أموثوق بهم أم وضّاعون ؟ مظهر لانقطاع الحديث وعدم صلاحيته للاحتجاج به . كما قال رجال الحديث . وقول « سفارى » عن الرسول (ضايقه هذا التزاحم وتصنّع أنه ينهمك

---

(١) السهيلى (والطبقات ٢ / ٤٨ القسم الثانى ، وقد توفى ١٣ ربيع الأول سنة ١١ هـ ٨ يونيه سنة ٦٣٢م]

(٢) نفس المرجع

(٣) ورد في القرآن ذكر هذا الملك ذى الوجه المرعب : ﴿ يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ سورة السجدة الآية ١١ .

فى افكار الخلود) تصوير لحال سفارى وأمثاله . أما أصحاب المثل العليا والاجتماعيون الذين يكرهون الإنطواء فيكون هذا التزاحم سببا من أسباب الترويح عن نفوسهم . وحجب الزوار عنهم هو سبب الضيق . أشعر أنا بهذا وأعرفه عن أمثالى من المشتغلين بالمجتمع ..]

لم يكن كل هذا الحديث بلا أساس . فقد كان محمد ـ وهو يحافظ دائماً على مظهره الوقور ـ يريد أن يؤكد ما سبق أن كرره . وهو أن الله قبل أن يقبض إليه نبيًّا من هذه الدنيا ، كان يريه المكان الذى خصصه له فى العالم الآخر . وكان يترك له الخيار بين الأمرين . وتعلمنا عائشة هذا وهى الأمينة على كلماته ـ وهى تقول :« لما جاءته سكرات الموت كنت جالسة بالقرب منه ، وكانت رأسه فى حجرى. فأغمى عليه . ولكنه سرعان ما أفاق . وفتح عينيه ثم شخّص بصره الى سقف البيت ، وثبت جفونه لا تطرف ، ثم سمعته يقول بصوت خافت « بل الرفيق الأعلى » فأدركت أنه اختار دار الخلود – وتمزق قلبى من الألم . فأمسكت بيده وضغطت عليها وسمعته يردد هذه الآية ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية أدم وممن حملنا مع نوح . ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا . اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدوا وبكياً﴾ (١) ولقد أسلم روحه وهو ينطق بهذه الكلمات . وتضيف عائشة : «عندئذ وضعت رأسه على وسادة وقمت أضرب صدرى ، ووجهى وأصرخ . وشاركتنى زوجاته الأخريات فى الحزن وملأن الجو عويلا وشققن ملابسهن .»

[تناقض الكاتب]

[الكاتب يتناقض مع نفسه . فهو فى حديثه عن «الاستبراء من حقوق الآخرين» ، ذكر أن وصاياه ﷺ روعيت بكل دقة بألا يكون عويل أو شق للجيوب . وإنما أراد الكاتب ابراز البيت النبوى وأمهات المؤمنين فى صورة الذين يتجرون بالأديان ، ويقولون مالا يفعلون . فافترى ما قاله معتمدا على حديث منكر أخرجه ابن سعد عن عبد الله بن عبد الرحمن بن يحنس عن زيد بن أبى عتاب عن عروة عن عائشة (جـ٢ القسم الثانى ص٥٠) قالت : «ثم قمت مع النساء أصيح والتدم ولم تذكر شق الملابس]

(١) القرآن – سورة مريم [الآية ٥٨ .]

[آثار نعي النبي في المسلمين]

وما أن انتشر خبر وفاته في المدينة حتى ارتفع صوت جماعي : مات النبي (١) وساد الوجوم . وذهل الناس. ورفع بعضهم أعينهم الحائرة إلى السماء . أما البعض الآخر فأخذوا يصرخون وكأنهم مصابون بتشنجات . فهؤلاء قد سيطر عليهم الصمت من شدة الحزن . وأولئك هزمهم الدوار فأخذوا يتدحرجون على الأرض [وهل هذا يمكن حدوثه ممن أصاب رأسه الدوار ؟] أما الدهماء فلم تستطع أن تتصور أنها فقدت نبيها إلى الأبد. فأسرعت أفواجا إلى باب الدار. وأما أكثر الناس تطرفا فصاحوا : « إنه لم يمت وإنما هو في غيبوبة ». واندفع عمر بحماسة وتبنى هذا الرأى فقال : « لا إنه لم يمت . وانما ذهب للقاء ربه.كما ذهب موسى وغاب عن قومه أربعين ليلة » وهدد بقتل من يزعم أنه مات . وكان هذا القول يتفق مع اعتقاد الغالبية العظمى من الناس [أليس الأولى أن يقال : لو كان اعتقاد الغالبية هكذا لما احتاج عمر إلى نشر تهديداته ؟!] وبمراجعة صحيح البخارى الذى نقل عنه سفارى لم نجد هذه الصورة الخيالية من تشنجات وغيرها. ونص الحديث عن ابن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس . فقال : «اجلس يا عمر» . فأبى عمر أن يجلس . فأقبل الناس إليه ، وتركوا عمر. فقال أبو بكر : «أما بعد ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات . ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت . قال الله ﴿ وما محمد إلا رسول ... إلى قوله ... الشاكرين ﴾ -(ابن هشام ٤/٣١١ ط القاهرة سنة ١٣٥٥ هـ ١٩٣٦ م وتهذيب السيرة ص ٥٣٨ - ٥٤٠] .

فزاد قول عمر اضطرام الفوضى، واحتاج أبو بكر إلى كل قوته وتأثيره لكى يهدئ هذه العاصفة، فاندفع وسط جموع الناس وخطب فيهم :« أنتم يا من تطلقون الأيمان بلا تمييز، انصتوا فى هدوء . عندئذ جلس عمر. (٢) وبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال : «أيها المسلمون إذا كان توقيركم لمحمد قد جعلكم تظنون أنه خالد لن يموت ، فقد وقعتم فى الخطأ . لقد مات محمد . والله وحده حىّ لا يموت . ولقد أوحى الله لنبيه هذا القانون الذى يجب أن يبدد كل شك . اذ قال﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ (٣) وقال فى آية أخرى ﴿ وما محمد إلا رسول

---

(١) السهيلى

(٢) البخارى [٦/ ١٧ وارشاد السارى ٦/ ٤٧٠]

(٣) القرآن سورة الزمر [الآية : ٣٠]

قد خلت من قبله الرسل . أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟﴾(١) حققت هذه الكلمات المستمدة من القرآن الاقناع المطلوب ، وحل الصخب والضجيج محل الدموع والعويل . وآمن الناس جميعاً أن محمداً قد مات .

[انتخاب أبى بكر]

وبعد أن هدأ الناس اتخذت الترتيبات لانتخاب من يخلفه[صلى الله عليه وسلم] وهنا وقعت مناقشات عنيفة بين الأطراف . وكان عليّ ـ الذى عينه محمد بنفسه خليفة، وهو زوج ابنته وابن عمه – أحق من غيره بهذا الشرف العظيم . ولكن شبابه ودسائس عائشة[؟!] أدت إلى استبعاده ، وتغلب أبو بكر وبويع خليفة . واعترف المسلمون بخلافته وبايعوه على السمع والطاعة. وبعد أن تسلم مقاليد الحكم ، كانت أولى مهامه أن يؤدى آخر الواجبات نحو النبى. وكان قد مضى على موته ثلاثة أيام ، وبدأ التورم [؟!] يظهر عليه [لم يثبت هذا إنما دسه الكاتب للطعن فى المأثور من إن أجسام الأنبياء لا تأكلها الأرض .]

وقام عمه العباس بإقامة خيمة داخل الحجرة ووضع الجسد فى وسطها (٢) ثم دعا علياً وولديه الفضل وقثم [ابني العباس] إلى داخلها، وكذلك دعا أسامة [حب رسول الله] وشقران خادمه . وأخذوا يغسلون الجسد (٣) وعليه قميص وبردة – هى التى عصروها ليجففوها – ثم عطروه بالكافور ومسحوا بالعطور الأعضاء التى تلامس الأرض عند السجود فى الصلاة . ثم اختتموا هذا العمل بالوضوء المقدس ـ وهو غسل الوجه والذراعين واليدين ـ والرجلين ثم كفنوه فى ثوبين أبيض وبرده مخططه. وحرقوا حوله البخور وضمخوه بالعنبر والمسك والصبر.وما أن تم وضع الجسد فى التابوت[؟!]حتى تركوه معرضا لانظار الناس[؟!]

[قول سفارى (تركوه معرضا لأنظار الناس) هو من خياله . وأراد بهذا تبرير العادة التى عليها المسيحيون والوثنيون اليوم . وقد سقط د . هيكل فى شراك هذا الفهم الخاطئ. فقال « وفتحت الأبواب للمسلمين يدخلون من ناحية المسجد يطوفون يلقون

(١) القرآن سورة آل عمران [ومن ينقلب علي عقبيه ، فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين]
(٢) مؤلف كتاب El chasa [والطبرى ٣ / ٢١١) والطبقات ٢/ ٦٧ : ٦٨ القسم الثانى .]
(٣) [قثم اشترك في نزول القبر وليس فى الغسل . قرر ابن سعد هذا فى الطبقات ج ٢ قسم ثان ص ٧٠ وص ٦١ . كما ذكر ابن سعد أن خادم النبى هو صالح مولى رسول الله ثم قال : ان شقران وأسامة والعباس كانوا يصبون الماء . وفى رواية زيادة «أوس بن خولى» فيمن كانوا عند الغسل وأنه دخل فجلس]

على نبيهم نظرة الوداع » . وأما ما ذكرته كتب السيرة فهو كقول سعيد بن المسيب «ولما توفى رسول الله ﷺ وضع على سريره . فكان الناس يدخلون عليه زمراً زمراً يصلون عليه ويخرجون ولم يؤمهم أحد (١) .»] .

[الصلاة على جثمان النبى]

وكان أول من صلى عليه هم بنو هاشم . وقد صاحبهم العباس . ثم جاء المهاجرون والأنصار يؤدون آخر واجبهم تجاهه ، وتبعهم أشراف الناس بالمدينة ، وذهب الشعب جماعات حول تابوته [؟!] وصلوا بنظام وخشوع (٢) والدموع . تنهمر من كل العيون ولم يسمع عويل أو أنين . كان احترامهم لرغبات النبى الأخيرة قد كبحت من حزن الجماهير[قول (الكاتب حول تابوته) تصور مسيحى يقحمه على السيرة إقحاماً . فما دفن النبى فى تابوت .]

[الدفن]

ولما حان وقت دفن التابوت [؟!] نشبت منازعات خطيرة (٣) اذ أراد المهاجرون أن ينقل رفاته الى مكة وأن يدفن فى وطنه (٤) وتمسك الأنصار بأن يبقى فى المدينة ما دامت هذه المدينة كانت مأواه من الاضطهاد . وكان رأى فريق آخر أن ينقل إلى أورشليم حيث مثوى الأنبياء . فحسم أبو بكر هذه الخلافات عندما نقل لهم هذه الكلمات التى سمعها من فم النبى

---

(١) [الطبقات الكبرى لابن سعد الجزء الثانى : القسم الثانى ص ٦٨ : ٦٩ وحياة محمد للدكتور هيكل ص ٤٩٤ ط ثانية]

(٢) [الطبقات الكبرى ج ٢ القسم الثانى ص ٦٩ .]

(٣) لقد دفعت هذه المنازعات بعض الكتاب الذين لا يراعون الدقة فى كتاباتهم بحثا عن الحقيقة إلى القول بأن محمدا قد دفن بمكة أما الرأى المبتذل الذى يقول بأن جسده موضوع فى تابوت من الحديد ومعلق فى الهواء بفضل أحجار مغنطيسية مشدودة بسقف الكعبة . فيرجع مصدره إلى بعض الجغرافيين الذين لم يسافروا ولم يخرجوا من بيوتهم . فكلا الرأيين قد كذبه الكتاب الذين ذهبوا الى المكان (انظر جناب وأبى الفدا [ص ١٦٠] وأبو الفرج ولقد أكد لى الأتراك الذين رأيتهم بمصر صدق الوصف الذى قدمته بناء على شهادة هؤلاء الكتاب . ولما كنت أقص عليهم الأساطير التى ننسجها من خيالنا حول شخصية نبيهم ، كانوا لا يتمالكون أنفسهم من الضحك على سذاجتنا [.هذا اعتراف وإقرار من المؤلف يكشف لنا جانباً مما يروجه في البيئة الفرنسية أمثاله من المغرضين من أباطيل وأكاذيب حول رسولنا العظيم ، تفتقر كلها إلي أي سند من عقل أو نقل . وهي لا تروق للمؤلف لأنها تتجاوز الحدود ممايجعلها عرضة للرفض والنبذ من عقلاء الناس . ولهذا فهو يرفضها هنا ولكنه يحاول إثبات غيرها ولكن بأسلوب هادىء إلا أنه أشد خبثا وأكثر خداعا بقصد أن تكون أكثر قبولا لدي أكثر الناس . وذلك إمعانا في الإضلال والضليل والصد عن سبيل الله .المترجم]

(٤) أبو الفدا [فى باب وفاة الرسول ص ٢٥٩ - ١٦٠ لم يرو أبو الفدا ما نسبه اليه سفارى].

[ما مات نبى إلا دفن حيث يقبض] . قامت هذه الكلمات مكان القانون . وحفرت الأرض فى المكان الذى اختتم فيه رسالته النبوية. وأنزل التابوت [؟!] فى الحفرة (١) ودخل فى القبر كل من على والفضل وقثم [ابني العباس] وسقوا رفات نبيهم بدموعهم للمرة الأخيرة . وغطى الجسم بالتراب وانسحب الناس .

[رثاء فاطمة لأبيها]

ولما انصرف الناس ، جاء ت فاطمة بنت محمد المحبوبة ، وأخذت تبكى على قبره.(٢) وتردد بنحيب « يا أبتاه ! يا رسول الله ! يا نبى الرحمن ! أهكذا انتهى كل شئ ؟ لقد دفن الوحى الإلهى معك . وعاد الملك جبريل إلى السماء إلى الأبد . اللهم حقق أمنياتى الأخيرة وأسرع فى إلحاق روحى بروحه . وأرنى وجهه ولا تحرمنى أجره ولا شفاعته يوم القيامة .» ثم أخذت حفنة من تراب القبر وشمتها . وأضافت تقول : «حين نشم رائحة تراب قبره ، هل يوجد بين أزكى العطور ما هو أطيب من رائحته؟ واحسرتاه ! كل المشاعر الجميلة قد انطفأت فى قلبى والسحب التى رفعها الحزن من حولى سوف تحيل أجمل الأيام إلى ليل دامس (٣). » ولقد تحققت أمنية فاطمة ولم تعش بعد أبيها سوي شهور.

[رثاء صفية بنت عبد المطلب]

أما عائشة فقد أغلقت على نفسها حجرتها وأسلمت نفسها للبكاء والأحزان .وفى وسط هذا الحزن الشامل ، جاءت صفيةعمة محمد – وقد كانت قوية الروح – وأخذت تواسى الأسرة بهذا الرثاء (٤)

« يا رسول الله ! إنك حتى وأنت فى قبرك معقد الآمال الغالية . لقد عشت بيننا طاهراً ونقياً وعادلا . وكان الناس يجدون فيك الهداية الحكيمة والمستنيرة . فليبْك عليك كل من يستطيع أن يزرف الدموع الغالية .

« أما أنا فإنى أقسم بالسعادة التى يتمتع بها أن لا يسلمنى الحزن الذى ألم بى لفراق النبى للبكاء على قبره . ماذا نخشى من غيابه عنا ؟ هل سيوقف الله عنا تدفق نعمه ؟ كلا إنه سيزيد

(١) أبو الفداء ص ١٤١ [١٦٠] . (٢) [الطبقات الكبرى جـ ٢ القسم الثانى ص ٧١]
(٣) جناب ص ٣٠٤ [والطبقات بمعنى بعضه ص ٨٣ قسم ثان .]
(٤) جناب ص ٣٠٤ [والطبقات الكبرى / ٢٨ القسم الثانى ص ٩٦ .]

من عطائه لنا بشفاعته، وسأقضى بقية حياتى فى المدينة إلى جوار قبره فى سلام وبلا خوف فى هذا المأوى الأمين . يا رسول الله فليمنحك الله السلام الرحب ، وأنت فى دار النعيم تتذوق السعادة الدائمة للفلاح الخالد» .

[وصف الرسول]

[أ ـ صفة الرسول الخلْقِية]

لقد اعتاد الكتاب العرب أن يصوروا لنا نبيهم محاطا بصفات الكمال العقلى والجسمانى . ولكن أبا الفدا ـ أكثرهم حكمة وأقلهم تحيزاً ـ قد ترك لنا هذه الصورة التى رسمها علىّ بيده: «لقد كان محمد ذا قامة متوسطة. وكان رأسه كبيراً ولحيته غزيرة. وكانت راحة يديه [ضخمة لينة] وباطن قدميه خشنة وقوية . وكانت عظامه عريضة ومتماسكة ، وبشرته قرمزية اللون ، وعيناه سوداوين ، ووجنتاه انيقتين وشعره [رجل (مسرح) لا جعد ولا سقط (طويل)] وكانت رقبته بيضاء كالعاج .»

[ب – خصاله]

ويصف لنا نفس المؤلف خصاله الشخصية وفضائله الخلقية على هذا النحو :

« لقد وهبته الطبيعة ذكاء حاداً ، وعقلا راجحا ، وذاكرة فذة (١). وكان قليل الحديث . ويجد سعادته فى السكوت . وكان جبينه دائماً مشرقاً ، وحديثه عذبا ، وطبعه عاديا. وكان عادلا مع الجميع . وسواء أكان الشخص قريبا أو غريبا أو قويا أو ضعيفا ، لم يكن ذلك بقادر على أن يجعل ميزان العدل يميل فى يده . ولم يكن يحتقر الفقير لفقره ، ولا يوقر الغنى لغناه . وكان يستخدم حلاوة حديثه ليكسب قلوب العظماء . وكان يحتفظ بمزاحة لأصدقائه . كان ينصت فى صبر لمن يحدثه ، ولم يكن أول من ينهض واقفا [إيذاناً بانتهاء المقابلة] وإذا صافحه أحد لم يكن يقبض يده إلا بعد صاحبه . وكان دائم الزيارة لأصدقائه فى السلاح [؟!] وكان يسأل عن شئونهم . ولما أصبح فاتح الجزيرة العربية ، كان كثيراً ما يجلس على الأرض ، ويوقد ناره بيده ، ويعد الطعام لضيوفه بيده .»

(١) أبو الفدا ص ١٤٤ [١ / ١٦١]

« بالرغم من امتلاكه لثروات عظيمة، فقد كان ينفقها كلها بسخاء . ولم يكن يبقى لبيته سوى ما هو ضرورى (١) فى بساطة . ويقال إنه فاق الرجال فى أربع خصال : فى الشجاعة وفى السخاء وفى القتال وفى الحيوية فى الزواج . وكان كثيراً ما يقول « إن الله خلق أمرين لسعادة الرجال : النساء والطيب . »

[تعدد زوجاته]

وبناء على القانون الإسلامى الذى أملاه بنفسه[؟!] ، فإنه لا يباح الزواج بأكثر من أربع نساء فى وقت واحد (٢) ولقد تزوج هو خمسة عشرة أمرأة . وبنى على اثنى عشرة منهن . وكان يعتقد أن من شرف النبى ألا يقيد عدد زوجاته شأنه شأن سائر الناس . ولهذا جعل [؟!] السماء تنطق بهذه الكلمات : ﴿ يا أيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك . وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبناتك خالاتك اللاتى هاجرن معك وامرأة مؤمنة [النص الفرنسي وكل امرأة مؤمنة[؟!] إن وهبت نفسها للنبى﴾ (٣). ﴿ قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج . وكان الله غفورا رحيما .﴾

[هذه مغالطة من الكاتب والمعروف أن من بنى عليهن رسول الله إحدى عشرة ، وأنه له أربع سرارى وأنه مات عن تسع فقط ..]

[الرد على المستشرقين]

[لقد كان تعدد الزوجات الى غير حد هو النظام السائد فى الجزيرة العربية . وعلى قاعدته تزوج النبى نساء ه ولكل زوجة ما يبرر زواجه بها . فلما جاء الإسلام

---

(١) انس بن مالك [ففى صحيح البخارى عن قتادة قال كنا نأتى أنس بن مالك وخبّازه قائم وقال : كلوا ! فما أعلم النبى ﷺ رأى رغيفاً رقّقاً حتى لحق بالله ، ولا رأى شاة سميطاً بعينه قط ج ٨ ص ١٢٤ وفى عطائه انظر البخارى ج ٨ ص ١٢٤ (و ٤ / ٢٢٩ ، ٦ / ١٨ ج ٨ / ١٢١]

(٢) وأبو الفدا [ص ١٦٢]جناب [البخارى ٧ / ١١ وقد أخطأ سفارى فى النقل فإن نص أبى الفدا دخل بثلاث عشرة وجمع بين إحدى عشرة وقيل انه دخل باحدى عشرة ، ولم يدخل ﷺ بأربع وتوفى عن تسع غير مارية القبطية والتسع هن عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر وسوده بنت زمعة وزينب بنت جحش وميمونة وصفية وجويريه وأم حبيبة وأم سلمة] .

(٣) القرآن سورة الأحزاب [الآية : ٥٠] .

بتحديد عدد الزوجات ، نزل القرآن أول ما أنزل بتحريم زواج النبى أى امرأة غير من تكون فى عصمته بالفعل ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج (الأحزاب:٥٢)﴾ بينما غيره من المسلمين أحرار فى الطلاق والزواج بأخريات بدلا ممن يطلقونهن . ثم نزل تحريم تعدد الزوجات أكثر من أربع لسائر الأمة المحمدية بعد ذلك فى سورة النساء . ذلك أن سورة الأحزاب نزلت قبل النساء كما هو معروف]

[فشرف النبوة ليس كما يزعم سفارى فى ألا يقيد عدد زوجاته كسائر الناس، بل كان فى السبق بتقييده أولا قبل الأمة، وتحريم الزواج عليه بأكثر ممن معه حتى ولو أن واحدة من نسائه ماتت أو طلقت ما جاز له أن يتزوج بدلا منها. فقد تزوجهن لضرورة خاصة بهن لا به، وبوفاة واحدة منهن سقطت الضرورة التى من أجلها كان تعداد الزواج. فأم حبيبة بنت أبى سفيان، كان أبوها زعيم الشرك، وقد تنصر زوجها وهى مهاجرة معه فى أرض الحبشة. فلم يكن لها ما يحمى عقيدتها لو أنها عادت إلى أهلها. فكان لزاما أن يؤويها رسول الله إلى بيته . إذ كان كل مسلم معه مشغولا بأهله.]

وزينب بنت جحش هى ابنة عمته ﷺ ، كان قد أنكحها زيداً الذى تبناه ، ولم يوفقا فى زواجهما فكان لا بد من طلاقها ، وأن يتحمل المسئول الأول عن زواجها بزيد تبعة عمله وهو النبى - فتزوجها صونا لكرامتها . لهذا وليكون بطل تشريع غريب على الجزيرة ، وهو زواج الرجل زوجة متبناه الذى كان يعد من أوهام الناس كالأبن الصلب والناس يشمئزون من زواج الرجل بامرأة ابنه من الصلب أو غيره ، ولو لم يفعل النبى هذا ، لظل الناس على اشمئزازهم من هذا الذى أحله الله، فيكفرون من حيث لا يشعرون ، ويدخل الشرك الخفى على إيمانهم ، لأنه كما قال ﷺ «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » ويعدّ زواجه ﷺ بمن كانت تحت مولاه أعظم مثل للديمقراطية كما أن زواجها - وهى الشريفة القرشية - بمولى من الموالى مثل رائع فى الديمقراطية الاجتماعية كذلك[1] وأشهد أن هذا أمر عظيم . فلقد طلق رجل زوجته

---

(١) [تاريخ الاسلام السياسى ج ١ / ١٩٦ : ١٩٧ .]

الجميلة الماهرة . وكـان لموظف كـبير حـاجـة إليـهـا ، ولم يمنعـه مـن ذلك إلا أنهـا كـانت قـبله تحت رجل كـحـاجـبـه بالرغم من أن المطلق والمـطلقـة من أصلين كـريمين ، وإن كان فى المال أقل .]

[وأما حفصة بنت عمر بن الخطاب ، فكانت سحنتها لا تعجب الرجال ولم تجد لها زوجا فى غربتها وغربة أبيها بعد استشهاد زوجها فى بدر. فاقتضت أريحيته ﷺ أن ينكحها إجلالا لماضيها وتكريما لأبيها .]

[قد تزوج عليه السلام سودة بنت زمعة . وكانت عجوزاً مات زوجها . وكانت قد هاجرت معه الى الحبشة . ولما عادت إلى مكة ، لم يكن لها نصير يحميها ، وتأوى إلى ظله غيره ﷺ ، ولم يكن للنبى زوجة تخدمه . فخطبت له سودة لتخدمه وليحميها . كما خطبت له عائشة فى نفس الوقت – وكانت طفلة إرضاء لأبى بكر الصديق وإنقاذا لابنته المسلمة من علج كان خطبها وخشى على دينها منه .]

[وقد تزوج عليه السلام صفية بنت حيىّ بن أخطب زعيم اليهود ، وجويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق - بعد أن أعتقهما وأسلما - حرصا على آدميتهما ومنزلتهما الاجتماعية أن يفقداها لو عوملتا معاملة العبيد فى عامة البيوت . وقد أثمر زواجه بجويرية عتق أصهاره إذ أن كل صحابى أعتق أسيره تكريما للرسول وزوجته الجديدة ، فأسلم العتقاء جميعا . وصفية التى يتهم الرسول بالوقوع فى حبائل جمالها كانت قصيرة قصرا بيناً عيّرت به ، فجبر النبى خاطرها (١)]

[أما أم سلمة (هند بنت أبى أمية) فكانت عجوزاً ذات أولاد ، وقد توفى زوجها بالحبشة . وما كان لأحد أن يرعى عجوزا وبنيها فى أرض الغربة إلا رسول الله ﷺ ، ولو أنه لم يفعل لكان اهماله شأنها هى وبنيها موضع اللوم والتثريب .]

أما زينب بنت خزيمة فقد استشهد زوجها يوم أحد ، ولم يتقدم لخطبتها أحد ، ولا

---

(١) [حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ١٨٢ ط ٢]

كفيل لها من قومها مع فقر و ضنك أوجد أزمة عائلية كان لا مخرج منها إلا الزواج أو الصبر على الكفاف (١) فتزوجها عليه السلام وقد ماتت بعد شهرين فى حياته ﷺ، ولم يكن لها من يعولها غيره ، ولو أنه آواها دون زواج لنهش الكفار عرضه .]

[وفى كل الأحوال لم يكن قد نزل من السماء تحديد لعدد الزوجات ولا تثريب على أحد خالف نصا قبل نزوله وقانونا قبل نشره . ولم يتزوج بعد نزول تحديد عدد الزوجات أحدا. ولا يجوز أن يغرب عن البال أن نساء النبى أمهات المؤمنين ، ولا يجوز للمسلم أن يتزوج أمه ، فلو طلق النبى واحدة من نسائه كيما يستبقى أربعا لضاعت المطلقات ، وحرمن من يؤويهن ويجدن لديه ما يعفهن. والعصمة للرسل ولسن مرسلات .]

[هذا فضلا عن حاجة الرسالة الى عدد كبير يطلع على خاصة أحواله ﷺ لنشرها فى الناس تشريعا لهم ، وليس أفضل من زوجاته لتلك المهمة .]

[أولاد النبى]

ومن كل هؤلاء النسوة – فيما عدا مارية القبطية التى رزق منها إبراهيم – فإن خديجة هى وحدها التى أنجبت له أولاده وهم أربعة ذكور : القاسم – الذى كنى باسمه – والطيب والطاهر وعبد الله. ولقد توفوا جميعا فى سن مبكرة . وأربع بنات هن زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة. ولقد تزوجن كلهن ولم يعش بعد أبيها سوى فاطمة .

خاتمـــــة

سوف نختتم هذا المختصر بصورة للخصائص التى تميز بها مشرع الجزيرة العربية [؟!] . فلقد كان محمد رجلاً من الرجال الأفذاذ الذين ولدوا بمواهب عظيمة ولا يظهر أمثاله على مسرح الحياة إلا فى فترات متباعدة لكى يغيروا وجه الدنيا ولكى يربطوا الناس بخط سيرهم .

---

(١) [نفس المرجع ص ١٨٥ ط ٢]

[دعوى أن القرآن جمعه محمد من الكتب السابقة : سبق الرد عليها .]

[قال سفارى :]

فعندما نتأمل البداية التى انطلق منها ، ومقدار العظمة التى حققها. نعجب من قدرة العبقرية الانسانية التى تهيأت لها الظروف المساعدة . لقد ولد وثنيا [؟!] ولكنه تربى على معرفة إله واحد. و لما مزّق وشاح الوثنية ، فكر فى أن يمنح [؟] الناس عقيدة دينية. ولكن المحن التى قابلها بعد ميلاده ساعدت على تقويه روحه التى خلقت للتغلب على العقبات ولقد تعلم من ترحاله: فرأى الروم منقسمين فى عقيدتهم يلعن بعضهم بعضا. واليهود ــ أقبح الأمم ــ يستميتون فى الدفاع عن شريعة موسى ، وقبائل العرب على اختلافها غارقة فى ظلمات الشرك. تأثر بهذه المشاهد فانسحب الى عزلته ووحدته . وأخذ يفكر خمسة عشر عاما فى النظام الدينى الذى يستطيع أن يجمع - فى ظل سلطة واحدة - كلا من النصرانى واليهودى والوثنى . ولقد كانت هذه الخطة واسعة وشاملة ، ولكنها كانت مستحيلة التنفيذ . فاعتقد انه لكى يضمن لها النجاح ، يجب أن يجعل لها عقيدة بسيطة لا تقدم إلا ما يفهمه العقل ويهضمه ، حتى تناسب شعوب الأرض جميعاً . ولقد كانت هى عقيدة الله الواحد ، المنتقم عقابا لكل شر والمثيب جزاء لكل خير .

[تعقيب]

[ولقد كان الحنفاء المعاصرون له والذين قبله يدعون إلى التوحيد فلماذا فشلوا ؟ ولماذا لم يعدوا أنبياء ؟]

ولما كان فى حاجة إلى سلطان من السماء لكي يكون دينه مقبولا ، أضاف ضرورة اعتباره[؟!] رسول الله والمبلغ عنه . و بعد أن أرسى هذه القاعدة تبنى الأخلاق التى وجدها فى الديانة المسيحية والديانة اليهودية ، لأنه رآها انسب ما تكون لشعوب المناخ الحار .

[تعقيب :]

[وإذا كان تبنّى ما فى المسيحية واليهودية كفيلا برفعه إلى درجة النبوة ، فلماذا لم

يرتفع علماء المسيحية واليهودية المتخصصون فى الدعوة إلى درجة النبوة ؟ ولماذا لم يكسبوا العرب إلى صفوف الديانتين ؟]

ولم يغرب عن باله فى مشروعه أن يأخذ أمر العرب فى حسبانه . فقد كان جوهر عمله من أجلهم . فذكّرهم بأحب الذكريات إلى نفوسهم وهى اسم إبراهيم واسم إسماعيل وجعلهم ينظرون إلى الإسلام على أنه دين هذين الشخصين .

[تعقيب]

[إذا قبل نحو مليون عربى فى الجزيرة الإسلام لنسبته الى ابراهيم وإسماعيل ؟ فإن محمدا لم يقل انه مبعوث الى العرب . بل توجه بدعوته إلى الناس كافة ، والإنحياز الى أصل العرب يفقد الدعوة عالميتها﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾ فعنصر العصبية العربية مقتل لدينه ، وليس أكسير حياة . ولهذا كان المسلمون من غير العرب أضعاف العرب .]

[امتياز اللغة العربية]

ولقد كان محمد ضليعاً فى علوم لغته – أغنى لغات الأرض وأجملها جرساً ـ اذ تستطيع بتركيبها المنظوم أن تطير مع الأفكار فى انطلاقاتها، وتلحق بها من غير عناء. ويمكنها بتركيبها الموسيقى أن تقلد أصوات المخلوقات ، وحديث الموج الخافت ، وقصف الرعد ، وصفير الرياح . كان عالما بفنون اللغة التى نمقها وجملها شعراء كثيرون منذ أن وجدت مع بدء الخليقة .

[تعقيب]

[الكاتب يتجاهل انشعاب اللغات وكأنه لم يدرس علم اللغة حين قال (إن اللغة العربية وجدت مع الخليقة) وغفل عن أن سمو الحكمة فى القرآن والسنة يرجع الى المفهوم لدى الملايين التى أسلمت أو التى لا تزال تدخل الإسلام دون معرفة للغة وسحر أسلوبها .]

[ولقد قال الأديب الفرنسى لود فيك هيلكى صاحب « حديقة أبيقور » فى كتابه : إن كل ما لا يستمد قيمته من ذاته - وإنما يستمدها من جدة صياغته ومن ذوق فنى خاص - يموت بسرعة ويندثر . وما المودة الفنية كبقية « المودات » لا دوام لها ولا بقاء .. فإذا ما سرنا فى الأسلوب على ذلك النسق من الزينة الوقتية فلا مناص من التغيير فيه والتبديل كل عام . ونحن نشاهد القرآن دائماً جديداً لا يخلَق على كثرة الرد والتكرار ، وما هذا إلا لأنه ليس أسلوباً بشرياً ترجع فيه العظمة إلى مجرد اللفظ ، وإن كان اللفظ عظيماً على المستوى الذى يتناسب وجلال المعنى .]

ولقد عنى محمد بأن يضيف إلى مواعظه ودروسه سحر الأسلوب ، وإلى مبادئه الروعة والجلال اللائقين ، وإلى الأساطير [؟!] المقبولة فى زمانه لمسة أصيلة جعلتها مشوقة .

[موجز لسيرة الدعوة الإسلامية]

ولما حان الوقت الذى اختاره [؟!] لكى يعلن فيه عن مجئ رسالته ، أحاط خطواته بالسرية والإبهام، واهتم أولا بكسب من يعيشون داخل بيته الى عقيدته ، ثم ضم إليه خادمه ، وتمكن سواء بالتجائه الى الخديعة أو لتفوقه فى المعرفة - أن يكسب بعض كبار المواطنين بمكة . وحين رأى أن حزبه قد قوى ، أخذ يرعد الوثنية . ولم تكن المصائب التى أنزلت به من النفى والحرمان إلا لتقوى من عزمه . وبعد أن أعد — عن طريق رسله - مأوى فى جوار حاشية ملك الحبشة وملجأ فى المدينة ، أعلن عن أغراضه الطموحة، وكشف عن نفسه علانية. وقام النصارى بكشف أخطائه واتهموه بالدجل . ولم يجد اليهود فى هذا المواطن المكى البسيط المسيح المتوج بالجلال والمجد الذى كانوا ينتظرونه، فنبذوا دينه وناصبوه العداء . وارتعدت قريش خوفا على دينها الذى كان أساس قوتها ونفوذها، فوعدت بمكافأة لمن يأتيها برأسه . ولكن تضافر هذا الصخب وهذا الحقد لم يخفه . فقد كان ثباته فوق كل المصائب ، وكانت عبقريته مهيأة لتذليل كل العقبات . واستفاد من العزلة التى أتيحت له عند الخزرج بفضل إحكامه مؤامرته [؟!] وعمل على تسليح المدينة ضد مكة ، وصمم على أن يخضع بقوة السلاح كل من لم يستطع إخضاعه بقوة الاقناع .[؟!] .

[مغالطة تاريخية]

[وكل دارسى التاريخ لم يذكروا أنه كان بين النبى والنجاشى عند الهجرة الى الحبشة أى علاقة . وكان المهاجرون الأولون ١٦ مهاجراً . ولكنه تزييف التاريخ يصنعه المستشرقون . كما يعلم كل ذى دراية بالسيرة أن النبى أعلن دعوته من فوق جبل الصفا بين قومه . ولم يكن معه عشرون رجلا وامرأة . بل إن كل مهاجرى الحبشة كانوا فى المرتين ٨٣ رجلا . فهل يصلح ذلك العدد لغزو الدنيا من أجل مغنم مادى ؟ أم إن التضحية حتما ستكون أكبر من الغنائم . مما يصرف ذوى الاغراض المادية عن المغامرة والتضحيات ؟ إن ثبات النبى بهذه القلة على دعوته أقوى دليل على أنهم لم يريدوا الدنيا، وإنما أرادوا الله والدار الآخرة .]

ولما يئس محمد من إمكان التغلب على تمسك اليهود والنصارى بدينهم ، ألغى القوانين التى كان قد اصدرها[؟!] لصالحهم ، ووجه كل عنايته إلى العرب . فغير قبلة الصلاة وجعلها فى اتجاه مكة . وكان هذا المبدأ محل اعجاب وتهليل . وبينما كان الشعب ينظر إليه على أنه نعمة من السماء ، كان المشرع يرى فيه أسلوبا لتثبيت فكر أتباعه على المكان الذى كان متحمسا للاستيلاء عليه .

[المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار]

ونقطة هامة كانت تشغل بال النبى وهى أن يجمع بالروابط المقدسة كل القبائل التى كانت تفرقها الاحقاد القديمة . فأوجد نظام الأخوة . هذا النظام الذى جعل من المواطنين المتفرقين أسرة واحدة تضافرت جهودها لتحقيق مجد القائد الذى كان يوجهها [واضح أن المستشرق يتجاهل طبيعة العربى ذى الأنفة والكبرياء .]

[المغازى]

ولم يكن مفر من مقاومة الأعداء وصدهم بقوة السلاح . وعندئذ أظهر إقداما وشجاعة وجرأة كانت قد ظهرت بشائرها فى المعارك التى خاضها تحت رعاية ابى طالب . وهنا أخذت تتجلى مواهبه كقائد عسكرى عظيم . وكان النصر أو الشهادة هما البديلان اللذان

عرض على جنوده اختيار أحدهما . وألهب شجاعتهم الأمل فى الحصول عل غنيمة كانت توزع دائماً بالعدل .

[تعقيب]

[نسى الكاتب أن من يرميهم بالطمع فى الغنائم . تركوا ديارهم وأموالهم وهاجروا فى سبيل الله . وتناسى أنهم تركوا لبنى المصطلق ولهوازن ماطلب النبى منهم أن يتركوه . ورجع جيش المدينة من كلا المعركتين بثواب الله وحده . ونسى أن من المسلمين من كان يتبرع بكل ماله أو بنصفه لله ، أو يجهز جنودا أو كتائب لنصرة الإسلام . وليس يخرج طمعاً فى مغنم من المغانم . وتناسى الكاتب أن بعض السرايا كانت استطلاعية ومأمورة بعدم القتال إلا عند الضرورة]

وكان ضمان المدد الإلهى الدائم والمتواصل ، قد جعل جنوده لا يقهرون . ولما اضطر إلى محاربة الجزيرة العربية بأسرها بقوة مواطنى المدينة وحدها ، اعتمد على سرعة معاركه وحسن اختياره للمواقع العسكرية الممتازة ، وعلى تنمية الشجاعة العسكرية فى مقاتليه حتى يتفوق على أعدائه . وبينما كان ينفخ فى القلوب حمية التعصب الدينى [؟!] وهو فى قلب المعمعة ، كان وهو هادئ النفس يرقب حركات جيش العدو حتى يستفيد من أى خطأ أو يلجأ الى الخديعة لكى ينتزع النصر . وكان يوم « أُحد » هو اليوم الوحيد الذى أدار له فيه الحظ ظهره . ولكنه كشف عن عمق عبقريته ، وعن السطوة التى كان يتمتع بها ويسيطر على العقول . ورغم أن المشركين قد انتصروا فى ذلك اليوم إلا أنهم لم يجرؤوا على الاستمرار فى تفوقهم ولم يحدث أن انفصل واحد من المسلمين عن نبيه.

[مكاتبة الملوك]

ولما أتم دمار اليهود ، واخضاع كثير من القبائل العربية مما أدى إلى اتساع سلطانه ، أرسل السفراء إلى الملوك والحكام الأجانب ولم يكن يطمع فى أن يدخلوا جميعاً فى الإسلام ، ولكنه كان يحاول إيجاد مبررات لمهاجمتهم عندما يحين الوقت[؟!] .

[تعقيب]

[الكاتب ينسى هنا أن من قواعد الاسلام ما جاء به صريح القرآن ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾]

[فتح مكة]

وبعد ثماني سنوات من المعارك ومن الانتصارات ، اضطرت مكة إلى أن تستسلم للطوفان. وأن تفتح أبوابها للفاتح المنتصر ، فحكمها حكم الأسياد [ونسى الكاتب العفو الشامل من النبى] ولما عاد إلى المدينة أخذ يلم الأطراف المبعثرة من مملكته الناشئة ويعطيها قواماً معنويا.

ولقد كان خبيراً بنفوس الناس حتى إن جميع الحكام والقواد الذين اختارهم ، كانوا كلهم عظماء الشخصيات .

[تعقيب]

[واذا كانوا من عظماء الشخصيات ، فهل يقبل أن يكونوا جميعا مغفلين عاجزين عن اكتشاف دجل محمد ﷺ لو أنه كان دجالا أوعلي الاقل اكتشاف ما يثير الشكوك حول أغراضه فيحدوا من اندفاعهم في الجهاد والتضحيات البالغة .]

وخلفه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي - وهم أشهر اصدقائه فى حكم امبراطوريته - ومدوا حدودها إلى بعيد جدا. ولقد كان طموحه يوجه نظر ه الى الشام فى إعجاب . فاخترق خالد الرمال المحرقة بالجزيرة، وذهب لينتقم لموت رسول قتله الروم غدراً وهو آمن ومسالم . ولقد حقق هذا القائد العظيم نصرا كبيرا لا زالت كتب الأجيال المتعاقبة تحمل ذكراه. وكان يكفى دم مئات الألوف من الروم لتحقيق الثأر، ولكنه لم يكف لارضاء الأطماع [؟!] . وكان محمد قد عزم على تفتيت أمبراطورية هرقل ، ولكنه لما تمتع به من حكمة فى إجراءاته، وسرعة فى التنفيذ ، أدرك أن الأولى به قبل أن يهاجمها هو أن يطمئن جانبه من صغار الأمراء الذين يحكمون أطراف الجزيرة . وتمكن هذا القائد بنفسه - وهو الذى لم يكن يستطيع منذ ثمانى سنوات مضت أن يجمع تحت لوائه إلا الثلاثمائة وثلاثة عشر جنديا - من أن يتحرك نحو الشام

على رأس جيش من ثلاثين ألف رجل. واخترق الصحراء والرمال كـالبرق فعسكر بتبوك . ولقد تمكن في عـشرين يوما من إخـضاع جـميع القبـائل والبلدان الممتـدة إلى حدود الشـام . وفرض الجزية على من أبى أن يترك دينه. ثم عاد الى المدينة محملا بالغنائم ومتوجا بالمجد .

وعند عودته علم بخـضوع ملوك حِمْيَر الذين كـانوا يحكمون أقاليم اليـمن . ثم جاء زعماء صغار قبائل المشركين تباعا يخـضعون جباههم أمام فاتح مكة ، ويعتنقون ديانته . وأصبحت هذه الجزيرة التى تمتد من البحـر الأحمر إلى الخليج الفارسى تخضع لسلطانه . وكـان يتجـهز لدخـول الأمبـراطورية الرومـانية. وكـان أربعون ألف مـقاتل أو أكـثر قـد احتشـدوا تحت قيادته، لكي يزلزلوا عرش القـياصرة . عندما جاء الموت يوقف مـشروعاته وامتداد صولجانه .

[الحزن العام لوفاة النبي]

بهذ النبأ غرقت المدينة فى حزن شامل . والصـورة التى ينقلها إلينا المؤلفون المعاصرون لهذا الحداد العام الذى غـطى هذه المدينة ـ صورة مروعة للغـاية ، وتدل على مقدار ما كان يـتمتع به محمد من نفوذ على العقول .

[شخصيته]

لقد كان سياسياً بارعا وقائدا عظيماً أرسى سلطانه على أساس متين حتى ان الجزيرة العربية ظلت وفـية للإسـلام وأن خلفاءه لم يسـعهم إلا اتبـاع الطريق التى رسـمهـا لهم . ولقد حـمس نفوس أصحابه بغـزواته حتى إن كثـيرا منهم أصبحـوا قادة نابهين ، وقلبوا تحـت اسم المغاربة Sarrasins عرش الفـرس ، ومزقوا امبـراطورية الشرق ، واستولوا على مـصر والشام وافريقـيا وقهروا أسبانيا . ولكثرة ما قاتلوا و انتصروا كادوا يكلبوا العالم كله بالحديد [؟!] .

[تعقيب]

[كيـف هذا واليـهـود ـ شـر خلق الله ـ يذكـرون أنهـم لم يجـدوا الأمن والحـرية إلا في ظل الإسلام . وبشهادتهم شهد الأحرار من المسيحيين من كافة الطبقات .]

لقد كـانت هذه هى نتائج الحماسـة التى عرف محمـد كيف يلهم بها المقـاتلين الذين نشأوا

فى مدرسته. أما الممالك العظيمة التى أقامها خلفاؤه بعد ذلك ، فقد انهارت لأن المواهب لا تورث كما يورث الملك . ولكن القوانين التى وضعها بقيت بعد زوال هذه الممالك .

[تعقيب]

[أي غفلة هذه التي وقع فيها سفاري . هذه الممالك العظيمة لا يزال فيها الإسلام مصر والشام والعراق وفارس وباكستان واندونسيا وشمال إفريقيا والسودان ونحو سدس العالمين بالرغم من سقوط نظام الحكم الإسلامي تحت ضغوط ومؤامرات الصليبية .]

وبينما نري بعض المؤرخين المتحمسين يصورون محمدا على أنه انسان أحمق[؟!] لا زال جزء من سكان الأرض يوقرون ذكراه ، ويتبعون دينه بلا تبصر[؟!]منذ ألف ومائتى سنة. فإن الحكماء من بين الشرقيين الذين يتسامون فوق النظرة السطحية ينكرون عليه لقب النبى[؟!]وينظرون إليه باعتباره من أكبر الرجال الذين خلقوا على هذه الأرض
[تعقيب]

[هؤلاء الحكماء الذين ذكرهم هم المصبوغون بثقافة المبشرين والمستشرقين والغربيين الصليبيين . أما الاحرار من الفلاسفة في الغرب والشرق ، فلا يسعهم إلا أن يقولوا« محمد رسول الله» . فتزييف النبوات يفضحه الله كما حدث لمن سيذكرهم الكاتب بعد ذلك]

[المتنبئون الكذابون]

ولقد أراد فريق من النبيين المزيفين أن يحذوا حذوه دون أن تكون لهم مواهبه ومعارفه وعلومه ، فانهاروا انهيارا تناسبت فداحته مع حجم مواهبهم .

هذه هى الصورة الحقيقية التى يقدمها لنا التاريخ عن محمد ، وتستند كل الملامح التى يعرضها على الوقائع التاريخية التى جمعتها هنا بكل نزاهة [؟!]

[تعقيب]

[وهذه هى الصورة الحقيقية التي يقدمها لنا تاريخ الفكر عن الاستشراق ،

وأغراض المستشرقين الخبيثة عندما يكتبون عن رسول الله أو الإسلام .بقصد التحريف و التشويه و التضليل و الصد عن سبيل الله. بإيجاز ناقشناها . والحق أبلج والباطل لجلج. وما الله بغافل عما يعمل الظالمون .]

[وشهد شاهد]

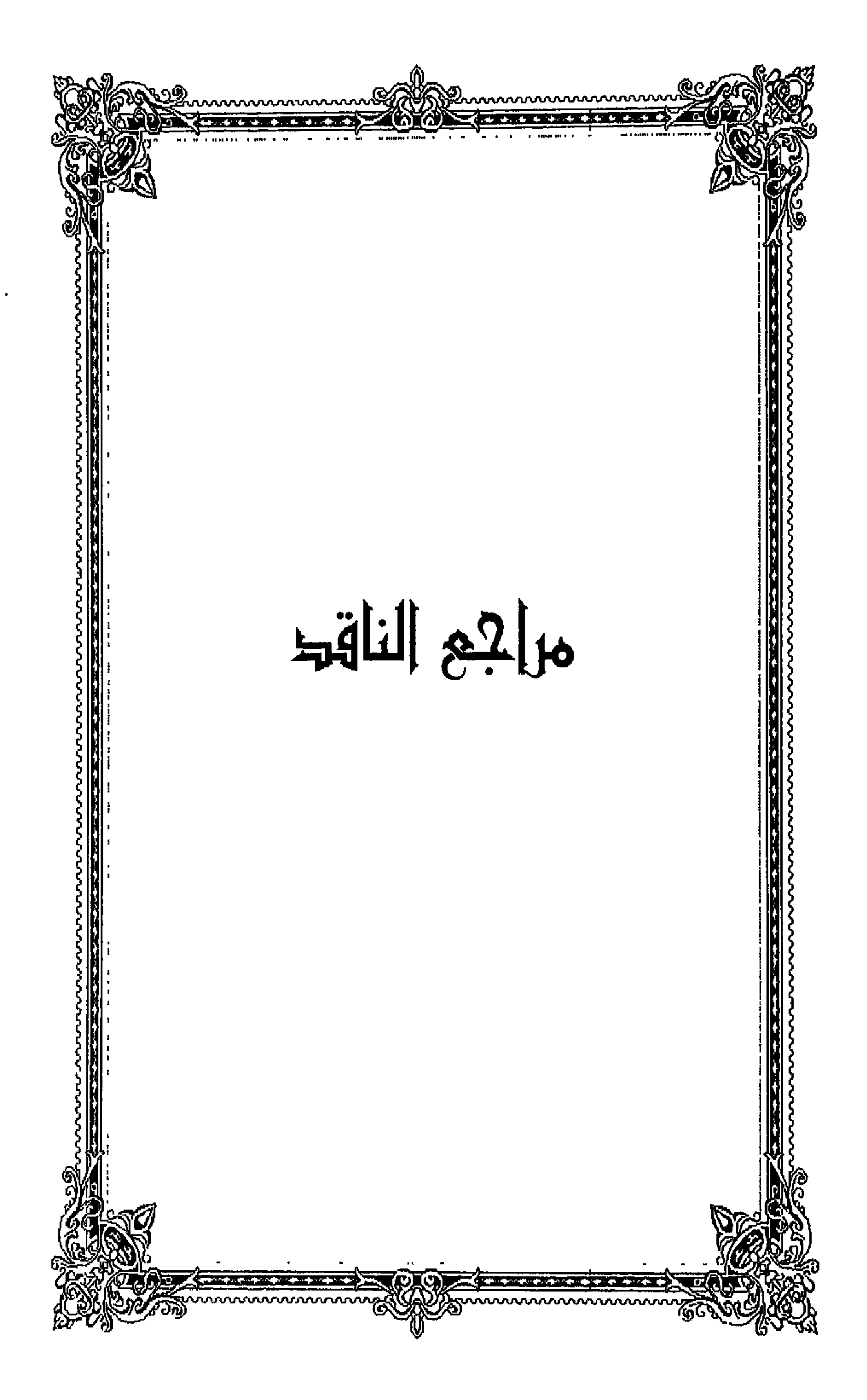
[ولعل خير ما نختم به هذه الدراسة شهادة شاهد من المستشرقين للنبي والإسلام . والفضل ما شهدت به الأعداء لقد قال :

[كان أئمة اللاهوت في إفريقيا والشام قد استبدلوا بديانة المسيح عقائد ميتافيزيقية عويصة. ذلك أنهم حاولوا أن يحاربوا ما ساد هذا العصر من فساد بتوضيح فضل العزوبة في السماء ، وسمو البكورية إلي مرتبة الملائكية . فكان اعتزال العالم هو الطريق إلي القداسة. والقذارة صفة لطهارة الرهبنة. وكان الناس في الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة .كما كانت الطبقات العليا مخنثة يشيع فيها الفساد ، والطبقات الوسطي مرهقة بالضرائب ، ولم يكن للعبيد أمل في حاضرهم ولا في مستقبلهم . فأزال الإسلام بعون من الله هذه المجموعة من الفساد والخرافات .. لقد كان ثورة على المجادلة الجوفاء في العقيدة ، وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوي . ولقد بين أصول الدين التي تقوم علي وحدانية الله ، كما بين أن الله رحيم عادل يدعو الناس الي الامتثال لأوامره والإيمان به. وتفويض الأمر إليه. وأعلن أن المرء مسئول. وأن هناك حياة آخرة. يوماً للحساب . وأعد للأشرار عقابا أليما. وفرض الصلاة والزكاة والصوم وفعل الخير ونبذ المظاهر الكاذبة والدجل الديني والترهات والنزاعات الأخلاقية الضالة وسفسطة المتنازعين في الدين . وأحل الشجاعة محل الرهبنة . ومنح العبد رجاءً والإنسانية إخاء . ووهب الناس إدراكا للحقائق الأساسية التي تقوم عليها الطبيعة البشرية (١)]

* * *

---

(١) [الدعوة للإسلام ص ٦٧ سيرت / وارنولد ـ انتشار الإسلام بالطريق السلمي ص ٣٢-٣٣ .]



مراجع الناقد

مراجع الناقد

اسم الكتاب	المؤلف والناشر
١ – إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري	* الإمام القسطلاني . ط المطبعة الكبري الأميرية ط ٦
٢ – الاسلام وأثره في الثقافة العالمية	* د . محمد سلام مدكور سلسلة دراسات الإسلام ع ٦٧
٣ – انتشار الإسلام بالطريق السلمي	* محمد فادي عسر ط المجلس الأعلي للشئون الإسلامية
٤ – انتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث	* مالك بن نبي - مكتبة عمار والوعي الإسلامي ع ٥٠,٤٩
٥ – الأنوار المحمدية	* القاضي يوسف النبهاني
٦ – بطل الأبطال ج ١	* عبد الرحمن عزام (باشا) ط أولي مصطفي البابي الحلبي وأولاده بمصر
٧ – البطولة والأبطال	* د . محمد أحمد الحوفي ط نهضة مصر ومطبعتها
٨ – تاريخ القرآن	* إبراهيم الإبياري ط دار القلم
٩ – تاريخ الإسلام السياسي والديني والاجتماعى	* د . حسن ابراهيم حسن . ط ٣ النهضة المصرية
١٠ – تاريخ الطبري	* الطبري - دار المعارف
١١ – التجريد الصريح لأحاديث الصحيح	* الزبيدي بهامش فتح المبدي
١٢ – تفسير الخازن	* علاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي المعروف بالخازن ط التقدم العلمية بمصر

١٣ – تهذيب سيرة بن هشام . * عبد السلام هارون ط سعد مصر للتوزيع بالقاهرة

١٤ – ثبات الإيمان ونصرة القرآن في الرد علي هاشم العربي الطاعن في القرآن في كتابه المسمي بالتذييل * محمد حلاوة المرصفي * ط الامتياز بالزقازيق سنة ١٣٢٩ هـ

١٥ – الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة * د . محمد خلف الله أحمد ط ٢ النهضة المصرية

١٦ – الجامع الصحيح * الامام البخاري ط الشعب

١٧ – حياة محمد * اميل درمنجم وترجمة عادل زعيتر ط٢ دار احياء الكتب العربية بالقاهرة .

١٨ – حياة محمد * د . محمد حسين هيكل ط ٢

١٩ – حقائق الإسلام وأباطيل خصومه * عباس العقاد ط ٢

٢٠ – خاتم النبيين في نظر المستشرقين * كازيمركسي ترجمة وتعليق أبو الوفاء درويش

٢١ – الدرر في اختصار المغازي والسير * ابن عبد البر الحافظ يوسف بن عبد البر النمري ط المجلس الأعلي للشئون الإسلامية

٢٢ – الدعوة إلي الإسلام * توماس وأرنولد . ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرين النهضة المصرية

٢٣ – الرسالة المحمدية * السيد سليمان الندوي ـ ترجمة محمد ناظم الندوي ط السلفية بالقاهرة

٢٤ – السنة ومكانتها * د . مصطفي السباعي

٢٥ – سيرة النبي عليه السلام * ابن هشام ط القاهرة ١٣٣٧ هـ

٢٦ – الطبقات الكبري * محمد بن سعد كاتب الواقدي .ط الشعب

٢٧ – عائشة أم المؤمنين * الاستاذه زاهية مصطفي قدوره ط لجنة البيان العربي

٢٨ – عبقرية خالد * عباس محمود العقاد ط سنة ١٩٧٠

٢٩ – غارة تبشيرية جديدة علي أندونسيا * مكتبة الكويت

٣٠ – فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى ج ٣ * الشيخ الشرقاوي

٣١ – فقه السيرة * محمد الغزالي ط دار الكتب الحديثة بالقاهرة ط ٤

٣٢ – في الأدب الحديث ج ١ * د . عمر الدسوقي ط أولي

٣٣ – قصص الانبياء * عبد الوهاب النجار دار الثقافة ببيروت

٣٤ – المبشرون والمستشرقون في الاسلام * د . محمد البيهي * ط الأزهر

٣٥ – المثل الأعلي في الأنبياء . * خ . كمال الدين . ترجمة أمين محمود الشريف . ط النموذجية بالحلمية الجديدة بالقاهرة - سكة الشابوري .

٣٦ – مجمع الأمثال * أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري المعروف بالميداني المتوفي سنة ٥١٨ هـ ط المطبعة البهية المصرية بميدان الأزهر سنة ١٣٤٢

٣٧ – محمد رسول الله ، هكذا بشرت الأناجيل * بشري زخاري ميخائيل الناشر عالم الكتب بالقاهرة ٣٧ ش عبد الخالق ثروت

٣٨ – المختصر في اخبار البشر * بو الفدا وهو اسماعيل بن علي الايوبي الملك المؤيد عماد الدين طبعة دار الطباعة العامرة الشاهانية القسطنطينية سنة ١١٨٦ هـ

٣٩ – المستشرقون * نجيب العقيقي ط ٢ و ط ٣

٤٠ – المسشرقون والإسلام *زكريا هاشم زكريا المجلس الاعلي للشئون الاسلامية

٤١ – المستشرقون والمبشرون في العالم العربي الإسلامي *ابراهيم خليل احمد مكتبة الوعي العربي ١٩٦٤

٤٢ – نسب قريش * أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري نشرة أ . ليفي - بروفنسال . ط دار المعارف

دوريـــــات

٤٣ – مجلة الأزهر س ٧ * الأزهر بالقاهرة

٤٤ – مجلة الرابطة الاسلامية * الرابطة الإسلامية بمكة

٤٥ – مجلة المعرفة المجلد الأول والثاني * مؤسسها عبد العزيز الاسلامبولي سنة ١٩٣١ * ١٣٤٩ هـ وما بعدها .



ثبت بالموضوعات

ثبت بالموضوعات

هذا الكتاب

- هو عرض كامل « لمختصر حياة محمد » للمستشرق الفرنسي « م. سفاري» قدم به لترجمته للقرآن الكريم باللغة الفرنسية ، ولفق فيه أحداث السيرة النبوية لتحقيق غرضه في تصوير الرسول العظيم - ﷺ - على أنه شخصية فذة وليس نبيًا مرسلاً ، ساعدته الصدف المدهشة لإيهام العرب بأنه نبي مرسل وأتقن - كما زعم - دوره التمثيلي حتى في ساعات الاحتضار .
- وقد أعد الأستاذ الكبير الدكتور / عبد المتعال محمد الجبري دراسة واسعة مستفيضة هوى فيها بمعول الحق على المغالطات والمفتريات وعلى ما يقوله المستشرقون في السيرة النبوية فإذا الباطل زاهق ، وإذا الحقيقة ساطعة وشامخة مدعمة بكل الحجج والبراهين والأسانيد والمراجع .. فجاء الكتاب مناقشة علمية، وعرضا موضوعيًا جادا لطريقين متعارضين.. الضلال والهدى ..... ﴿ **إنا هديناه السبيل إما شاكرًا وإما كفورًا** ﴾ والكتاب يعد حلما راود كثيرين من الغيورين علي الإسلام .
- وقد ترجم الأصل الفرنسي الأستاذ / محمد عبد العظيم علي ، ترجمة أمينة بأسلوب جمع بين الجذالة والسهولة .
- ودار الدعوة تقدم للعالم الإسلامي «السيرة النبوية» في دراسة بأسلوب جديد وغير تقليدي يتناسب مع مايواجه الفكر الإسلامي المعاصر من تحديات ..

والله من وراء القصد ،

دار الدعــــ